رسائل السلام
(٢)

كنوز الفقَراء

رواية

د. نور الدين أبو لحية

رسائل السلام

(2)

كنوز الفقراء

رواية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية

1436 – 2015

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

إن المعانـــاة النفســـية الـــتي يعيشـــها الفقـــراء والمعوزون وأصحاب الآلام المختلفـة أكـبر بكثـير من الآلام الحسية والمادية التي تصيبهم، ذلك أن المعاناة الماديـــة لا تمس إلا أجســـادهم أو جيـــوبهم.. بينمـــا المعاناة النفسية تصيب بسـهامها المسـمومة القاتلـة أرواحهم وقلوبهم وجميع لطائفهم، فتملؤهـا بالصـراع والألم..

ولذلك كانت هذه الرواية حوارا عقليا ووجـدانيا مـع اللطـائف الـتي تتحكم في وعي الإنسـان وشـعوره، لتعيـد لـه توازنـه النفسـي، وتقـول لـه: لا تـدع غيلان الفقر والألم والصراع تؤثر على روحك بعـد أن أثـرت على جسدك.. ولا تـدعها تتحكم في حياتـك الحقيقيـة بعد أن تحكمت في حياتك الوهمية..

وتقول له: يمكنك – إذا أردت- أن تظفر بكـل كنـوز الرضا والقناعـة والاسـتغناء والأمـل الـتي لا تقـل عن جميع كنوز الدنيا.. بل تفوقها.. بل لا يمكن مقارنة أي كنز من الكنوز بها.

وهي – في أحـداثها البسـيطة - تـدور حـول رحلـة تقـوم بهـا شخصـية خياليـة ممتلئـة بالحكمـة والعلم والعقلانيـة، ولهـا بالإضـافة إلى ذلـك قـدرات فائقـة اسمها (معلم السلام) مـع تلميـذه البسـيط (الـراوي) الذي تألم لحال فقير من الفقـراء، وثـارت في نفسـه اعتراضات شديدة على وضعه، فأدخلـه معلم السـلام إلى أعمـاق وجـدان الفقـير الـذي تـألم لـه ليكتشـف الكنوز العظيمة الـتي يمتلئ بهـا قلبـه.. والـتي تجعلـه يعيش سـلاما داخليـا عميقـا وعظيمـا لا يحلم بمثلـه أثرياء المادة فقراء الروح.

والرواية من خلال تلك الحوارات المبسـطة تحـاول

أن تبين شمولية الإسلام في معالجتـه للفقـر، فهـو لا يكتفي بالعلاج المادي، بل يضم إليه جميع أنواع العلاج الروحية والنفسية والاجتماعية وغيرها.

معلم السلام

كنت مهموما حين زارني هـذا المـرة ــ ككـل مـرة، من غــير ميعـاد ولا اســتئذان ـــ قـال لي: تبــدو على سحنات وجهك هموم الحزن القاتل.

قلت: ومن لا يهتم في هذا الزمان؟

قال: ألا تعلم أن الهم عدو السلام؟

قلت: ومن لي بـأن لا أهتم.. وهـل أمـري بيـدي؟.. إنما أنـا كعصـفورة عصـفت بهـا الريـاح، فلمـا هـدأت سقطت في شباك أطفـال يسـومونها سـوء العـذاب، فإن نجت منهم، هم بها نسر ليطعمها أصغر أولاده.

قال: نعم.. لك أن لا تهتم.

قلت: كيف؟

قال: بعلم السلام.. أنسيت أني معلم السلام.

قلت: وما علاقة ما أنا فيه بالسلام؟

قال: ما سبب همك؟

قلت: رأيت اليـوم مشـهدا فتت قلـبي واعتصـره، فذرفت من دمعي أنهره.

قال: وما رأيت؟

قلت: رأيت فقــيرا مكســور الجنــاح.. هــو تمامــا كالعصـفورة الـتي حـدثتك عنهـا، ولكـني مـع ذلـك لم أحزن لهـذا.. إنمـا حـزنت على شـللي بين يديـه، فلم أسـتطع أن أقـدم لـه أو أؤخـر.. ومـع ذلـك لم أحـزن لهذا.. إنما حزنت للنظرات القاسية التي كانت تتوجـه إليـه، وكأنـه ممـرور أو مجـذوم، أو كأنـه شـيطان من الشياطين، لا يعبس إلا في وجهه.

قال: ولذلك قلت لك: لن تنجـو من همـك إلا بتعلم السلام.

قلت: كيف؟

قـال: لأن الحـزن الـذي يعتلج في صـدرك سـهام تحارب بهـا رحمـة ربـك، ادخـل في أعمـاق وجـدانك، وقل لي ماذا ترى؟

دخلت أعماق وجداني، فرأيت ظلمات قاسية هبت منهـا، فنـاداني، التفت، فـإذا هـو أمـامي، قـال لي: اسـألها: مـا محلـك من أعمـاقي، ومن أدخلـك في سراديب وجداني؟

سـألتها، فتكلمت بلا حـرف ولا صـوت، قـالت: أنـا الاعتراض على حكمة الحكيم، ورحمة الـرحيم، وجـود أكرم الأكرمين.

قلت: فأي محل تملئين، ولأي سر تسترين؟

قالت: أستر حقائق الجود، وخزائن اللطف، لأنشـر أوهام الهم والحزن.

قلت: وما المخرج منك؟

قالت: أنا أضعف من أن أدلك على المخرج، هو ذا المعلم أمامك، فاسأله.

التفت إلى المعلم، فقال: اخرج من أعماقك، وهيـا بنا إلى أعماق الفقير الذي اهتممت له، وحزنت عليه، واعترضت على حكمة الحكيم ورحمة الرحيم بسـببه، لتستخرج من أعماقه (كنوز الفقراء)

قلت: لا طاقة لي بالتجول في أعماق الناس.

قال: دعك من هذا، فالقـدرة منـه لا منـك، والأمـر بيده لا بيدك.

ثم التفت إلي، وقـال: لا تنس قلمـك، فسـننطلق من أعماق ذلك الفقير الذي حزنت له لنسطر رسـالة من رسائل السلام، تمسـح الحـزن عن آلام الفقـراء، وتدلهم على الكنوز التي يدفنونها بأوهامهم وأحـزانهم واعتراضهم.

***

لم يكن أمامي إلا الخضـوع لأمـره، لكـني قلت لـه من غير أن أشعر: هل نستقل سيارة للوصول إليه، أو نبحث في دفاتر المعدمين عليه؟ فإني رأيته ولكني لا أعرفه.

قـال: أغمض عينيـك، وافتحهمـا لـتراه أمامـك، أو لترى نفسك أمامه، فقد قال الحق تعالى:{ قَـالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِـهِ قَبْـلَ أَنْ يَرْتَـدَّ إِلَيْـكَ طَرْفُكَ }(النمل: 40)

ما إن فتحت عيني بعد إغماضها حتى رأيته، لسـت أدري، هل أتى به إلي، أم حملني إليه!؟

قال لي: انظر إليه جيدا.

قلت: نعم لقد نظرت إليـه، فنشـر من الحـزن مـا كان كامنا، ومن الهم ما كان مدفونا.

قال: انظر إليه، ولا تنظر إلى ثيابـه، فالثيـاب كفن الإنسان، لا روح الإنسان.

نظـرت إلى سـحنة وجهـه، فـإذا بهـا شـاحبة قـد اعتصرتها الأيام، وكأنها أكلت لحمه وعظمه، ولم تبـق له إلا جلدة شاحبة تستر جمجمته.

قلت: لقد نظرت، فما زادتني رؤيتي له إلا هما.

قـال: انظـر إليـه إنسـانا لا جمجمـة، ألم تعلم أن الإنسان كل لا يتجزأ، وحقيقة لا تتعدد؟

نظرت إليه مجموعـا، فلم أزدد إلا همـا، لقـد رأيت قواما شاحبا، ورجلين كعودين يقوم عليهما هيكـل لـو شاء النسيم العليل أن يهوي به لفعل.

ضحك، وقال: لم تزدد إلا هما.

قلت: كأني بـك تمـزح بي، طلبت منـك أن تمسـح همي، فزدتني هما على هم.

قال: لا بأس عليك سيمسح همك، اصبر، وإلا قلت لـك مـا قيـل لموسـى ﵇:{ إِنَّكَ لَنْ تَسْـتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً}(الكهف: 67)

قلت، وقـد أصـابتني رعـدة من أن يفـارقني كمـا فـارق الخضـر موسـى ﵇:{ سَـتَجِدُنِي إِنْ شَـاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً}(الكهف: 69)

قـال: انظـر إلى ذلـك الـذي ملأت قلبـك غمـا من أجله، لتنجلي أحزانك.

نظرت، فإذا بذلك الظل الذي لا قوام له، والشـبح الـذي لا ظـل لـه، يبتسـم ابتسـامة دونهـا ابتسـامة الملوك، ويصيح ملء فيـه:(الحمـد للـه رب العـالمين صـاحب الفضـل العظيم.. أطعمنـا وسـقانا، وكفانـا وآوانا.. ومن كل شيء أعطانا)

كانت كلماته كألحان عذبة.. تفوح بـروائح عطـرة.. تشرق مثل لآلئ البحر المكنون..

جلس إلى صـبية لـه تبـدو عليهم علائم السـرور، ومخايـل النجابـة، فحـدثهم وداعبهم وضـحك إليهم وضحكوا له.

لم يكن في بيته شيء يسـتدعي افـترار الثغـر عن الابتسامة، إنما هـو جـدار بـال، وفـراش بسـيط، وفي زاوية الـبيت فـأس ورفش، لسـت أدري مـا علاقتهمـا

بالبيت، وما علاقة البيت بهما.

قال لي المعلم: اذهب إلى هذا الذي اهتممت له، واسأله ما يشكو، وما يطلب، وسأحقق له ــ بفضل الله ـ طلبته.

فرحت، فلعل في قدرات المعلم ما يرفع جداره، ويرفه فراشه، ويدسم طعامه، ولم أدر إلا وأنا أخاطب الفقير بقولي: ما الذي تفتقده؟ وما الذي تريده؟ فإن عجزت عن إعطائك في الصباح، فقد وجدت من يعطيك في المساء.

التفت إلي باهتا، وقال: وما الذي ينقصني حتى تكمله؟ وما الذي يعوزني حتى توجده؟

قلت: المال والثراء، والقصور والمراكب، واللباس الجميل.. والطعام اللذيذ.

ضحك، وقال: عن أي لعب تتحدث؟

قلت: أي لعب!؟.. أنا لا أتحدث عن لعب، بل أريد نقلك من الفقر الذي تعيشه إلى الغنى الذي لا تحلم به.

قال: ومن أخبرك بأني فقير؟

قلت: سحنة وجهك، وأسمال ثيابك، وجدار بيتك.. كل ما فيك ينم عنك.

ضحك، وقال: ألم يقل لك المعلم: انظر إلى الإنسان، لا إلى أشياء الإنسان؟

قلت: أتعرف المعلم؟

قال: كلهم يعرفونه، وكلهم ينكرونه؟

قلت: كيف؟

قال: يدعوهم، فلا يستجيبون.. ويمد يده إليهم، فيقبضون أيديهم.. يصيح فيهم، فيصخون آذانهم، ويملأون الأرض لغوا لكي لا يسمعوه، ويملأوها ضبابا لكي لا يروه.

قلت: إلام يدعوهم؟

قال: إلى مدائن الغنى التي خبئت فيها كنوز الفقراء.

قلت: وهل دخلت إليها؟

قال: لم أخرج منها، بل أنا ثري من أثريائها.

قلت باسما بسخرية مختلطة بهيبة: أنت ثري؟

قال بجرأة: نعم، وأرجوا من فقرائكم الذين يدفنون أنفسهم في ناطحات السحاب، ويكفنون أرواحهم في أكفان الحرير، أن يلتحقوا بمدائن الغنى لينهلوا من كنوزها ما يغنيهم عن مد اليد بالسؤال.

قلت مبتسما: أتتهم أغنياء العالم بالتسول؟

قال: وهل هناك متسول محترف أكثر منهم؟

قلت: بل هم الذين يمدون أيديهم للمتسولين بالعطاء.

قال: وهم الذين يمدون أيديهم لكل شيء بالفقر.

قلت: أهم يفتقرون إلى كل شيء!؟

قال: نعم، لأن من لم يستغن به يفتقر إلى كل شيء، ألم تسمع قول الحكيم:(ماذا وجد من فقدك)!؟

قلت: بلى، وهو القائل:(وماذا فقد من وجدك)

قال: ما أكثر ما تحفظون، وما أسرع ما تنسون.

هزني عتابه، وشعرت أني بين يديه كنملة بين يدي فيل، فقال لي: بل أنت كتلميذ بين يدي أستاذ، أو تائه بين يدي مرشد.

قلت: مرشد؟.. إلى أي طريق؟.. وفي أي متاهة؟

قال: أنا المرشد الذي يسير بالسالكين في مـدائن الغنى، ليملأ خزائنهم بكنوز الفقراء.

فقلت:{ هَــلْ أَتَّبِعُــكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً}(الكهف: 66)

قال لي: لست معلم السـلام، ذلـك معلم السـلام، الذي شرب من عيون السلام.

قلت: وهل يمكن أن أشرب منها؟

قال: تلك رحلة طويلة، فلا تسـأل عن شـيء حـتى يأتي زمانه، ألم تسمع قول الخضر ﵇:{ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْـأَلْنِي عَنْ شَـيْءٍ حَتَّى أُحْـدِثَ لَـكَ مِنْـهُ ذِكْـراً}(الكهف:70)؟

فجـأة.. لم أجـد أمـامي شـيئا، لسـت أدري هـل انصرفا عني أم انصرفت عنهما.

***

في الغـد جـاءني معلم السـلام، وقـال لي: خـذ قلمك وقراطيسك، فسنرحل إلى مدائن الغنى لنجمع كنوز الفقراء.

سال لعـابي، وحلمت بـالثروة الـتي حـرمت منهـا، وصحت من غير أن أشعر: أهي كنوز كثيرة؟

فقـال: لقـد { أَلْهَـاكُمُ التَّكَـاثُرُ}(التكـاثر:1) حـتى نسيتم الحقائق.

قلت: لقـد خلـق اللـه الأعـداد، فنحن نشـتاق إلى

الأعداد.

قال: أربعة كنوز.

قلت: من الذهب أم من العقيق؟

قال: هي أغلى من الذهب والعقيق.

سال لعابي من جديد، وقلت: كلها من صنف واحد.

قال: لكل كنز منها جواهره الخاصة.

قلت: فما الكنز الأول؟

قال: كنز يغنيك عن الكل، إن تقلدته حسدتك اللآلئ، وذهب بريقه الذهب، وانفضت عن محاسنها الفضة.

قلت: فما اسمه؟

قال: كنز (الاستغناء)، بريقه يمتد من العرش إلى الفرش.

قلت: وما الكنز الثاني؟

قال: كنز يملأ كل جوف، ويسد كل خلة، ويغطي كل حاجة، بريقه يمتد من الأحشاء إلى الأعين.

قلت: فما اسمه؟

قال: كنز (القناعة) ألم تسمع بأن القناعة كنز لا يفنى؟

قلت: بلى .. فما الكنز الثالث؟

قال: كنز يرفع هامتك بين الناس، فتدوس بقدميك سواري كسرى وقيصر، فلا تحن رقبتك إليها، وتتساقط أنواع اللآلئ والجواهر بين يديك، فلا تمد

عينك إليها.

قلت: فما اسمه؟

قال: كنز (الاستعفاف).. ذاك الذي يغنيك عن الطواف.

قلت: عن الطواف بالبيت؟

قال: عن الطواف ببيوتهم.

قلت: فما الكنز الرابع؟

قال: كنز يحرك جوراحك، ويثير فضائلك، ويجعل من عرقك لآلئ دونها لآلئ الجيد الحسان.

قلت: ما اسمه؟

قال: كنز (الفضل) من حازه استغنى وأجر، يمتد بريقه ليشمل الآفاق، ويخترق أجره السبع الطباق.

قلت: فما سر كون هذه الكنوز أربعة، لم لم تكن خمسة أو ثلاثة؟

قال: لأن الفقير ينحصر فقره في هذه الأربع، فهو يبدأ من شعوره بفقره وحزنه عليه، فيسلمه ذلك للحرص والطمع، وهو ما يدفعه إلى السؤال والشحاذة، أو يدفعه إلى العمل والكسب.

قلت: وهذه الجواهر تسد منافذ الخلل التي حصلت للفقير؟

قال: كما يسد الطبيب منافذ العلة للمريض.. أرأيت لو كان جرحك بيدك، أيعالج الطبيب رجلك؟

قلت: بل يدي.

قال: فكذلك عالج الحكيم الأوحد علل الناس، فعالج الشعور بالفقر والحزن عليه بالاستغناء بالله،

وعـالج الطمـع والحـرص بالقناعـة، وعـالج السـؤال والشحاذة والانحناء أمام الجيوب بالاستعفاف، وعـالج القعود عن الثورة على الفقر بالحث على طلب فضل الله بما شرع الله.

قلت: ولكن البعض يذكر حلولا أيسر، وأبسط؟

قال: فما يذكرون؟

قلت: يذكرون العمل والكسب والزكاة..

قـال: والـذي لا يكسـب ولا يعمـل ويحـرم من الزكاة.. ماذا يفعل؟.. هـل يظـل أسـير أحزانـه.. هـل نقول لـه: أنت محـروم من فضـل اللـه، ومن بركـات الفقر الذي ابتليت به؟

ثم مـا الفـرق بين هـذه الحلـول والحلـول الـتي وضعها البشر للبشر، أنسـاوي طب البشـر بطب رب البشر؟

قلت: وهل في هذه الكنوز جواهر كثيرة؟

قال: في كل كنز أربعة جواهر.. كـل جـوهرة منهـا بثروة العالم جميعا، بل بثروات العالم جميعا.

ثم انصـرف عـني أو انصـرفت عنـه، وفي فمي ابتسامة تشع من أعماق قلبي، وأمل يناطح الجـوزاء، قلت لنفسي:(أنا الآن على عتبة الغـنى، فوداعـا أيهـا الفقر)

صـاح من أعمـاقي:(هـات قلمـك، وتعـال لنـدخل مدائن الغنى، ونستخرج كنوز الفقراء)

***

لسـت أدري، هـل سـرت معـه، أم حلقت في الأجـواء، أم غصـت في أعمـاق مجهولـة.. لم يطـل

الـوقت.. مجـرد طرفـة عين، فـإذا بي أمـام مدينـة عظيمة، كل ما فيها عقيق وجواهر.. تربتهـا كالمسـك الأذفر، صحت: أفي الجنة أنا؟

قـال: لا، أنت على الأرض.. وعلى جـزء ضـئيل من الأرض.

قلت: وهذا الجمال؟

قال: كنت لا تراه، فأزحنا الغشاوة عن عينيك؟

نظـرت إلى الأجـواء، فـإذا منـارات عاليـة، عليهـا رايـات كتبت عليهـا أسـماء الكنـوز، كمـا تكتب على المحلات.

قلت لمعلم السلام: عهدي بـالكنوز تخبـأ، وتـدفن، فلا يهتدى إليهـا إلا بضـروب الحيـل، ألم تقـرأ جزيـرة الكنز؟

قال: تلك كنوزهم، أما هذه فكنوزنا.

قلت: وما الفرق بين كنوزكم وكنوزهم؟

قــال: كنــوزهم كنــوز الأغنيــاء من ملكهــا ملكتــه الأشياء، وكنوزنا كنوز الفقراء من ملكها استغنى برب الأشياء.

قلت: ولكني لا أرى للفقراء وجودا؟

قال: لأنهم أبوا إلا أن ينافسوا الأغنياء في كنوزهم، وقد صحت فيهم، فلم يسمعني أحد.

تـذكرت صـياحه الـذي سـمعت بعضـه في رحلاتي السابقة، فقلت لـه: إن صـياحك لا يكـاد يسـمع أحـدا، وبالكاد أستطيع أن أسمعك لأكتب ما تقول.

قــال: لأني أخــاطب القلــوب، والقلــوب يؤذيهــا الصياح.

قلت: فلم لا تسمع الآذان؟

قال: لأن الآذان، تطـرب للكلام، ولا تسـمع الكلام، الحق أقول لـك: من لم يسـمع بقلبـه فهـو أصـم، ألم تسمع قـول الحـق تعـالى:{ َمَثَـلُ الَّذِينَ كَفَـرُوا كَمَثَـلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُـمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ}(البقرة:171) ؟

قلت: فمن هؤلاء؟

قـال: { وَالَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا صُـمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَـأِ اللَّهُ يُضْـلِلْهُ وَمَنْ يَشَـأْ يَجْعَلْـهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}(الأنعام:39)

قلت: ألا يمكن أن نخـترع أجهـزة نسـمعهم بهـا، فنحن في عصر الاختراعات؟

ضحك، وقال:{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْـتَمِعُونَ إِلَيْـكَ أَفَـأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ}(يونس:42)

أولا ـ كنز الاستغناء

في صباح جميل في مدائن الغنى، قمت بصحبة معلم السلام لنبحث عن كنوز الفقراء.

كانت المدينة جميلة، كل ما فيها هادئ وقوي ومثير.. أرى الناس، وكأني لا أراهم، أحيانا يخيل إلي أنها خالية، وأحيانا أراها مكتظة لا يكاد المار يستطيع أن يسير في شوارعها.

لم تكن هناك أي رائحة للجوع، ولا أي رائحة للتخمة، ولم أر مع طول سيري في شوارعها متسولا واحدا، ولا فقيرا واحدا.

فتعجبت، وسألت معلم السلام: ألسنا نبحث عن كنوز الفقراء؟

قال: بلى، ذاك ما خرجنا من أجله.

قلت: فأين الفقراء، فإني لا أبصر إلا الأغنياء، أهم يزاحمون الفقراء كنوزهم في هذه الدار أيضا؟

قال: بل الفقراء هم الذين يزاحمون الأغنياء كنوزهم، فلذلك لا تراهم هنا.

قلت: لو أذنت لي لأحضرت معي عمي، فهو فقير جدا قد عضه الفقر بنابه.

قال: لقد صحت فيه وفي أمثاله منذ آلاف السنين، فأبى الدخول إلى هذه المدائن، أتدري ما يقول الناس عن هذي المدائن؟

قلت: وما يقولون، شأني معهم تشويه كل نعمة، وإفساد كل صالح.

قال: يضحكون منها، ويستهزئون بها، ويسخرون من أهلها.

قلت: فهل رأوها؟

قال: وكيف يرونها، وأعينهم مغمضة؟

قلت: نطلب منها فتحها.

قال: ألم تسمع قول الحق تعالى:{ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ}(يونس: 43)

قلت: بلى، فهمت لقد قلت مثل هذا عن السمع، اصبر علي يا معلم، فإني أحيانا يبطئ فهمي.

قال: ذلك لخوفك على ما ملأك قومك به من أوهام؟

قلت: كيف، أنا لا أخاف قومي.

قال: ولكنك تخاف على معارفهم التي نشروها فيك.

قلت: لماذا أخاف عليها؟

قال: لأنك ـ مثلهم ـ تتصور العالم بصورة واحدة، فتخشى أن تكر معارف الحقيقة على صور العالم.

قلت: فما الضير في هذا؟

قال: يصبح علمك جهلا، وحقائقك دعاوى.

قلت: فما المخرج من ذلك؟

قال: السلام.

قلت: لماذ السلام؟

قال: لأنه يحيلك صفحة بيضاء، يمكن أن يكتب فيها كل شيء، أو يحيلك مرآة صافية تحمل الحقائق ولا تشوهها.

نظرت فجأة فإذا بي أمام باب قصر منيف، كل ما

فيه لطيف وشريف، لست أدري هل كان مرفوعا في الفضاء بأعمدة لا ترى، أم كان موضوعا على زجاج صاف كالهواء كأنه:{ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِير}(النمل: 44)، فصحت: يا لله، ما أحلى هذا القصر، لمن هذا القصر؟

قال: لأغنياء الروح.. هنا يخبأ كنز الاستغناء.

قلت: فهل يمكن الدخول إليه؟

قال: أجل، ولكن بشرطه، فالبواب يمنع من لم يتحقق بشرطه.

قلت: وما شرطه؟

قال: أن تكون فقيرا.

قلت: أنا متوسط الحال، لست فقيرا، ولست غنيا.

قال: ليس هناك إلا الفقراء والأغنياء.

قلت: ولكنك قلت، بأنه قصر الأغنياء، فكيف لا يدخل فيه إلا الفقراء؟

فقال: من افتقر إلى الله أغناه، ومن نزل على الله آواه، ومن مد يده لله أعطاه، ومن مد يده إلى غيره قلاه.

مددت يدي، وقلت: فها أنذا أمد يدي إلى الله.

قال: إياك ودنس التشبيه، مد يد روحك، لا روح يدك.

مسح معلم السلام على صدري، فأحسست قلبي يردد قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}(فاطر:15)، وقوله:{ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ}(محمد: 38)

شعرت وكأني الفقر عينه، لا أملك شيئا.. لا متاعا ولا

منافع.. حتى حلة الوجود شعرت بأنها تخلع مني، فإذا بي في العالم الذي لم أكن فيه شيئا مذكورا.

نظر إلي، وقال: ادخل الآن، فقد تحققت بشرطه.

***

دخلت القصر المهيب، كل ما فيه في منتهى الجمال، ولكن آثار الحالة التي استشعرتها حال دخولي جعلت بصري صاحب همة واحدة، فلم يزغ ولم يطغى.

غير أن بصري تسمر في فتى مهيب الطلعة، جميل المحيا، خلته أول الأمر يوسف ﷺ، وقد أوتي شطر الحسن، لكنني نظرت إلى ثيابه، فقلت: يوسف ﷺ أزهد من أن يلبس مثل هذه الحلل والحلي، لعله أمير من أمراء هذ القصر.

تقدمت إليه، أو تقدم إلي، هزني الفضول، فسألته: من أنت؟

قال: أنا المرشد.

قلت: ألهذا القصر مرشد؟ إذن هو يشبه فنادق قومي.

ثم تمتمت بيني وبين نفسي:(شيء جميل.. حضارة عريقة.. حتى المرشد السياحي يوجد في قصورهم)، ثم قلت له: منذ متى وأنت تشتغل مرشدا سياحيا في هذ القصر؟

قال: مرشد سياحي!؟.. ما معنى هذ الكلمة.. ما بك؟ ألا تعرفني؟

قلت: هذه أول مرة أتشرف بلقائك فيها.

قال: كيف؟ ألم نلتق أمس؟

قلت ـ وكأني أريد تقليد أسلوب المعلم في الكلام ـ:

بلى .. لقد التقينا في عالم الذر، يـوم{ أَلَسْـتُ بِـرَبِّكُم} (لأعراف: 172)

قال: لا، بل الأمس القريب.

قلت: لا.. لا أذكر ذلك.

قـال: ألم أخـبرك أني مرشـد في مـدائن الغـنى للباحثين عن كنوز الفقراء؟

تـذكرت ذلـك الفقـير الـذي حـزنت لـه، فقلت: أنت أنت!؟ ولكن وجهك وقوامك وحديثك ولباسك..

قاطعني، وقال: ألا زلت تنظـر إلى أكفـان الإنسـان، ذلك قناعي، ألا يلبس قومك أقنعة تنكرية؟

قلت: أجـل، وهم يلهـون بـذلك ويلعبـون.. ولكن أي قناع تنكري هو لك: أهذا الذي أراه امامي، أم ذلك الذي رأيته أمس؟

قال: كل ما تراه أقنعـة.. أمـا الحقيقـة، ففـوق ذلـك كله.

لم أفهم ما قال، ولكني طلبت منه أن نبدأ في جمـع جواهر هذا القصر المهيب.

قال لي: أربعة جواهر، فاحمل حقائبك، وهات قلمك، وتعال.

قلت: لم القلم؟

قال: ألست مع المعلم؟

لست معزولا:

قـال لي معلم السـلام، وهـو يشـير إلى نـور صـرف رأيته أمامي: هذه جواهر قولـه تعـالى:{ مَـا وَدَّعَـكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}(الضحى:3)

ثم قال: هذه أول جوهرة ينالها الفقـير عنـدما يـدخل قصر الاستغناء بالله.. ذلك أن أكبر حزن يعيشه الفقـير هو شعوره بالعزلة، وأنـه فـرد شـاذ في هـذا الوجـود، لا قيمة له إلا كقيمة الحجارة والتراب، بل أحيانا يشـعر أن الحجارة والتراب أهم منه، فلذلك يحسـد الـتراب الـذي يعمر بساتين الأغنياء، والحجارة التي تبني قصورهم.

قلت: صدقت في ذلك.. فمـا اسـم هـذه الجـوهرة.. أهي الكـبريت الأحمـر أم الأصـفر أم الأكهب، أم هي العقيق، أم هي الزبرجد أم..؟

قـال: هـذه جـوهرة ليس لهـا اسـم من كـل هـذه الأسماء، وهي أجمل من كـل هـذه الأسـماء، إن اسـمها (لست معزولا)

كتمت ضحكة في قلبي، وقلت في نفسـي: مـا هـذا الاسم الغريب، لعلـه مثـل الأسـماء الـتي نتفنن بهـا في الأطعمة كقولنا:(كل واسكت)

قال لي: ليست هـذه (كـل واسـكت) إنهـا:(لسـت معزولا)

قلت: لا يهمنا اسمها، وإنما تهمنـا قيمتهـا، وقـد قـال ذلـك البخيـل الـذي ذكـره الجاحـظ:(أعطـني المـال، وسمني بأي اسم شئت)

قـال: فـأنت الآن في الطريـق الصـحيح، إن قيمتهـا عظيمـة، فهي تحمـل بشـرى وعـزاء من اللـه رب كـل شـيء ومليكـه لقلـوب الفقـراء، فتمسـح عن أعينهم الهوان الذي يرميهم النـاس بـه.. إنهـا تبشـر من تناولهـا بأن الناس وإن أبعـدوه، فإنـه ليس بعيـدا عن اللـه، وإن كانوا قد رموه، فإن لطف الله يحتضنه.

قلت: ولكني لا أرى الناس يبعدون الفقـير، ولا أراهم يطردونه.

قال: قد لا يطردونه، ولكنهم يحرمونه.

قلت: من فتات موائدهم.

فقال: لا من فتات موائدهم فحسب، بل من موائد الله.

قلت: أريد شواهد على ذلك، فأنت تعلم أني لا أقبل إلا بشاهد عدل من العقل أو النقل.

قال: إن شواهد هذه الجوهرة هي أشعتها، كما أن شاهد الشمس هو ضياؤها، فخذ هذه الأشعة، فكل شعاع منها يكشف ظلمة، وينير طريقا.

الشعاع الأول:

قلت: فما الشعاع الأول؟

قال: ألم تسمع الحق تعالي، وهو يقول:{ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ}(الأنعام:52)

قلت: بلى قرأته.

قال: وفهمته؟

قلت: أجل، في هذه الآية ينهى الله تعالى عن التفكير الطبقي الذي كان يعمر أفئدة المشركين، وكأنهم أرادوا أن ينعم ﷺ ببعض الامتيازات لطبقة الاغنياء ويفضلهم على طبقة الفقراء، إذ كانوا يرون في جلوسهم مع الفقراء منقصة لهم.

ويبدو أن هذا تكرر منهم وكثر إلحاحهم على رسول الله ﷺ إلى أن جاء هذا الأمر الإلهي الذي لا يخاطب رسول الله ﷺ فقط، بل يخاطب كل الأمة.

قال لي: نعم ما قلت، ولكن نهي الله تعالى رسوله ﷺ عن متابعة المشركين، وأمرهم له بالحرص على هؤلاء الفقراء، ووصيته بهم وثنائه عليهم، ولو على حساب بعض المكتسبات الظرفية، ألا يدل على شيء؟

قلت: على ماذا غير ما ذكرت، وما ذكر المفسرون؟

قال: ما محل الشخص الذي تحرص عليه، وتغير أن يطرد أو يهان أو يرمى، ولو كان في ذلك حصول مضرة لك.

قلت: أنا لا أفعل هذا إلا مع أحب الناس إلي، فمن الصعب أن أفرط في مكاسبي إلا إذا قهرني الحب على ذلك.

قال: فالله تعالى الذي يوصي نبيه ﷺ بهؤلاء، ويأمره بالحرص عليهم، ألا ينطبق عيه ما قلنا!؟

قلت: بلى، هي إشارة جميلة.

قال: بل سلوى عظيمة تطرب لها نفوس الفقراء، وأغنية جميلة تبشرهم بأنهم، وإن رموا وطردوا فإنهم عند الله بمكان..

قلت: فهل هم رسول الله ﷺ بطردهم حتى نهي عن ذلك؟

قال: لقد قف شعري مما قلت، كيف يكون هذا؟ إن رسول الله ﷺ أعظم من أن يفعل ذلك، وكل سنته وحياته ترفض هذا.

قلت: فما تفسير توجيه الخطاب لرسول الله ﷺ؟

قال: ومن قال: إن هذ الخطاب موجه لرسول الله ﷺ.

قلت: لكونه جاء بصيغة المخاطب المفرد، وهو يعني

من نزل عليه القرآن الكريم؟

قال: وهل القرآن الكريم أنزل لأجل محمد ﷺ فقط، ألم يقولوا:(اقرأ القرآن الكريم، وكأنه أنزل عليك)

قلت: فما سر الخطاب بصيغة المفرد؟

قال: في ذلك إشارة لمخاطبة نفوس الأفراد، وكـأن الله تعالى ينهى كل فرد على حدة من أن يطرد هؤلاء.

قلت: ولكن أصل الخطاب موجه لرسول الله ﷺ.

قال: وهل كل خطاب موجـه لرسـول اللـه ﷺ يعـني أنه قد حصل منه ما يستوجب ذلك الخطاب؟

قلت: ذاك هو الأصل.

قال: فما تقـول في قولـه تعـالى:{ يَـا أَيُّهَـا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِـعِ الْكَـافِرِينَ وَالْمُنَـافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ عَلِيمـاً حَكِيماً }(الأحـزاب:1).. فهـل أطـاع النـبي ﷺ الكـافرين والمنافقين؟

الشعاع الثاني:

قلت: لقد ورد مثل هـذا مـع سـائر الرسـل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ، بـدءا من نـوح ، فقـد قـال تعـالى على لسانه:{ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّهُمْ مُلاقُـو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ }(هود: 29)، وفي ذلك دلالـة على سنة قديمة خاطئة تقيم المرء على أساس ثروته.

قال: لقد قال الله تعالى بعد تلك الآية:{ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُـرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَـرَدْتُهُمْ أَفَلا تَـذَكَّرُونَ}(هـود:30)، أتعلم وجه الإشارة فيها؟

قلت: يخبر تعالى عن مقالة نبيه نوح ، وأنه قال:(من يصونني منه تعـالى ويـدفع عـني حلـول سـخطه إن طردتهم وأبعدتهم عني)، فالاستفهام هنا للإنكـار، أي لا

ينصـــرني أحـــد من ذلـــك، وفي الكلام مـــا لا يخفى من تهويل أمر طردهم.

قال: أتدري السلوى التي يحملها هـذا الكلام لقلـوب الفقراء؟

قلت: ما هي غير ما ذكرت؟

قـال: تصـور الدرجـة الـتي يحتلهـا النـبي في سـلم الكمال.

قلت: هي درجة عظيمة لا يمكن تصورها.

قال: أيمكن تشبيهها بدرجة الوزراء!؟

قلت: وأين تقع الوزارة أمام النبوة؟

قال: فإذا أرسل الملك إلى وزيـره يهـدده بـالعزل أو بالسقوط والانهيار أو بالهزيمة بسبب عامي من الناس، ألا يكون لذلك العامي محلا عظيما في نفس الملك!؟

قلت: أجل، لأن تفريط الملـك في وزيـره الـذي هـو سـاعد من سـواعده لا يكـون إلا بسـبب وجيـه، وأمـر خطير.

قال: فكذلك هذا، ولله المثل الأعلى.. واحذر رعونـة التشـبيه وأكـداره، فقـد أرسـل اللـه ملـك الملـوك إلى الأنبيـاء الـذين يعملـون بـأمره يحـذرهم من المسـاس بهؤلاء البسطاء.

قلت: وذلك لا يكون إلا للمكانة العظيمة التي أقامهـا الله لهم.

قال: مقابل المكانـة الـتي وضـعها البشـر لهم، فقـد قال تعالى عن موضع الفقـير في دنيـا البشـر على لسـان نوح ﵇:{ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَـزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُـؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْـراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَـا فِي أَنْفُسِـهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ}

(هود: 31)

قلت: نعم، فقد أخبر الله تعالى أن موقف البشر من هؤلاء المحرومين هو الازدراء، وهو الاحتقار.

قال: أتدري لم نسب الله تعالى الازدراء إلى الأعين، مع أن الحاسة لا يتصور منها أن تعييب أحد؟

قلت: لأنها سبب الازدراء، فلرؤيتهم لهم بتلك الحالـة احتقروهم، فالإنسان مكرم لمظهره، ومنبوذ به.

قال: أجل .. وذلك يدل على أن المزدرين من هـؤلاء الأغنياء لا ينظرون إلى الحقـائق، بـل يكتفـون بـالخيوط الواهية التي تكفن بها الحقائق.

قلت: أفي ذلك دعوة لشيء ما؟

قال: نعم.. في ذلك دعوتان.

قلت: لمن؟

قال: للفقير والغني.

قلت: ما حظ الفقير من الآية؟

قال: أن لا ينشغل بما هو فيه من الفقر الذي ازدراه النـاس بسـببه، بـل يبحث عن مـواطن الغـنى الـتي لا يبصرونها.

قلت: وما حظ الغني؟

قـال: ألا يجعـل حكمـه على النـاس قاصـرا على مـا تمليه عينه، فقد تدلـه أذنـه أو جوارحـه الأخـرى أو قلبـه على كمالات في الفقير ينتفع بها في الدنيا والآخرة.

الشعاع الثالث:

قلت: فما الشعاع الثالث؟

قال: ما كفارة الظهار؟

قلت: لقد نص عليها قوله تعالى:{ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}(المجادلة:4)

قال: فما كفارة من حنث في اليمين المعقدة؟

قلت: لقد نص على ذلك قوله تعالى:{ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(المائدة:89)

قال: فما كفارة صيد المحرم؟

قلت: لقد نص على ذلك قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}(المائدة:95)

قال: فما ترى في هذه النصوص جميعا؟

قلت: أراها أنواعا من العقوبات رتبها الله تعالى على بعض المخالفات.

قال: هي تنبيهات، وليست عقوبات.. فالله تعالى ينبه عباده ويؤدبهم ولا يعاقبهم.

قلت: أجل.. يمكن أن تقول ذلك.. ولكن ما علاقة هذا بهذا الشعاع.. فنحن نبحث عن تخليص المساكين من العزلة.. ولا نبحث في العقوبات أو التنبيهات.

قال: هذه التنبيهات تحمل تنظيمات تشـريعية تخلص الفقراء من العزلة التي قد يضربها عليهم الأغنياء.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد كـان في إمكـان الشـارع أن يـرتب غرامـة مالية على كل ذنب من الذنوب تدفع لبيت المـال الـذي يتولى دفعها للفقراء.. أو كان في إمكانه أن يجعل نفس العقوبة، ولكن يجعلها في مسكين واحد.

قلت: يمكن أن يكون ذلك.. بل قد قيل به.

قال: فما قيل؟

قلت: يقولون بجواز إعطاء نصيب السـتين لشـخص واحد؟

قال: من قال ذلك فقد أخطأ، ولا ينبغي الخـروج عن ظاهر النص.

قلت: أراك ـ يا معلمي ــ حريصـا على هـذه الجزئيـة البسيطة.. فما سر ذلك؟.. وما علاقته بما نحن فيه؟

قال: لقـد جعـل اللـه كفـارة الظهـار وغـيره إطعـام ستين مسكينا ليكون البحث عن المساكين المسـتحقين جزءا من الكفارة.

قلت: وما فائـدة ذلـك العنـاء الـذي يجعـل الشـخص يبحث عن هؤلاء المساكين؟

قال: في بحثه عنهم تعرف منه عليهم.. وفي تعرفــه عليهم وتكافلـه معهم تخليص لهم من العزلـة الـتي قـد تفرض عليهم.

قلت: وعيت هذا.. وهو حل تشريعي مثالي يقوي مـا ورد من التوجيهات.

***

مـا قلت هـذا حـتى شـعرت بجـوهرة كريمـة تـنزل أعماق صدري، تنجلي من نورها بعض الظلمات.

قلت في نفســي حين نزولهــا: نعم.. إن الفقــير في الحقيقة لا يؤلمه فقره، بقدر مـا يؤلمـه نظـرات النـاس وموقفه من نفسه.. لا يؤلمه جوعه وبـرده فقـد يصـيب الغني من الجوع ما يصيب الفقـير، وقـد يصـيب الفقـير من الشبع ما يصيب الغني.

فلذلك إن رُفع هـذا الـوهم، وقيـل للفقـير: فقـرك ليس علامة إبعاد.. كما أن غنى جارك ليس علامة ود، فكلاهما ابتلاء رباني لتمحيص القلوب، كما قال تعالى: { فَأَمَّا الْأِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُــولُ رَبِّي أَهَــانَنِ }(الفجــر:16) أي ليس كــل من وســعت عليه وأعطيتـه أكـون قـد أكرمتـه ولا كـل من ضـيقت عليه وقترت أكون قد أهنته، فالإكرام أن يكرم اللــه العبد بطاعته والإيمان به ومحبته ومعرفته والإهانة أن يسلبه ذلك.

فإن هذه المعرفة تسد منافـذ الهـوان الـتي يشـعر بهـا، فـالهوان أخطـر من الجـوع، والكرامـة أعـز من الشبع، وقد قالت العرب في أمثالها:(تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها)، وقال أوس بن حارثة لابنه مالك فيمــا يوصيه به:(يـا مالـك، المنيـة ولا الدنيـة، وشـر الفقـر الخضوع، وخير الغنى القنوع)

قد تكون مختارا:

صعد بي المرشد طابقا آخر في قصر الاستغناء، فإذا بي أشاهد لافتة مكتوبا عليها: هنا محـل جـوهرة عزيـزة اسمها (قد تكون مختارا)

سـألت المرشـد عنهـا، فقـال: أنـا المرشـد، ولسـت المعلم، اسأل معلم السلام.

أجابني من غير أن أسأله: لا يكفي أن تشعر بأنك لست مطرودا لتمتلئ بالسلام والسعادة؟

قلت: فما الذي ينقص الفقير حتى يشعر بسكينة أعظم، وسلام أتم؟

قال: أن يشعر بأن في إمكانه أن يكون مختارا ومفضلا وعظيما.. أن يشعر أن بإمكانه أن يصير غنيا غنى أبديا، لا ظرفيا؟

قلت: اضرب لي مثالا على ذلك، فأنت تعرف عجزي عن التجريد.

قال: يزعم قومك أنهم حرروا العبيد؟

قلت: نعم.

قال: ويزعمون أنهم تساووا معهم في الإنسانية.

قلت: ذلك مما لا شك فيه.

قال: أيسمحون لهم بخوض الانتخابات الرئاسية؟

قلت: نعم.

قال: ولكن لا يسمحون لهم بتوليها.

قلت: نعم، يؤكد ذلك الكثير.. فما مضرب هذا المثل؟

قال: إن هؤلاء زعموا أنهم لا يطردونهم، ولكنهم في نفس الوقت لم يقربوهم، وفرق كبير بين أن لا أطردك، وبين أن أضع في إمكانياتك أن تقرب.

قلت: فهل في النصوص إشارة إلى هذا.

قال: إن هذ الجوهرة النفيسة تكتسب أشعتها من العقل والنقل، وسأذكر لك هنا أربعة أشعة كل شعاع منها يطفئ ظلمة ويحيي نورا.

الشعاع الأول:

قلت: فما الأول منها؟

قال: قوله تعالى:{ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ}(هود:27)

قلت: فما محل الإشارة منها.

قال: لا تحل الإشارة إلا بعد العبارة، ولا يعرف الباطن إلا بعد إدراك الظاهر، فما الذي تفهمه منها؟

قلت: الله تعالى في هذه الآية يخبر عن الشبهات التي وقفت حجابا بين الملأ المتمالئين على الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ــ الذين ملأوا القلوب هيبة والمجالس أبهة ـ وبين الوصول إلى الحق.. وأول تلك الشبهات كون نوح ﵇ بشرا مثلهم.. والثانية كونه ما أتبعه إلا أراذل القوم .. والثالة كونهم لا يرون لهم فضلا، لا في العقل ولا في رعاية المصالح العاجلة ولا في قوة الجدل (1).

قال: وبم رد نوح ﵇ على هذه الشبه؟

قلت: بما قصه علينا القرآن الكريم من أنه أخبرهم أنه رسول من اللّه يدعو إلى عبادة اللّه وحده، ولا يسألهم على ذلك أجراً، ثم هو يدعو الشريف والوضيع، فمن استجاب له فقد نجا.. وأخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن اللّه، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه اللّه عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل هو بشرٌ مرسل مؤيد بالمعجزات.. وأخبرهم بأن ما في نفوس من تصوروهم أراذل من قومه فاحتقروهم وازدروهم لا يعلم حالهم عند الله فإن كانوا مؤمنين،

1) انظر: تفسير الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (17/ 337)

فلهم جزاء الحسنى.

قال: وما موضع الإشارة من حكاية قول نوح ﵇ بتفاصيله مع قومه؟

قلت: علي العبارة، وعليك الإشارة، فبين لي كيف تكون هذه الآيات سلوى وعزاء للفقراء والمستضعفين؟

قال: إن أول من يستنشق الروائح العطرة لهذه الآيات هم الفقراء والمستضعفون والأراذل.

قلت: كيف؟ والرسل إنما جاءوا للتوحيد، لا لتسلية الفقراء والمحرومين.

قال: أجل، وهذا ما يعطي الإشارة حقها، فانشغال النبي بالدفاع عن المستضعفين، وبيان قيمتهم وحرمتهم ومكانتهم عند الله، ألا يدل ذلك على الموضع الذي يحتله هؤلاء!؟

قلت: وضح ما تريد.

قال: ألا تستشهدون باقتران العمل الصالح مع الإيمان في أكثر آي القرآن الكريم على فضل العمل الصالح لاقترانه بالإيمان الذي هو أشرف الأعمال؟

قلت: بلى.

قال: ألا تستشهدون بعظم حق الوالدين لاقترانهما بتوحيد الله وعبوديته؟

قلت: بلى، كثيرا ما نفعل ذلك.

قال: فكذلك هنا.. أسألك سؤالا آخر؟

قلت: سل.

قال: كم لبث نوح ﵇ في قومه؟

قلت: هو ما نص عليه القرآن الكريم، قال تعالى:

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً }(العنكبوت: 14)

قال: فكم المدة التي كان يتكلم فيها مع قومه؟

قلت: وهذا أيضا وارد في القرآن الكريم، فقد قال تعالى حاكيا عنه:{ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً } (نوح:5)، وكأنه ﵇ لاجتهاده في الدعوة إلى الله لا يسكت ليلا أو نهارا.

قال: فكم ترى يكون قد تكلم من الكلمات؟

قلت: لو كتب كلامه كتبا لملأ بها سهول الأرض وجبالها.

قال: فاختيار الله تعالى لهذه الكلمات المدافعة عن المنبوذين ليذكرها في القرآن الكريم، ألا يدلك على المكانة التي لهم؟.. لا عند نوح ﵇ فحسب، بل عند الله، لأن القرآن الكريم لم ينزل ليؤرخ لقوم نوح ﵇ وإنما أنزل ليذكر الحقائق العظمى التي ينبني عليها الوجود.

قلت: ولكن ما سبب إقبال الفقراء على الحق وإعراض الملأ أغنياءهم وكبراءهم عنه؟ ولماذا يكون هؤلاء الأراذل المستضعفون أسرع الناس إلى الحق، فقد قال تعالى في الآيات السابقة:{ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ }(هود: 27)؟

قال: أرأيت جواز دخولك إلى هذه القصور؟

قلت: نعم، إنه جواز الافتقار.. ولكن ما علاقته بهذا لأمر؟

قال: لأن الفضل صدقة الله ، والصدقات لا تكون إلا للفقراء والمساكين، ألم تسمع قوله تعالى:{ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ }(التوبة: 60)

قلت: ولكن ما وجه الإشارة في هـذه الآيـة، فـإني لا أفهم منها إلا أنها تعدد أصناف المستحقين للزكاة؟

قال: هي كذلك، ولكن الذي قالها يتصدق أيضا.

قلت: ذلك صحيح.. وقد ورد في النصـوص مـا يثبت ذلك، ففي الحديث: (من نام عن حزبه وقـد كـان يريـد أن يقوم به، فإن نومه صدقة تصدق الله بها عليـه، ولـه أجر حزبه)(1).. ولكن ما علاقة هذا بما نحن فيه؟

قال: علاقته عظيمة، فالأغنياء الذين سماهم القــرآن الكريم ملأ امتلأوا بغناهم وما لديهم من أشياء، فلذلك لا يستطيعون تقبل صدقات اللـه الـتي تمتلئ بهـا خزائنـه، والتي تفيض على كل الوجود، بينمـا الفقـراء، يشـعرون بفـــاقتهم الذاتيـــة، وفـــراغهم العظيم، فلـــذلك كـــانوا مستعدين لصدقات الله، ولذلك بمجرد أن يشع نـور من أنوار الله يكونون أسرع الناس إليه.

ثم التفت إلي، وقـــال: أتعلم ســـر اشـــتراط جـــواز الافتقار للدخول إلى قصور مدائن الغنى؟

قلت: لا..

قال: لأنك لو دخلت ممتلئا، فلن تـرى مـا تـرى فيهـا من الجمال والكمال والسعادة والسلام.

عجبت، وقلت: أتعني أنه لو دخل الآن معنـا ثـري لن يرى شيئا مما أرى؟

قال: قد يرى ما ترى أو أكثر مما ترى.

قلت: كيف؟ لم أفهم.

قال: ليست العبرة بكونه ثريـا، بـل العـبرة بشـعوره بثرائه، فقد ترى الفقير مستعليا، وترى الغـني متطامنـا، ولهذا قد يتحقق الغني بالافتقار الذي يؤهله لدخول هذه

1) رواه أبو نعيم في الحلية.

القصور، وقد يحرم الفقير الذي ملأ عيني قلبه بما عجـز عن تحقيقه لجيوبه.

قلت: فعينه بصيرة، ويده قصيرة.

قال: ويدل لذلك قوله ﷺ:(ثلاثة لا يكلمهم الله يـوم القيامة ولا يزكيهم ولاينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر)(1)

قلت: فالافتقـار إذن هـو السـبب في مبـادرة هـؤلاء المستضـعفين إلى الحـق.. فالافتقـار إذن نعمـة أهلتهم لاختيار الله لهم.

الشعاع الثاني:

نبهني معلم السلام من شرودي، وأخذ يرتـل بصـوته الجميل الخاشع قوله تعالى:{ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَـهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُـوا أَهَـؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَـا أَلَيْسَ اللَّهُ بِـأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ}(الأنعام:53)

قلت: هذا هو الشعاع الثاني.. فما وجه الإشارة فيه؟

قال: لا تحل الإشارة قبـل العبـارة، ولا يحـل التأويـل قبل التفسير.

قلت: أما التفسير، فعلي، فالله تعالى في هذه الآيــة يخبر عن القصد من بلائه واختبـاره لعبـاده، فهـو يبتليهم بالفقر والغنى، ومن النتائج الـتي تنتج عن ذلـك البلاء أن يقـول المسـتكبرون المتعـالون:{ أَهَـؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَـــا }، فـــرد اللـــه تعـــالى عليهم بكونـــه أعلم بالشاكرين.

قال: أما وجه الإشارة، والعـزاء للمستضـعفين، فهـو ما يحمله قوله تعـالى:{ أَلَيْسَ اللَّهُ بِـأَعْلَمَ بِالشَّـاكِرِينَ }، فـإن اللـه تعـالى يعلـل مننـه على عبـاده الـذين قـربهم

---

1)) رواه النسائي.

بكونهم من الشاكرين.

قلت: لم يكون فضل الله وجميل اختياره مرتبطا بالشاكرين؟

قال: أرأيت لو أنعمت على بعض إخوانك بنعم، وقدمت لهم خدمات أرهقتك، فنظر بعضهم إليك شزرا، وانصرف.. وقال بعضهم: (ما هذه الخدمات الحقيرة، والعطايا الصغيرة).. وجاء بعضهم فقبل يديك، ومسح على رجليك، وقال:(نحن في خدمتك، فجزيت عنا كل خير).. أي هؤلاء تفضله بعد ذلك بالعطاء إذا سنحت لك السوانح، ودر عليك اللطف؟

قلت: الشاكرين.. لا شك في ذلك، فكيف يمتد عطائي للجاحدين، بل إني لو استطعت أن أسلبهم ما أعطيتهم، وأخرج طعامي من بطونهم أو أحوله سما لفعلت.

قال: وكذلك الحق تعالى مع كرمه العظيم، فإنه قد يسلب هؤلاء نعمهم، كما قال تعالى عن قرى سبأ لما أعرضوا عن شكر الله:{ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ}(سبأ:16)

قلت: فما علاقة ذلك بالمستضعفين، أليس الشكر مطلوبا من الأغنياء، والصبر مطلوبا من الفقراء؟

قال: بل الشكر والصبر مطلوب منهما جميعا.

قلت: لم أفهم.

قال: لأن الشكر والصبر عبادتان لا تختلفان عن الصوم والصلاة، فهل قال أحد: إن الصلاة خاصة بالأغنياء، والصوم خاص بالفقراء.

قلت: لا لم يقل أحد بذلك.. ولكن على ماذا يصبر

الأغنياء والنعم لديهم متوافرة؟

قال: على عدم استفزاز النعم لهم استفزازا يجعلهم يعبدون أنفسهم ولا يعبدون الله.

قلت: وماذا يشكر الفقراء؟

قال: أقل شيء يشكرونه أن الله لم يجعــل لهم من الغنى ما يحول بينهم وبين تبصر الحق.

قلت: وهل يحول الغنى بين الإنسان وتبصر الحق؟

قال: أجـل، ولـذلك عقب اللـه تعـالى الآيـة السـابقة بقولـه :{ أَلَيْسَ اللَّهُ بِـأَعْلَمَ بِالشَّـاكِرِينَ }، فـالغني قــد ينشغل بالنعم وما تتطلبه عن شكرها.

قلت: ألا تــأتيني بشــواهد على هــذا، فإنهــا مســألة خطيرة لا تقبل إلا بشاهد؟

قال: ألم تسمع إلى ربك، وهـو يخـبرك عن مواجهـة المترفين لأنبيائهم؟

قلت: بلى، فالله تعـالى ذكـر ذلـك في مواضـع عـدة من القرآن الكريم، كقوله مبينا سنة ذلـك:{ وَمَـا أَرْسَـلْنَا فِي قَرْيَـةٍ مِنْ نَـذِيرٍ إِلَّا قَـالَ مُتْرَفُوهَـا إِنَّا بِمَـا أُرْسِـلْتُمْ بِـهِ كَافِرُونَ}(سـبأ:34)

قـال: ألم تسـمع إلى ربـك، وهـو يربـط بين مصـير القرى والمترفين، بل يبين أن المترفين هم سـبب هلاك الأمم والحضارات؟

قلت: بلى، فاللـه تعـالى يقـول مبينـا هـذا القـانون: { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَـةً أَمَرْنَـا مُتْرَفِيهَـا فَفَسَـقُوا فِيهَـا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً}(الاسراء:16)

قال: ألا تعلم السـبب الـذي جعـل الـترف حـائلا بين المترفين والحق؟

قلت: ما هو؟

قال: الترف.. فالمترف مستغرق في ترفه مستعبد له، وقد قال تعالى:{ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ} (هود:116)، فالمترفين استهواهم ترفهم، فاستعبدهم من دون الله.

قلت: لقد ذكرتني بقوله ﷺ:(تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي، وإن لم يعط تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش) [1]

قال: أكمل الحديث لتدرك نواحي الفضل التي يحتويها الفقر والضعف.

قلت مكملا الحديث السابق:(طوبي لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن في الساقة كان في الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع)

قال: أتدري ما سر هذا الاقتران؟

قلت: ما هو؟

قال: أما الأول، فإنه لانشغاله بترفه، وما يتطلبه ترفه عمي عن الكون جميعا، وعمي عن رسالته في هذا الوجود، وأما الثاني الذي لا يملك شيئا، فقد كان فقره سببا في رؤيته الأشياء على حقيقتها.

قلت: فهمت، ولكن أريد مثالا موضحا.

قال: ارأيت إن وضع مترف من المترفين في قصر عظيم، له في كل لحظة زينة جديدة، وطعام جديد، فهو

---

1)) البخاري.

دائما في ظل الجديد، أكان يمكنه أن يجد الوقت لرؤية السماء، أو شعاب الوادي، أو فيافي الصحراء، أو تأمل النجوم في الليل.

قلت: لا يمكنه ذلك، فلن يخرج من قصره العامر ليصيبه غبار الفيافي.

قال: فكذلك هؤلاء المترفين الذين عصبوا عيونهم بخيوط الحرير، وكبلوا أقدامهم بقيود الذهب، ووضعوا على رقابهم أغلال اللآلئ.

قلت: والمستضعفين؟

قال: لقد أخبر ﷺ أنه أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، فهو لا يبالي بشيء، ولا يخاف شيئا.

قلت: ولهذا السبب إذن كانت رؤية الفقير للحقائق أيسر.

قال: أجل.. ولهذا يقول تعالى لهؤلاء المترفين في الآخرة مستهزئا:{ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ}(الانبياء:13)، ويقول معللا سر ما حصل لهم:{ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ} (الواقعة:45)

قلت: فالفقر إذن بما يرفعه من الحواجز نعمة تيسر الوصول للحق، وتوفر سبل السلوك إليه.

الشعاع الثالث:

غرقت متفكرا في الأثر الذي سيحدثه في نفسي الشعاع الثالث لهذه الجوهرة النفيسة، فإذ بصوت المعلم، وهو يرتل بخشوع:{ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ

صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}(لأعـراف:75 ـ 76)

قلت: هاتان الآيتان الكريمتـان تتحـدثان عن مواقـف قوم صالح ﵇ من رسالته، أمـا المستضـعفون، فـآمنوا به، وأما الملأ من المتكبرين فظلوا على كفرهم.

قال: أتدري ما سر إيمان المؤمنين؟

قلت: لقد عرفنا بأن سر ذلك هو الافتقار.

قال: ذلك ما أرشد إليـه الشـعاع السـابق، أمـا هـذا، فيدلنا على سر آخر.

قلت: ما هو؟

قال: إن مقابلة المستضعفين بالملأ المتكـبرين يـدل على أن المستضعفين قـد تحققـوا بالانكسـار والتواضـع الذي أهلهم ليظفروا بالاختيار الإلهي.

قلت: أللانكسار لله والتواضع كل هذه القيمة؟

قال: أجل كما أن المتكبر أعظم اليائسين من رحمة الله، فإن المتواضعين من أعظم الراجين لها.

قلت: ومن نطق بهذا الحكم الخطير؟

قـال: ألم تسـمع إلى قـول الحـق تعـالى:{ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّـمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَـلُ فِي سَـمِّ الْخِيَـاطِ وَكَـذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ}(لأعراف:40)

قلت: لقـد شـبه الحـق اسـتحالة دخـول المتكـبرين الجنة باسـتحالة دخـول الجمـل سـم الخيـاط، (فجسـم الجمـل أعظم الأجسـام، وثقب الإبـرة أضـيق المنافـذ، فكان ولوج الجمل في تلك الثقبة الضيقة محالا)

قال: فلما وقف الحق تعالى دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط، وكان هذا شرطا محالا، وثبت في العقول أن الموقوف على المحال محال، وجب أن يكون دخولهم الجنة مأيوسا منه قطعا(1).

قلت: هذا هو حكم المتكبرين وشاهدهم، فمن قال: إن الانكسار مقرب إلى الله، وما أرى الانكسار إلا نوعا من الذلة والهوان والضعف.

قال: ذلك عندما يكون مع السوى، أما معه، فإنه القوة والكمال والعزة، ألم تسمع قوله تعالى وهو يذكر هؤلاء الذين انكسرت قلوبهم عندما لم يجدوا ما ينفقون.

قلت: تقصد قوله تعالى:{ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ}(التوبة:92)

قال: نعم، فهل هناك أعز من هذا الموقف، لقد ذهبت أقوام كثيرة مع رسول الله ﷺ وتحملوا الحر والعناء، ولكنهم لم يفوزوا بمثل هذا الثناء.

قلت: ألهذا إذن يذكر الأولياء كثيرا قيمة الانكسار وأثره، ويحضون مريديهم عليه!؟

قال: أجل، فافتح أذني قلبك لتسمع ما يقولون.

التفت، فإذا بي أرى جمعا من الأنوار، عليهم سيما الأولياء.

قال الأول: انكسار العاصي خير من صولة المطيع.

وقال الثاني: معصية أورثت ذلاً وافتقاراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

قلت: عرفتك أنت ابن عطاء الله.. أنا أحفظ حكمك حرفا حرفا.. ولكن أليس في قولك هذا دعوة

1)) الفخر الرازي.

للمعصية!؟

ابتسم، وقال: الطاعة المضمخة بسم الكبرياء قاتلة، والمعصـية المشـبعة بتريـاق الشـفاء دواء.. واسـأل المعلم، فمنه تعلمنا.

قال المعلم: لو قدم لك أحدهم عسلا مصـفى، أكـان محسنا لك؟

قلت: وأي إحسان أعظم من هذا؟.. إن العسـل في بلادنا لا يكاد يظفر به إلا ببذل الأموال الطائلة.

قال: ولكنه لو خلط معه سما.

قلت: يكون حينها قاتلا سـواء مت من عسـله، أو لم أمت.

قال: هل يعتبر بذلك مجرما أم محسنا؟

قلت: وأي إجرام أعظم من جرمه، بل إن في غشـه لي بتقديم العسل كمن يريد أن أثني عليـه وهـو يسـفك دمي، أو كمن يرشوني ليقبض روحي.

قـال: والـذي يقـدم لـك طعامـا مـرا، ولكن تريـاق الشفاء فيه، أيكون محسنا أم مسيئا؟

قلت: بل يكـون محسـنا غايـة الإحسـان.. ألم تسـمع قوله ﷺ:(ماذا في الأمرين من الشفاء: الثفاء والصبر)(1)، فقد وصفهما ﷺ بالمرارة، وهو يشير إلى ما تختزنـه مرارتهما من العلاج(2).

قال: فإن العاصي الذي ينكسر لله خـير من المطيـع الذي يتألى على الله.

قلت: ولكن.. أليس في هذا حضا على المعصية؟

---

1)) أبو داود في مراسليه والبيهقي.

2)) انظر: ابتسامة الأنين، الجزء الثالث.

قال: إنما يكون حضا لو كانت المعصية مجردة، أما اجتماعها مع الانكسار فيدخل في قوله تعالى:{ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}(هود:114)، ويدخل في قوله ﷺ:(يا معاذ أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن)[1]

قلت: ما سر هذه القيمة التي أولتها النصوص المقدسة للانكسار؟

قال: الانكسار هو باب من أبواب العبودية لا يختلف عن الافتقار.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: في الافتقار لا تملك شيئا، فأنت عين الحاجة.

قلت: وفي الانكسار.

قال: أنت عين المذلة.. فالإنسان قد لا يملك شيئا، ولكن تكون له عزة الملوك وكبرياء الملأ، وقد قال ﷺ:(ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولاينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر)[2]

قلت: فطريق إخضاع العزة الآثمة هو الانكسار، كما أن طريق إخضاع الاستغناء الكاذب هو الافتقار.

قال: وفي كل ذلك مقابلة لصفات الربوبية بصفات العبودية.

قلت: لم أفهم.

---

1)) أحمد ، ورواه الترمذي برقم (1988) وأوله: اتق الله حيث ما كنت. عن أبي ذر وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد والدارمي والحاكم في الإيمان وقال على شرطهما. راجع تحفة الأحوذي (6/122)

2)) النسائي.

قال: الأستاذ من يعلم؟

قلت: الجاهل.

قال: والطبيب من يداوي؟

قلت: المريض.

قال: فمن جاء لطبيب ليذكر صحته وعافيته وجماله وقوته، هل يضع الطبيب عليه ترياقه ليداويه!؟

قلت: كلا.. بل يطرده من عيادته.

قال: لماذا؟

قلت: لصلافته وعزته الآثمة.

قال: فكذلك طرد المتكبرون.

قلت: ولذلك عولج، ورحم المنكسرون.

غبت عما حولي متأملا النتيجة التي وصلنا إليها من حوارنا، وهي نتيجة تسحق كل السعادة، فقد وقى الله الفقراء ما يحدثه الغنى والترف في أصحابه من كبراء، تذكرت حينها قوله ﷺ، وهو يتضرع إلى الله لا ليعطيه الغنى، وإنما ليرزقه المسكنة، قال ﷺ:(اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة)[1]

وتذكرت حينها قوله ﷺ وهو يخبر عن بني إسرائيل:(وكانت امرأة ترضع ابنا لها في بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت: اللهم اجعل ابني مثله! فترك ثديها وأقبل على الراكب وقال: اللهم! لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه، ثم مر بأمة فقالت أمه: اللهم! لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها وقال: اللهم اجعلني مثلها! فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبار من

---

1)) رواه الترمذي كتاب الزهد.

الجبابرة، وهذه الأمة يقولون: سرقت زنت، ولم تفعل)(1)

الشعاع الرابع:

فجأة صحوت من غيبتي، لأسمع المعلم، وهو يرتل بصوته الخاشع قوله تعالى:{ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا } (لأعراف: 137)

قلت: أهذا هو الشعاع الرابع؟

قال: أجل.. فما تفهم منه؟

قلت: في هذه الآية يخبر الله تعالى عن فضله على المستضعفين بتمكينهم من الأرض.

قال: وهي أعظم سلوى للفقراء.. فهي تنقلهم إلى الواقع لتخبرهم بأن حقائق إمكانية اختيارهم ليست فلسفة مثالية أو أحلاما جميلة، بل هي حقيقة يمكن تحقيقها في كل حين.

قلت: بم؟

قال: بالتحقق بحقائق الافتقار.

قلت: ولكن الافتقار قد يملؤهم بالهزيمة.. ويملأ نفوسهم بالعقد.

قال: افتقار العارفين، لا افتقار المحجوبين.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: افتقار العارفين قوة، وافتقار المحجوبين ضعف.

قلت: لم؟

---

1)) البخاري ومسلم.

قال: افتقار العارفين لله.. فلذلك يعطون من القوة ما لا يمكن مواجهته.. وافتقار المحجوبين للأكوان.. فلذلك لن يجدوا من الأكوان غير الخذلان.. ألا تعلم ما قال الشيطان للكفار الذين افتقروا إليه واستندوا لقوته؟

قلت: بلى.. فقد قال تعالى:{ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}(لأنفال:48)

قال: فقد خذلهم أحوج ما كانوا إليه.

قلت: أجل.. فقد استندوا إلى ركن غير ركين.

قال: كل من استند لغير الله، فقد استند لركن غير ركين.. ألم تسمع قوله تعالى:{ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}(آل عمران:160)؟

قلت: بلى.. وقد رأيت من نصر الله لأوليائه ما يدل على هذا.

قال: فالفقراء المتوجهون لله منصورون بنصر الله، مؤيدون بمدد الله.. فلذلك هم مختارون سواء عزلهم الخلق أو قربوهم.

قلت: فلا فقر إذن.

قال: لا فقر إلا الفقر الوهمي الذي يعيشه المحجوبون.

***

شعرت عند سماعي هذا بجوهرة كريمة تنزل أعماق صدري، تنجلي من نورها بعض الظلمات.

قلت في نفسي بعدها: نعم إن الفقير في الحقيقة لا يؤلمه فقره، بقدر ما يؤلمه فـوات الفـرص والمكاسـب التي يرى الأغنياء ينزلونها ويتهـافتون عليهـا، بينمـا يبقى هو في المستنقعات يحلم بالجمـال الـذي لا يصـل إليـه، ولا يحلم بالوصول إليه، فلذلك إن رُفع هذا الوهم، وقيل للفقير: فقرك لا يحول بينك وبين أي شيء، فيمكنك أن تتربع على أي عـرش، وتتنـاول أي حـق، بـل يمكنـك أن تجعل الأغنياء الذين ترمقهم بعينين حسودتين يغبطونــك على ما حل بـك من النعم.. بـل يمكنـك أن تقـف بينهم شـامخا جبـارا يتطـاولون للوصـول إلى مـا وصـل إليـه عنقك، ويتوثبون للتحقق بما أدتك إليه همتك.

ثم قلت في نفسـي: ليت الفقـراء يسـمعون لمعلم السلام وهو يخرجهم من الأوهام، فينتقلون من الشـعور بالنقص إلى الشعور بالقدرة على الكمال، ومن الشعور بالعجز إلى الشعور بالقوة التي لا تقف دونها الحواجز.

قـال لي معلم السـلام، وكأنـه يسـمع مـا يـدور في نفسي: أسمعهم قوله تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَـالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِـعَةً فَتُهَـاجِرُوا فِيهَـا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً}(النساء:97)

قلت: فما وجه الإشارة في هذا؟

قال: هذه أكبر صفعة ينالها المستضعف العاجز؟

قلت: كيف؟

قال: إن أوهامه تجعله يتصور أنه وإن صار ذنبا، فإنـه لن يحـرق مـع الكـبراء، لأنــه كـان مستضـعفا، وكـانوا متكبرين، فالآية تقول له:(لن تعذر باستضعافك لأن الله تعالى أعطاك القوة التي تخرج بها من ضعفك)

قلت: فبماذا ينتفع منها؟

قال: برفع الهمة، والثورة على الاستضعاف، فالحقيقة المرة قد تكون كالدواء المر، فإنه وإن لم يكن لذيذا، لكنه مفيد.. لكنه دواء.

قلت: ولكن ما الذي يحول بين الفقراء والمستضعفين وتملك هذه الجوهرة الثمينة؟

قال: إنه الاتباع الأعمى الناتج عن فراغ عظيم.

قلت: تقصد عقدة النقص التي تجعلهم يرون أنفسهم أصفارا، فينمحون أمام الكبار.

قال: سم ذلك ما شئت، ولكن من عظم غير الله، وسكن لغير الله ابتلاه الله بالاستعباد لكل شيء.

قلت: أتذكر لهذا السبب شاهدا، فأنت تعرف مدى غرامي بالشواهد؟

قال: القرآن الكريم كله شواهد على ذلك، ولكن اسمع لما يقول الله تعالى:{ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ}(سبأ:32)

قلت: قرأت أمثال هذه الآية كثيرا.

قال: لا يكفي أن تقرأها.. لابد أن تسمعها.

قلت: فماذا تقول هذه الآيات، ومن تخاطب؟

قال: إنها تخاطب جذور أعماق الفقراء والمستضعفين، لتقول لهم:(إن الله لم يخلقكم أذنابا، بل خلقكم رؤوسا، فإن أبيتم إلا أن تكونوا أذنابا، فتحملوا ما يجركم إليه ذلك)

قلت: وما يجر إليه ذلك؟

قال: إن ربط شخص نفسه في ذيل خنزير نجس، أيمكن أن يبقى طاهرا؟

قلت: وكيف يبقى طاهرا، إن النجاسة لاحقة به لا محالة.

قال: فكذلك من رمى نفسه في أتون المجرمين، فإنه لا ينبغي أن يلوم أحدا إن احترق.

قلت: ألهذا يجمع الله تعالى في دار العدل الكبراء مع المستضعفين؟

قال: لأن المستضعفين أبوا إلا أن يبيعوا أنفسهم للكبراء.

قلت: إن هذه المعاني خطيرة، وهي تحض على الثورة.. ثورة الفقراء والمستضعفين.

قال: والثورة هي بداية السلام، فلا يمكن أن تتحقق بالسلام، وأنت تقنع بالعجز.

قلت: ولكن الثورة تحتاج سلاحا.

قال: فقد أعطى الله الفقراء القدرة على حمل السلاح.

قلت: ليواجهو به الكبراء والمستعلين؟

قال: ليواجهوا به قبل ذلك الظلام الذي يعمر أعماقهم، والخراب الذي يملأ نفوسهم، فمن الخطأ أن تلوم جارك على شيء تفعله في بيتك، ومن البهتان أن تنقلب على رؤسائك، ولا تنقلب على أهوائك.

ماذا وجد من فقدك:

صعد بي المرشد طابقا أعلى في قصر الاستغناء، فإذا بي أشاهد لافتة مكتوبا عليها:(هنا محل جوهرة عزيزة اسمها (ماذا وجد من فقدك)

سألت المرشد عنها، فقال: أنا المرشد، ولست المعلم، اسأل معلم السلام.

أجابني من غـير أن أسـأله: لا يكفي أن تشـعر بأنـك لست مطرودا، ولا يكفي أن تشعر بـأن في إمكانـك أن تكون مختارا، لتمتلئ بالسلام والسعادة؟

قلت: فما الـذي ينقص الفقـير حـتى يشـعر بسـكينة أعظم وسلام أتم؟

قال: أن يشعر بأن كل مـا في يـد غـيره من الأغنيـاء والمستعلين هباء أو كالهباء، أو سراب أو كالسراب؟

قلت: وما فائدة هذا الشعور، وما علاقته بالاسـتغناء، وما علاقته قبل ذلك كله وبعده بالسلام؟

قال: لأن شعور الفقير بثروة الغني، يجعله عبدا لهـا، أو عبدا له.

قلت: كيف يكون ذلك، ولا بد من ذلك.

قال: فرق بين أن تراها، وبين أن تعتبرها.

قلت: لا أرى فرقا بينهما.

قال: إذا كنت في صحراء واسعة، ودب ثعبان الظمـأ ليستل روحك، ورأيت سرابا بعيدا، هل تراه أو تعتبره؟

قلت: أراه، ولكني لا أعتبره.

قلت: وماذا لو اعتبرته؟

قلت: سأظل تائها في الصـحراء، أبحث عنـه، ثم لن أصل إليه أبدا.

قال: لم؟

قلت: لأنـه غـير موجـود، والبحث عن غـير الموجـود عناء.

قال: فكذلك ثروات الأغنياء التي تراها.

قلت: ما الجامع بينهما؟

قال: إن نظرت إلى ما في أيـديهم كمـا نظـرت إلى السـراب، ضـحكت عليهم، وسـخرت منهم، ولم يستعبدوك.

قلت: قرب لي المثـال، فـإني - كمـا تعلم - منغمس في أوحال الكثافة يشتد علي التجريد.

قال: أرأيت إن كان لك جار.. هو فقـير.. ربمـا يكـون أفقر منك.. ثم جاء بجوهرة مغشوشة، فعلقها في جيـد امرأته، أو جاءك بكنز يلمع كالـذهب، ولكنـه ليس ذهبـا، ثم ذهب يتعالى عليك، ماذا كنت تفعل؟

قلت: أرحمه، أو أضحك عليه.

قال: أكنت تتمنى أن يكون لك مثله؟

قلت: لا، لأنه لا يملك إلا السراب والهبـاء، ثم يغالـط نفسه به.

قال: كيف يغالط نفسه به؟

قال: لأنه إذا جـاء وقت الحاجـة لن يغـني عنـه ذهبـه شيئا.

قال: إذن هو كذلك السراب الذي { يَحْسَبُهُ الظَّمْـآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً }(النور: 39)

قلت: أجل.. هو كذلك.

قـال: فأغنيـاء العـالم الـذين تمتلئ قلـوب الفقـراء حسدا أو نقصا عند رؤاهم، هل تغنيهم أموالهم وذراريهم وقصورهم شيئا وقت الحاجة.

قلت: أما في الدنيا، فنعم.

قال: ما الدنيا إلا أيام تروح وتنقضي، فبعد الدنيا.

قلت: لا تنفعهم، فلم أر أحدا تدفن كنوزه معه.

قال: أرأيت لو دفنت كنوزه معه، هل تغني عنه من أمره شيئا؟

قلت: كيف تغنيه، وهو لن يطول به المقام حتى يأكله الدود، فيصير هيكلا عظميا ينخره التراب.

قال: أرأيت لو حنطوه، وحفظوا جثته وزينوها بالحلي والحلل التي جمعها، أكان ذلك يغني عليه شيئا؟

قلت: كيف يغني عليه، وهو رمة بالية، والحمار يظل حمارا، ولو كسي وزين ما زين.

قال: فخبرني ما فائدة هذا المال الذي لا تجده أحوج ما تكون إليه؟

قلت: وما البديل؟

قال: أن تبحث عن المال الذي تجده في كل وقت.

قلت: ما الفرق بينهما؟

قال: الأول سراب، والثاني ماء، ومن أجهد نفسه مع السراب لن يصل إلى الماء.

قلت: وكيف أصل إلى الماء؟

قال: بالبحث عن رب الماء، ألم تقرأ قوله تعالى: { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}(النور:39)

قلت: فمن فقد الله؟

قال: لم يظفر إلا بالسراب، ولهذا كانت هذه الجوهرة جوهرة:(ماذا وجد من فقدك)

قلت: هذا جزء من حكمة ابن عطاء الله.

قال: هذه حكمة من حكم الوجود، وسنة من سنن الكون، و{ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً }(الأحزاب: 62)

قلت: أريد الشواهد، فأنت تعرف أني لا أقبل إلا الشواهد.

قال: البصيرة خير الشواهد.

قلت: وكلام الله نور البصيرة.

قال: إليك هذه الأشعة الأربعة.

الشعاع الأول:

قلت: فما الشعاع الأول؟

قال: هو الشعاع الذي يضيء من سراج قوله تعالى:{ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً }(الكهف:42)

قلت: هذه قصة هلاك مال رجل غره ماله.

قال: لم يغره ماله فقط، بل استعبده من دون الله، ألم تسمع قوله بعد ندمه:{ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً }(الكهف:42)

قلت: فما في هذا من أشعة هذه الجوهرة؟

قال: هذا الشعاع يقول لك: كل ما امتلكته من غير الله فان أو سيفنى.

قلت: لا شك في هذا.. فهذه حقيقة من حقائق الأبد، فقد قال تعالى:{ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ}(القصص:88)

قال: وقال تعالى:{ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْأِكْرَامِ}(الرحمن:26 ـ 27)

قلت: فما الأثر الذي يحدثه سماع هذه الآيات؟

قال: لا يتعلق بالهالك إلا هالك.. ولا يتعلق بالفاني إلا الفاني.

قلت: وكلنا هالكون، فلذلك ترانا نتعلق بالهالكين.. فهل علينا لوم في ذلك؟

قال: نحن هالكون، ولكن فطرنا مملوءة بحب الحياة، ألم تسمع قوله تعالى:{ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى}(طـه:120)

قلت: بلى.. فما في هذه الآية من فطرة الخلود؟

قال: لولا أن الله ملأ فطرة الإنسان بحب الخلود ما جاءه الشيطان من هذا الباب.

قلت: صدقت.. فالشيطان لا يرتع إلا فيما يحمله الإنسان من معاني.. فهو يبحث عنها ليقلب حقائقها.

قال: ولهذا.. فإن من أراد الحياة الخالدة يحتاج إلى التعلق بالخالد الذي لا يموت، ألم تسمع قوله تعالى:{ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً}(الفرقان:58)، ففي الآية إشارة صريحة إلى هذا الشعاع الذي يخرجك من الأكوان ليربطك برب الأكوان.

قلت: ألهذا نرى النصوص الكثيرة تخبر عن هلاك الأموال، وذهاب العز عن أهله، كقوله تعالى عن أصحاب الجنة:{ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ

فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ}(القلم:19 ـ 20)

قال: لقد كان ما حـل بتلـك الجنـة من من أكـبر نعم الله عليهم.

قلت: كيف تقول هذا؟.. هذه عقوبة، وليست نعمة.

قال: كـل نعمـة تحجبـك عنـه عقوبـة.. وكـل عقوبـة توصلك إليه نعمة.

قلت: صـدقت.. فلـولا أن اللـه تعـالى ابتلاهم بهـذا البلاء، لما قـالوا:{ سُـبْحَانَ رَبِّنَـا إِنَّا كُنَّا ظَـالِمِينَ}(القلم: 29)

قال: إن غلة هذه المقولـة أعظم من كـل غلـة كـان يمكن أن يظفروا بها.

الشعاع الثاني:

قلت: فما الشعاع الثاني؟

قـال: هـو الشـعاع الـذي يضـيء من سـراج قولـه تعـالى:{ وَأَصْـبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَـهُ بِـالْأَمْسِ يَقُولُـونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَـادِهِ وَيَقْـدِرُ لَــوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَــا لَخَسَــفَ بِنَــا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}(القصص:82)

قلت: فمــا في هــذا الشــعاع من حقــائق هــذه الجوهرة؟

قـال: هـذا الشـعاع يقـول لـك: إن لم تشـهد هلاك مالك، فستشهد هلاكك، وفي هلاكك هلاك مالك.

قلت: وضح لي ما تقصد.

قال: ما الغرض الذي تطلبه من الأموال؟

قلت: الانتفاع بها، والاستفادة منها.

قال: أرأيت إن منعت من هذه الاستفادة، وحرمت من هذا التمتع!؟

قلت: حينها سأعتبر نفسي خاليا من المال، حتى لو عمرت كنوز الدنيا خزائني.

قال: فهذا الشعاع يخاطبك من هذا الباب لينزع من قلبك عبودية الذهب والفضة، وينزع من الفقير شوقه الذي استعبده للذهب والفضة.

قلت: يخاطبه بمنطق الفناء الذي خاطبه به الشعاع السابق.

قال: أجل.. فما أكثر الخلق الذين لم يشهدوا هلاك أموالهم.. وكل الخلق شهدوا هلاكهم عن أموالهم.

قلت: فهل من فرق بينهما؟

قال: في التحقيق لا فرق بينهما.. فسواء ذهب مالك عنك، أو ذهبت أنت عن مالك.

قلت: أي عزاء يحمله هذا المعنى للفقراء.. ألسنا نبحث عن سلوى الفقراء؟

قال: هذا المعنى يخلص الفقراء من عبودية الشعور بالفقر للأشياء ليزج بهم في عبودية الافتقار لله.

قلت: فكيف نتحقق به؟

قال: بذكر الموت.. فما حل الموت في كثير إلا قلله، ولا في قليل إلا كثره.

قلت: أسمع هذا اللفظ كثيرا فما معناه.

قال: هذا اللفظ يخاطب الفقراء ليقول لهم: إن ما عندكم كثير يكفيكم، فلا تحزنوا.. ويقـول للأغنيـاء: إن ما عندكم قليل، فلا تغتروا به.

قلت: إن هـذا يضـاد الحقيقـة.. فمـا عنـد الفقـراء قليل، وبه صاروا فقراء.. وما عنـد الأغنيـاء كثـير، وبـه وجبت عليهم الزكاة.

قـــال: نحن نتكلم في الحقـــائق لا في الرســـوم.. فمن نظـر إلى مايسـد الحاجـة، فالقليـل كثـير.. ومن نظر إلى مايسد طمعه فالكثير قليل.

قلت: فذكر الموت إذن عزاء للفقراء.

قال: وتربية للأغنياء.

الشعاع الثالث:

قلت: فما الشعاع الثالث؟

قـال: هـو الشـعاع الـذي يضـيء من سـراج قولـه تعالى:{ قَالَ فَاذْهَبْ فَـإِنَّ لَـكَ فِي الْحَيَـاةِ أَنْ تَقُـولَ لا مِسَاسَ }(طـه: 97)

قلت: هذه الآية تتحدث عن عقوبـة السـامري.. ولا أرى فيها أي سلوى للفقراء، ولا أي تربية للأغنياء.

قال: اسمعها بعين الحقـائق لتبصـر الشـعاع الـذي ينطلق منها.

قلت: ليس في طاقة أذني أن تسمع غير الحروف والأصوات.

قال: أهذه هي عقوبة السامري؟

قلت: أجـل.. لقـد عاقبـه اللـه بمـرض يحرمـه من المجتمع.. فهو لا يود أن يمس أحدا، أويلاقي أحدا.

قـال: فعنـدما أراد اللـه أن يعـاقب السـامري بمـا تقتضــيه فطرتــه من مخالطــة المجتمــع، هــل أزال المجتمع وحرمه منه.

قلت: لا.. المجتمع كان موجودا على مرمى بصره.

قـال: فهـل قبض اللــه روحــه ليحرمــه من رؤيــة المجتمع؟

قلت: لا.. بل بقي موجودا.

قال: ولكن كيف حرم من المجتمع مع أنه كان في المجتمع؟

قلت: لقد ذكرت لك أنـه ابتلي بمـرض يحرمـه من المجتمع مع أنه في وسطه وبين أفراده.

قال: فافهم سر هذا الشعاع من هذا المعنى.

قلت: كيف؟

قــال: لقــد عــرفت في الشــعاعين الســابقين أن المال الذي استعبد الأغنياء والفقراء إمـا أن يـذهب أو يذهب بصاحبه.

قلت: أجل.. وهذا الشعاع؟

قـال: يقـول لـك:قـد تبقى مـع المـال.. ولكنـه لن ينفعك.. بل ستمتلئ حسرة وأنت تنظر إليه.

قلت: أأصير كالعيس في البيد يقتلها الظمأ؟

قال: أجل.. ولو كان الماء فوق ظهورها محمول.

قلت: نعم.. إني كثيرا ما ألاحظ هذا.. فالأشياء قد تكون موجودة، وبوفرة.. ولكنا لا نجد أي متعة، ونحن نتناولها.

قال: لأن التلذذ ليس بالأشياء.. وإنما بما يخلقه الله فيك من السكينة التي تستقبل التلذذ وتتمتع به.. اللذة من الله لا من الأشياء.. فقد تأكل كسرة يابسة، ويضع الله في لسانك من التلذذ بها ما لا تجده في أشهى المأكولات.

قلت: صحيح هذا..

قال: بل هوحقيقة يشير إليها، بل يصرح بها قوله تعالى:{ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ} (الانبياء:69).. فالله تعالى لم يطفئ النار، وإنما جعل في إبراهيم ﵇ من السكينة والإيمان ما تتحول به النار بردا وسلاما.

قلت: صحيح هذا.. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى:{ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}(لأنفال:43)،فالله تعالى جعل في هذه الرؤيا ما يطمئن القلوب ويملؤها بالثقة.

قال: ليس الأمر قاصرا على الرؤى، بل هو شامل للواقع.. لكل واقع.. ألم تسمع قوله تعالى:{ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} (لأنفال:44)

قلت: أجل.. لقد وعيت هذا..

قال: فاعبر منه إلى سائر الحواس.. فالله الذي يتصرف في الأعين يتصرف في اللسان والآذان وفي كل جوارح الإنسان ولطائفه.

قلت: أيمكن إذن أن يرزق الله الفقراء بمعيشتهم البسيطة من الراحة واللذة والسلوان ما لا يجده الأغنياء؟

قال: أجل.. فالخلق خلق الله.. واللذات نعم من نعمه، يوزعها لمن يشاء، وكيف يشاء.

قلت: ألا علاقة لها بالأشياء؟

قال: لا علاقة لها بالأشياء.. ألم تسمع قوله تعالى: { وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} (الزخرف:33 ـ 35)؟

قلت: بلى.. سمعتها.. فما علاقتها بهذا؟

قال: إن الله يخبرنا بأن السعادة ليست في الأشياء..

قلت: أهي مثل قوله تعالى:{ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}(طه: 124)؟

قال: أجل.. وقد عبر عن هذا الضيق بالضنك ليشير إلى أن حياة هؤلاء قد تكون واسعة من حيث الأشياء.. ولكنها ضيقة، بل ضيقة جدا من حيث بركات الأشياء، وما فيها من أصناف اللذات.

الشعاع الرابع:

قلت: فما الشعاع الرابع؟

قال: هو الشعاع المستمد من قوله تعالى على لسان الذي يكتشف حقيقة الأشياء التي كان يزهو بها في الدنيا:{ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ} (الحاقة:28 ـ29)

قلت: فما يقصد هذا الشعاع؟

قال: هذا الشعاع يذهب الزهو الذي يملأ قلوب الأغنياء، وهم ينظرون إلى أموالهم، فيمتلئون استغناء بها عن الله.

قلت: فما يقول لهم؟

قال: يقول لهم: إن هذه الأموال التي شغلتكم عن الله لن تنفعكم أحوج ما تكونون إليها.

قلت: لقد ضرب الله لذلك مثلا في القرآن الكريم، فقال تعالى:{ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} (البقرة:266)

قال: أجل.. فهذا قد ذهب عنه ماله أحوج ما كان إليه.. أتدري ما مثله؟

قلت: ما مثله؟

قال: مثل رجل أفنى عمره في بناء سفينة ضخمة وضع فيها جميع جهده وجميع ما يحتاجه.. وضيع في سبيلها كل شيء.. لكنه ما إن توسط البحر اللجي حتى نبع من وسطها عيون أغرقتها وأغرقته معها.

قلت: مـا أجـدره لـو ملأ نفسـه بالراحـة، وحفـظ علاقاته.

قال: هو تمنى لو حصل منه ذلـك، ولكن لات سـاعة مندم.

قلت: لقد أخبر تعـالى عن الحـال الـتي يكـون عليهـا هؤلاء في زحمة الأهوال، فقال:{ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْـرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيـهِ وَفَصِـيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعـاً ثُمَّ يُنْجِيـهِ} (المعـارج: 11ـ14)

قال: وقد أخـبر عن النتيجـة الـتي يتقنـع بهـا الأغنيـاء والفقراء الذين أفنوا أعمارهم بحثا عما لا يغنيهم، فقال: { وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَـا كُنْتُمْ تَسْـتَكْبِرُونَ} (لأعـراف: 48)

قلت: فمـا في هـذا الشـعاع من السـلوى للفقـراء والتربية للأغنياء؟

قال: يقول لهما: لا تنشـغلا بهـذا الغـنى الـوهمي عن الغنى الحقيقي.. فما تجمعونه من أموال، أو ما تحزنون عليه من أموال لايساوي حسنة واحدة في ميزان رجـل مؤمن.

قلت: إن هذا يجعل الأغنياء والفقـراء يتسـابقون إلى الحسنات..

قال: وحينذاك يذهب زهو الغني وكبرياؤه وغفلته.

قلت: والفقير..!؟

قال: لا يضر الفقير شيء مثل الغـني الجاحـد.. فـإن آمن الغني اغتنى الفقير.

قلت: لم؟

قال: لأن ثروة الغني سينتفع بها الفقير.. وحق الفقير لا يتسلط عليه الغني.

قلت: نستطيع بهذا أن نمحو الفقر والغنى.

قال: أجل.. بالتنافس على الخير يزول الغنى والفقر.. فالفقير من خفت موازينه من حسنات الله.

قلت: لقد ذكرتني بحديث في الزمن الأول.. حين كان الناس ينظرون إلى ما تكتب الملائكة لا إلى ما تكتب الخزنة، فقد روي أن ناسا قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال:(أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به: إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة)، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال:(أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)[1]

***

ما قلت هذا حتى شعرت بجوهرة كريمة تنزل أعماق صدري، تنجلي من نورها بعض الظلمات.

قلت في نفسي حين نزولها: نعم.. إن الفقير في الحقيقة لا يؤلمه فقره، وإنا يؤلمه شعوره بأن غيره يملك ما لا يملك، فهو ينطوي على حسد لا شعوري يجعله يمتلئ حزنا وأسفا.

فإذا علم هذا الفقير أن الكل فقير، وأن أبواب الغنى الحقيقي مفتوحة للجميع، وأن ذلك الغني الذي يتألم لغناه ما هو إلا فقير من الفقراء.. بل قد يكون أذل

---

1)) مسلم.

الفقراء وأحوجهم، فإنه سيعيش ممتلئا بغناه سعيدا بغناه.

لست أدري كيف خطر على بالي إبراهيم بن أدهم، وقد كان من أهل النعم بخراسان؟ فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله، فلما أكل نام، فقال لبعض غلمانه: إذا قام فجئني به، فلما قام جاء به إليه، فقال إبراهيم: أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع؟ قال: نعم. قال: فشبعت؟ قال: نعم، قال: ثم نمت طيباً؟ قال: نعم. فقال إبراهيم في نفسه، فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر.

وذكرت عامر بن عبد القيس حين مر عليه رجل، وهو يأكل ملحاً وبقلاً، فقال له: يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: ألا أدلك على من رضي بشر من هذا؟ قال: بلى. قال: من رضي بالدنيا عوضاً عن الآخرة.

وذكرت محمدا بن واسع حين كان يخرج خبزاً يابساً فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول: من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد.

ماذا فقد من وجدك:

صعد بي المرشد طابقا أعلى في قصر الاستغناء، هو قمة طوابقها، فلاحت أنوار عظيمة جميلة لا يمكن وصفها كادت تخطف بصري، قلت للمعلم: ما هذا؟

قال: هذه منطقة:(قدس الأقداس)، فاحرص على الأدب، { فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً}(الكهف: 70)

قلت:{ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ

أمْراَ}(الكهف:69)

ارتد إلي طرفي، فأبصرت جوهرة لا يمكن وصـفها.. نورها يكاد يغمر كل شـيء، بـل كـدت أحس أني شـعاع من أشـعة نورهـا، سـألت المرشـد عن هـذه الجـوهرة العزيزة، فقال: هذه جوهرة:(ماذا وجد من فقدك)

قلت: ما معنى ذلك؟

قـال: أنـا المرشـد، ولسـت المعلم، اسـأل معلم السلام.

أجابني من غـير أن أسـأله: لا يكفي أن تشـعر بأنـك لست مطرودا.. ولا يكفي أن تشعر بأن في إمكانـك أن تكـون مختـارا.. ولا يكفي أن تشـعر بـأن كـل مـا يملـك غيرك سراب وهباء، لتمتلئ بالسلام والسعادة؟

قلت: فما الـذي ينقص الفقـير حـتى يشـعر بسـكينة أعظم وسلام أتم؟

قال: أن يشعر بأنه يملك كـل شـيء، وأنـه لا ينقصـه شيء.

قلت: وما فائدة هذا الشعور، وما علاقته بالاسـتغناء، وما علاقته قبل ذلك كله وبعده بالسلام؟

قـال: لأن افتقـاره إلى أي شـيء يعـني دوام حاجتـه وفاقته ونقصه، والاستغناء يقتضي الغنى المحض.

قلت: فما علاقة ذلك بالسلام.

قـال: لأن الفقـر نقص وضـعف، والسـلام لا يجـاور الضعفاء، وأعظم الضـعف الكفـر، ألم تسـمع قولـه ﷺ: (كاد الفقر أن يكون كفرا)[1].. أتفهم وجه الإشارة في هذا الحديث؟

---

1)) أورده العجلوني في كشف الخفاء (2 /ـ 108)، وقال: في سـنده يزيد الرقاشي ضعيف، ورواه الطبراني بسند فيه ضعيف مرفوعا.

قلت: أفهم معناه الظاهر، وهو ما يستدل بـه قـومي في حربهم للفقر.

قال: أما معناه الخفي الذي قد يغفلون عنه، فهـو أن الفقر يعني عدم الشعور بنعم الله، وعـدم الشـعور بهـا يعني كفرانها وجحودها.

قلت: فالفقر إذن كفر؟

قال: الفقير الذي تملكه الأشياء، ولا يملك الأشياء.

قلت: فكيف يملك كل شيء؟ ومن لديه الطاقـة لأن يملك كل شيء؟ ذلك الله فهو ملـك كـل شـيء ومالـك كل شيء.

قال: ومن عرف الله ملك كل شيء.

قلت: لم أفهم.

قال: من عـرف اللـه والاه وناصـره وأحبـه وعبـده.. أليس كذلك؟

قلت: بلى.

قـال: ومن والى اللــه والاه، ومن أحبــه أحبــه، ومن نصره نصره.. أليس كذلك؟

قلت: بلى.

قال: فمن كان كذلك أيحتـاج شـيئا من اللـه، فيبخـل عليه به؟

قلت: معاذ الله.

قال: فمن لم يعز عليه شيء، ولم تطلبه نفسه شيئا إلا وجده، ألا يعتبر واجدا لكل شي مالكا لكل شيء!؟

قلت: ربما، ولكن الملك شيء، والانتفاع شيء آخر.

قال: وما فائدة الملك غير الانتفاع؟

قلت: لم أفهم ما تقصده.

قال: أرأيت لو ملكت آلاف القصور، وكانت لك آلاف المطاعم، ثم انقبضت نفسك أو سدت شهيتها، أو حالت الحوائل بينك وبين التهام ذلك الطعام الذي أعد لك، أكنت تفرح بامتلاكك له؟

قلت: لا أظنني سأفرح، بل ربما أحسد آخر طباخ يأكل فضلات ذلك الطعام الذي حرمت منه.

قال: فقد فهمت إذن.

قلت: وماذا فهمت؟

قال: بأن العبرة في الانتفاع لا بالملك.

قلت: ولكن ما علاقة ذلك بهذه الجوهرة النفيسة.

قال: نور هذه الجوهرة يمتد في الصدور ليشعرها بأن مجرد وجود الله والتعرف عليه والوصول إليه والقرب منه كاف في الحصول على الغنى التام الذي لا يفتقر صاحبه إلى شيء.

قلت: فما أنوار أشعتها؟

قال: أشعتها كثيرة، ولكن يكفيك هنا هذه الأربع.

الشعاع الأول:

قلت: فما الشعاع الأول؟

قال: مريم ـ عليها السلام ـ

قلت: ما شأنها؟

قال: اسمع ما يقوله تعالى في حقها:{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ

عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}(آل عمران:37)

قلت: هذه الآية أعرفها، فما محل الشاهد منها؟

قال: أرأيت لو أن ملكا يملك كل مزراع الدنيا ومصانع أغذيتها طلب من فلاحيه وعلمائه أن يأتوه بفاكهة واحدة من الفواكه التي كانت تأكلها مريم ـ عليها السلام ـ وهي في محرابها، أكانوا يطيقون؟

قلت: كلا، فطعامهم من الشهادة، وذلك من الغيب، وما أبعد البون بين الغيب والشهادة.

قال: فمريم ـ عليها السلام ـ أغنى منهم؟

قلت: في هذه الحالة، يمكن أن نقول: نعم.

قال: وفي غيرها، يمكن أن تقول: نعم أيضا، لأن الذي أعطى الطعام يمكن أن يعطي غيره.

قلت: فما سر هذا؟

قال: سأضرب لك مثالا يوضح لك هذا: لو رأيت بستانا جميلا، فيه من الفواكه والثمار ما فيه، ونازعتك نفسك إلى ثماره، فما هو أقرب طريق إلى ذلك؟

قلت: أقرب طريق إلى ذلك أن أستأذن صاحبه في الأخذ منه.

قال: ولو أنك تقربت من صاحبه من غير أن تطلب منه شيئا، ثم وفرت من الأسباب ما يجعلك حبيبا في عينيه وقلبه.

قلت: سيغدق علي حينها ثمارا كثيرة وفواكه لذيذة.

قال: فلو كان تقربك أعظم، وكان هذا البستان الذي يملكه ذلك الغني جزءا من مائة ألف جزء من بساتينه؟

قلت: حينها سيعطيني البستان جميعا، بل ربما يعطيني بساتين أخرى أفضل وأعظم.

قال: فهكذت فعلت مريم ـ عليها السلام ـ

قلت: وماذا فعل أغنياء قومي الذين يتيهون بغناهم؟

قال: اغتنموا ظلام الليل، فسطوا على شجرة من أشجار ذلك البستان، فاقتطفوا ثمرة من ثمارها، ثم اقتتلوا فيما بينهم أيهم يملكها.

قلت: لقد كان في إمكانهم أن يأخذوها في ضوء النهار، وبدون أن يقتتلوا؟

قال: لأنهم لم يتعلموا السلام.. لقد تعلموا أن لا ينالوا شيئا إلا بالصراع.

الشعاع الثاني:

قلت: وعيت هذا .. فما الشعاع الثاني؟

قال: شعاع المعية.

قلت: فما شعاع المعية؟

قال: إنه شعاع ينبع نوره من قوله تعالى على لسان موسى ﵇:{ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}(الشعراء: 62)

قلت: هذه الآية تخبر عن موقف موسى ﵇ عندما خرج بصحبة بني إسرائيل، فاشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش { فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}(الشعراء:61)

وحينها قال موسى ﵇:{ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}

(الشعراء: 62)

قال: وحينها ماذا حصل؟

قلت: بمجرد أن قالها أمره اللّه تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، فنجا موسى ﵇ ومن معه أجمعون.

قال: وماذا حصل لفرعون؟

قلت: ما قصه القرآن الكريم، قال تعالى:{ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ} (لأنفال: 54)

قال: فكيف انتصر موسى ﵇ على فرعون؟

قلت: بقوة الله وتأييده، فلم يكن لموسى ﵇ حينها أي قوة تمنعه من بطش فرعون.

قال: ولم يكن له كذلك أي مفر، فالبحر أمامه، والعدو وراءه.. ولكن لماذا خاف قوم موسى ﵇ فقالوا:{ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}(الشعراء: 61)، بينما لم يهتز لموسى ﵇ عصب، ولم يخفق له قلب؟

قلت: لإدراكه أن الله معه.

قال: ومن كان الله معه هل تقاومه جيوش الدنيا؟

قلت: كيف يكون ذلك، والله رب الدنيا ورب جيوشها، بل إن الله يرسل أضعف جنوده ليحفظ من يشاء، ويهلك من يشاء.

قال: فمن كان صاحب جيش عرمرم يحميه أينما حل، وأينما ارتحل من دون أن يكلفه شيئا لا طعامه ولا شرابه ولا أجرته، أيعتبر فقيرا؟

قلت: بل هو في درجة أعلى من الغنى.. إنه في

درجة الملوك.

قال: بل هو في درجة أعلى من الملوك.

قلت: كيف؟

قال: جيوش الملوك يحركها الطمع في أجر الملوك، وقد يستفزها الطمع فتنقلب على الملوك، فيعيش الملك في حمايتها خائفا من جنايتها.

قلت: ومن كان في حماية الله وجنود الله.

قال: تكون نصرته بحسب كينونته معه، وأمنه بحسب حضوره مع الله.. ألم تسمع إليه ﷺ وهو في أحرج المواقف التي مر بها، وهو في غار ثور، ولو أن أحدا من الشركين رمى ببصره لرآه، ماذا قال حينها ﷺ ؟

قلت: قال ما قصه علينا قوله تعالى:{ إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (التوبة:40)

قال: أتعلم قدر البشارات التي يحملها قوله تعالى: { إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ }

قلت: إنها بشارة عظيمة ولا شك.

قال: ولكن لا يمكن تصورها.. إنها جواز حماية من الله لرسوله ﷺ، ومن كان الله معه كانت جنود الدنيا جميعا معه، قال تعالى:{ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}(الفتح:7)

قلت: ما أكثر ما يملك رسول الله ﷺ إذن من جنود.

قال: بل ما أعظم ما يملك كل مستغن بالله فقير إلى الله من جنود، ألم تسمع قول الحق تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} (محمد:7)؟

قلت: بلى .. ومن كان الله في نصرته لا يغلب.

قال: { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}(آل عمران:160)

قلت: ومن تخلى الله عنه لا ينصر، ولو ملك جميع جيوش الأرض.

قال: { أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ}(الملك:20)

قلت: فمن وجد الله إذن لا يستغني بالرزق فقط، بل يستغني بالحماية والرعاية والحفظ.

***

تأملت ما يحمله هذا الشعاع من بشارات، وتذكرت مواقف الأنبياء والأولياء الذين لم تتزعزع قلوبهم، وهم يرون المشانق منصوبة لهم.

تذكرت إبراهيم ﵇، وهو يلقى في المنجنيق ليرمى به إلى ما أضْرَم له أعداء الله من النار، فلم يتحرك قلبه، ولم ترتعد فرائصه، بل بقي كالطود الأشم لا تزعزعه الرياح، بل سرت السكينة من باطنه إلى ظاهره إلى ما حوله، فأطفأت ببرودتها وسلامها نار النمروذ وزبانيته.

جمعوا الحطب شهرا ثم أوقدوها، واشتعلت واشتدت، حتى أن الطائر كان يمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها.

ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولا، وغفلوا أن يقيدوا سكينته، أو عجزوا أن يقيدوها.

وحينذاك ضجت السموات والأرض ضجة واحدة: ربنا! إبراهيم ليس في الأرض أحد يعبدك غيره يحرق فيك فأذن لنا في نصرته.

وكان الله يعلم ما في قلب إبراهيم، فقال ــ كما يروي المفسرون ـ:(إن استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه)

فلما أرادوا إلقاءه في النار، أتاه خزان الماء - وهو في الهواء - فقالوا: يا إبراهيم إن أردت أخمدنا النار بالماء. فقال: لا حاجة لي إليكم.

وأتاه ملك الريح فقال: لو شئت طيرت النار. فقال: لا.

ثم رفع رأسه إلى السماء فقال:(حسبي الله ونعم الوكيل)

وحينها جعل الله من هذا الذي أرادوا حرقه به بردا وسلاما وبشارة.

الشعاع الثالث:

قلت: وعيت هذا.. فما الشعاع الثالث؟

قال: إنه شعاع ينبع نوره من قوله تعالى على لسان امرأة فرعون:{ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ} (التحريم: 11)

قلت: فما فيه من الاستغناء بالله؟

قال: ألا ترى أنها طلبت الجار قبل الدار؟

قلت: أجل.. وقد كان ذلك من أدبها.

قال: ليس ذلك من الأدب فقط.. بل قـد عـبرت عن حقيقة من الحقائق الكبرى.

قلت: فما هي؟

قال: لا لذة للجنة.. ولا لأي شيء من غير الله.. فلولا الله، وحضور الله لكانت الجنة خرابا على أهلها.

قلت: أجل.. فقد سمعت الله، وهو يتوعد الجاحــدين بالحجاب، فيقول:{ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} (المطففين:15)..

قــال: ولهـذا قــال العــارفون:(ليس خوفنــا من نــار جهنم، ولا رجاؤنــا للحــور العين، وإنمــا مطالبنــا اللقــاء، ومهربنا من الحجاب)

قلت: أهم يســتهينون بالجنـــة، أم تـــراهم يحتقـــرون النار؟

قال: لا.. ولكن معنى هذه الحقيقة شـغلتهم عن كـل شــيء، فلم يتصــوروا ســعادة من دون اللــه.. ألا تــرى المحبين كيف يغفلون عند رؤية محبيهم عن الآلام الــتي تحيط بهم!؟

قلت: أجل.. وقد عانيت بعض ذلك.

قال: فما وجدت؟

قلت: وجدت ما قال الشاعر:

وفي فؤاد المحب نار جوى أبردها … أحر نار الجحيم

قال: فهل تستنكر ذلك؟

قلت: كيف لي أن أستنكر ما أعلمه من نفســي.. إن

نار الفراق إذا استولت على القلب غلبت النار المحرقة للأجسام، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام.. وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد.

وليس هذا في الآخرة فحسب، بل في الدنيا شهادات كثيرة عليه، (فقد رؤي من غلب عليه الوجد، فغدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة القدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه، وترى الغضبان يستولي عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأن الغضب نار في القلب، واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيف إلا من حيث إنه يفرق بين جزأين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام، فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطه تأليف أشد إحكاماً من تأليف الأجسام فهو أشد إيلاماً)(1)

قال: صدق الغزالي.. فقد عبر عن هذه الحقيقة خير تعبير.

قلت: كل الربانيين عبروا عنها.

قال: أتدري سر لهج أهل الجنة بالتسبيح؟

قلت: لقد ورد النص على لهجهم بالتسبيح، قال ﷺ:(يأكل أهل الجنة فيها ويشربون، ولا يتغوطون، ولا يتمخطون، ولا يبولون، ولكن طعامهم ذاك جشاء كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس)(2).. فما سر ذلك؟

---

1)) إحياء علوم الدين.

2 ()) مسلم.

قال: سر ذلك أنه لا لذة لشيء يخلو من ذكـر اللـه.. فلذلك يكون تسـبيح أهـل الجنـة بمثابـة النفس عنـدنا.. ولولا التنفس لم نتنعم بطعام ولا شراب ولا متاع.

قلت: ألا نسـتطيع أن نعمم هـذا على ارتبـاط الكثـير من التصرفات العادية بذكر الله؟

قال: أجل.. فالعـارفون لا يفهمـون من هـذه الأوامـر والسنن إلا ذلك.. أما الغافلون، فيعتبرونها من التكـاليف التي تنوء بها ظهورهم.

قلت: أذكرنا لله نعمة إذن؟

قال: وهل يرتاح المحب إلا لذكر حبيبه؟

قلت: لقد ذكرتني باعتباره ﷺ الصلاة قرة عينه.

قـال: أجـل.. فالصـلاة هي الموعـد الـذي يلقى فيـه الحبيب حبيبه.

قلت: أرأيت لـو حيـل بين أرواح الأوليـاء الطـاهرة، وبين هذه العندية؟

قال: يعدم كل موجود، ويفـنى كـل حي، وييبس كـل مخضر.. ألا تعلم ما قال حاديهم؟

لم أدر إلا وأنا أقول: أجل.. فقد قال أبو مدين:

فلـــولا معـــانيكم تراهـــا قلوبنا

إذا نحن أيقـاظ وفي النـوم إن غبنا

لمتنـــا أســـى من بعـــدكم وصـــبابة

ولكن في المعـــني معـــانيكم معنا

الشعاع الرابع:

قلت: وعيت هذا .. فما الشعاع الرابع؟

قال: هو شعاع ينبع من نور قوله تعالى:{ِإِذْ هُمَـا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}(التوبة: 40)

قلت: فما في هذا الشعاع من حقائق الاستغناء؟

قال: معية الوجود.

قلت: فما معية الوجود؟

قال: أرأيت لو أن رجلا له ولد هو أحب الناس إليه لا يستطيع فراقه مع أنه لا ينتظر أي نصرة منه.. ثم غـاب ولده غيابا طويلا جعله يكاد ييأس منه، ثم ظفر بـه.. مـا هو أعظم ما يسليه إن أصابته الأحزان؟

قلت: إن رؤيته لولده أو تذكيره به أكبر مـا يملأ قلبـه مسرة وفرحا.

قال: فكذلك الأمر في هذا.. ولله المثل الأعلى.

قلت: ولكن الله حاضر لم يغب.. فكيف تضرب هـذا المثال؟

قال: هو حاضر لم يغب.. ولكن القلـوب هي الغافلـة الغائبـة.. فلـذلك إن ملأهـا اللـه بالإيمـان والمحبـة، فلن تتأسف على شيء تفقده:

لكل شيء إذا فارقته عوض   وليس لله أن فارقت من عوض

قلت: أجل.. لقد ذكرتني بصنوف من الحكمة ذكرهـا الأولياء، ونشر عطرها الصالحون.

قال: فما قالوا؟

قلت: لقد ذكـروا في الإشـارة عن اللـه تعـالى:(لا تركنن إلى شئ دوني فإنه وبال عليك وقاتل لك، فإن ركنت إلى العلم تتبعناه عليـك، وإن آويت إلى العمـل رددنـاه إليـك، وإن وثقت بالحـال وقفنـاك معـه، وإن آنسـت بالوجـد اسـتدرجناك فيـه، وإن لحظت الخلـق وكلناك إليهم، وإن اغتررت بالمعرفة نكرناهـا عليـك.. فأي حيلة لك، وأي قوة معك.. فارضنا لـك ربـا حـتى نرضاك لنا عبداً)

وسـئل أبـو سـليمان الـداراني ﵁ عن أفضـل مـا يتقرب به إلى الله، فقال:(أقـرب مـا يتقـرب بـه إلى اللـه أن يطلـع على قلبـك، وهـو لا يريـد من الـدنيا والآخرة سواه)

قـال: فالغـارقون في بحـر هـذا الحب لا يـرون غـير محبوبهم، وهـو لا يغيب عنهم أبـدا.. فلـذلك لا يشـعرون بالفاقة التي تملأ نفوس الخلائق.

قلت: أجل.. وقد قال قائلهم:

ومن عجب أني أحن إليهم

وأســـأل عنهم من أرى وهم معي

وتطلبهم عيــني وهم في ســوادها

ويشـتاقهم قلـبي وهم بين أضـلعي

قال: فبشر الفقراء بأن يجعلوا غناهم بالله.. وبشر الأغنياء بما فاتهم من الحظوظ بابتعادهم عن الله.

قلت: إذا بشـــرتهم جميعـــا تســـاوى الأغنيـــاء والفقراء!؟

قال: من شعر بفقره للأشياء لن يصـل إلى اللـه.. ومن شعر بغناه عن الله مات في أودية الفقر.

***

ما قال هذا حتى شعرت بجوهرة كريمة تنزل أعماق صدري، تنجلي من نورها بعض الظلمات.

قال: فقد أدركت سـر النعم ولبابهـا.. ألا تعلم معـنى النعم؟

قلت: بلى.. فـالنعم هي الفضـل العظيم الـذي يمن الله به على عباده.

قال: فمن وصف الله به في القرآن الكريم؟

قلت: لقد وصف الله به أصنافا من الناس.

قال: فمن هم؟

قلت:هم أولا غير المغضوب عليهم ولا الضالين، كمـا قال تعالى:{ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْـرِ الْمَغْضُـوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ}(الفاتحة:7)

قال: ألا ترى فيهم الأغنياء؟

قلت: ولكنهم بمنطق القرآن الكـريم ليس لهم حـظ من هذه النعم.. فهم فقراء من هذه الزاوية.

قال: فلماذا تودون أن تكونوا مثلهم؟

قلت: نحن ننظر إلى الزخارف لا إلى الحقائق.

قال: فعـد بنـا إلى المنعم عليهم لـترى حقـائق النعم وأصناف المنعم عليهم.

قلت: إن المنعم عليهم في القــرآن الكــريم ليســوا أثرياء العالم الكبـار، وإنمـا هم حفنـة من من عبـاد اللـه الصـالحين الـذين قـد يحتقـرهم الخلـق لبـذاذتهم، وقـد يرمونهم بالتخلف لسوء حـالهم، ولكن اللـه أنعم عليهم، وأطنب في في ذكــرهم، فــذكرهم إجمــالا في قولــه تعالى: { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَـعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّـدِّيقِينَ وَالشُّـهَدَاءِ وَالصَّـالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً} (النساء:69)

ثانيا ـ كنز القناعة

خرجت من قصر الاستغناء، وقد جمعت ثروة طائلة من جواهره النفيسة..سرت مع المعلم في أرجاء مدائن الغنى بحثا عن قصر جديد، لجمع جواهر جديدة.

فجأة وقفنا أمام قصر مهيب، كل ما فيه جميل، مستغن بما فيه عن المدينة وأهل المدينة، وكأنه معزول عنها تماما، سألت المعلم عن سر هذا القصر، فقال: هذا قصر القناعة.. فالقنوع مكتف بما عنده، لا تمتد عيناه لغيره.

دخلت القصر، فقد كان معي جواز الافتقار، وإذا بي أرى مرشد القصر في حلة جميلة وطلعة بهية لا تقل عن حلة وطلعة مرشد قصر الاستغناء، فتقدمت إليه، وسألته، محاولا إظهار خبرتي بتلك القصور، قلت له: أنا لي علاقة طيبة بالمرشدين، وقد صحبت في الأيام السابقة مرشدا، ليتك رأيت ما يتمتع به من طاقات.

قال: بلى.. أعرفه.

قلت: أهو قريبك إذن أم صديقك، فالحرفة الواحدة تجعل أصحابها أصدقاء رغم أنوفهم؟

قال: أنا أعرفه لا لصداقة بيننا..

قلت: إذن هو قريبك.. ولكن الشبه بينكما بعيد.

قال: ليس هو قريبي، بل..

قاطعته قائلا: فكيف عرفته إذن؟

قال: أنا هو..

بهت متأملا صورته محاولا إيجاد شبه بينهما، ثم قلت: أهو أنت محبة ومودة، أم هو أنت شحما ولحما؟

قـال: مـا بـك يـا هـذا، ألا تـرى الإنسـان إلا شـحما ولحما!؟

قلت: اعذرني، فأنا من قوم يقولون مثل هذا الكلام، ولكن اصدقني ما المعنى المجازي في قولك:(هو أنا)

قال: ليس هناك معنى مجازيا، كل ما في الأمــر أني هو، وهو أنا.

قلت: والصورة مختلفة!؟

قال: ألم تسمع عن سوق الصور؟

قلت: بلى، قـرأت مـا رواه المحـدثون عنـه ﷺ:(إن في الجنة لسـوقا مـا فيهـا شـراء ولا بيـع إلا الصـور من الرجال والنساء، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيهـا) (1)

قال: فهذا من ذاك.

قلت: ولكن ذاك في الجنة، ونحن في الدنيا.

قال: ولكن.. ألم تسمع بأن الأولياء تعجل لهم جنانهم في الدنيا، ألم تسمع قول من قال:(في الدنيا جنــة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة)؟

قلت: بلى.

قال: فهذا كذلك من ذاك.

ثم التفت إلي، وقال معاتبا: دعك من الأقنعة، واقنــع بالحقيقة، وهلم لتجمع كنوز القناعة، ولا تنس قلمك.

***

التفت إلى المعلم، وقلت: كم طوابـق هـذ القصـر، وكم جواهره؟

---

1)) الترمذي، وقال: هذا حديث غريب.

قال: أربع: التدبير، والاقتصاد، والكفاية، والأمن.

قلت: فما سر كون هذه الجـواهر أربـع.. أهـو مجـرد غرام بالأربع؟

قال: لأن القناعة علاج الطمع والحرص.

قلت: وما في ذلك؟

قال: لأن الطمع والحـرص نـاتج عن أربـع علـل، كـل علة منها تداوى بأشعة جوهرة من الجواهر.

قلت: فما هي، وما سر انحصارها؟

قال: الطمع والحرص ناتجان من فـراغ عظيم يجـده الطامع والحـريص، ألا تـرى أن حـروف الطمـع جميعهـا جوفاء.. هي تشبه تماما نفس الطامع..

قلت: لعل النبي ﷺ أشار إلى ذلـك بقولـه:(لـو كـان لابن آدم واد لأحب أن يكون له ثان، ولو كان لـه واديـان لأحب أن يكون إليهمـا ثـالث، ولا يملأ جـوف ابن آدم إلا التراب، ثم يتوب الله على من تاب)(1)

قال: صدق ﷺ، فقد أشار إلى علة الحـرص والطمـع أتم إشارة.

قلت: وهذه الصفة.. ما علاقتها بالعلل الربع؟

قال: إن الفراغ الـذي يعانيـه الطـامع يجعلـه حريصـا على ملئه، كمـا أخـبر ﷺ بأنـه إن كـان لـه واديـان، وملأ بهمـا جوفـه، يشـعر بـأن جوفـه لا زال يحتمـل المزيـد، فيظل حبيس فقره وحاجته وطمعه.

قلت: وهذا إلى ما يـؤدي.. لا زلت حريصـا على سـر الأربع.

قال: يؤديه ـ أولا ـ إلى اختلاط في تصرفاته ، وجشـع

1)) البخاري ومسلم والترمذي.

في تناول الأشياء، مثله كمثل من أدخل سوقا مملوءا بالكنوز، ثم أعطي ساعة ليجمع منها ما يشاء.. فتراه في تلك الساعة، وقد اختلط عليه أمره.. لا يدري كيف يتصرف.. ولا ماذا يجمع؟.. ولا أين يضع؟

قلت: هذا صحيح، فبم يعالج هذا؟

قال: يعالج بالتدبير والتنظيم والتثبت.

قلت: فما العلة الثانية؟

قال: الفراغ الذي يعانيه يجعله يسرف في تناول الأشياء، لأنه يعتقد أن جوفه لا زال يحتمل المزيد، ألا ترى الشره كيف يأكل فوق حاجته إلى أن يصاب بالتخمة، لا لكونه جائعا، ولا لكونه مشتهيا، وإنما للمرض الذي يعانيه!؟

قلت: مرض فراغ الجوف.

قال: وهو مرض لا يقل خطورة عن كثير من الأمراض التي يحرص قومك على طلب علاجها.

قلت: فبم يعالج هذا؟

قال: بالاقتصاد، ألم تسمع أن الاقتصاد نصف المعيشة!؟

قلت: بلى .. فما العلة الثالثة؟

قال: الفراغ الذي يعانيه الطامع والحريص يجعله يطلب أشياء كثيرة لا حاجة له إليها حرصا على ملأ فراغه، هو كمن يريد أن يملأ حفرة عميقه، فوضع فيها التراب، فلم يكف، فوضع فيها الحجارة، فلم تكف، فراح يضع المزابل والقمامات.

قلت: فما وجه التشيه في هذا؟

قال: هذا الذي كان طمعه سبب فقره، فلم ينظم

حياته، ولم يدبر معيشته، ولم يقتصد.. سيؤديه ذلك لا محالة لمزابل الناس وقماماتهم وأيديهم ليملأ جوفه.

قلت: فبم تعالج هذه العلة؟

قال: تعالج بالكفاية والزهد.

قلت: ولكني سمعت أن الزهد داء لا دواء.. ودخيل على الدين لا أصيل.

قال: ذلك ما أسمعك قومك.. أما الحقيقة فهي أن الزهد هو باب الكمال، ومفتاح الغنى.

قلت: ولكنه يدعوني إلى الجوع.

قال: بل يدعوك إلى أن تقتصر من حياتك على ما يكفيك ويغنيك، فلا تمتد عيناك لغير ما جعل الله لك من حاجات.. أريد أن أسألك سؤالا.

قلت: سل.

قال: لماذا يخيط نساجو قومك السراويل برجلين فقط، ولماذا يكتفون بصناعة قدمين للأحذية.

ضحكت وقلت: وهل رأيت رجلا بثلاثة أرجل أو بأربعة أقدام؟

قال: لو فقهوا سر هذا لما وجد في الدنيا فقير واحد؟

قلت: كيف؟

قال: لأن سبب الفقر هو استيلاء الغني على مائدة الفقير ليضيف إلى مائدته أصنافا جديدة، ولو أنه زهد واكتفى بما يحتاجه، ولم تمتد عيناه لمائدة أخيه لعاش الجميع بالكفاية.. فالله تعالى أنزل من الأرزاق ما يكفي الجميع.. ألم تسمع الحق وهو يقول:{ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ}(فصلت: 10) ؟

قلت: فالزهد والكفاية إذن علاج لمرض الفقر.

قال: بل سم لقتله، ورصاصة في نحـره، وحربـة في صدره.

قلت: ولكن هناك من يسيء فهمه.

قـال: إسـاءة الفهم لا تقلب الحقـائق.. أرأيت لـو أن الناس أجمعوا على أن الشمس برتقالـة كبـيرة وضـعت في الفضـاء، لغـرامهم بالبرتقـال، أكـان ذلـك يغـير من حقيقة الشمس؟

قلت: لو كـان ذلـك كـذلك لأجمعـوا على أن حجـارة الجبال كلهـا عقيـق وزبرجـد وجـواهر، وأن تربـة الأرض كلها دراهم ودنانير.

قـال: فلا تسـمع لمـا يقـال.. وابحث عن الحقيقـة.. واكتف بها.

قلت: أين؟

قـال: في نـور البصـيرة، وبصـيرة النـور.. في كتـاب ربك.. وفي الفطرة التي نور الله بها بصيرتك.

قلت: فما العلة الرابعة؟

قال: الفراغ الـذي يعانيـه الطـامع والحـريص يجعلـه خائفا على المستقبل، وكأن الذي رزقه اليوم قد يحرمه غدا.. أو كأنه أمام رب مزاجي يتصرف بحسب ذوقـه، لا بحسب ما تتطلبه حاجات عباده.

قلت: فإلام يؤدي هذا؟

قـال: يـؤدي إلى نسـيان الحـريص ليومـه، وانشـغاله بيده، فهو لا يقول:(أنا لدي اليوم ما يكفيـني، فأنـا غـني بفضل الله)، بل يقول:(ليس لدي في غد ما يكفيــني.. فأنا فقير)

قلت: لقد أشار ﷺ إلى ذلك بقولـه:(ابن آدم عنـدك مـا يكفيـك، وأنت تطلب مـا يطغيـك، ابن آدم لا بقليـل تقنع، ولا من كثير تشبع، ابن آدم إذا أصبحت معافى في جسـدك آمنـا في سـربك(1) عنـدك قـوت يومـك، فعلى الدنيا العفاء)(2)، وفي حديث آخر أو في لفظ آخر، قال ﷺ:(من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسـده وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا)(3)

قال: هذا حديث عظيم.. لو عملتم به لقهرتم الجوع، وقتلتم الفقر.

قلت: كيف؟

قال: لأن خزائن الأغنياء مملوءة بطعام الفقراء.

قلت: لماذا؟

قـال: لأنهم يخـافون أن تغـور ميـاه الأرض، أو تجـف عيــون الســماء، أو تقــوم أعشــاب الأرض وأشــجارها بإضراب، فلا تنبت كلأ ولا تثمر ثمرا.

قلت: ولكن الحاجات ليسـت طعامـا فقـط، والفقـير عندنا قد يجد ما يأكل، والغني لا يشح عليه بذلك.. ولكن هنــاك مشــاكل أخــرى.. هنــاك الســكن، وهــو أخطــر المشاكل.

قال: والغني لا يكتفي من المسكن بما يؤويـه كمـا لا يكتفي بالطعام بما يكفيه.

قلت: لقد ذكرتني بحديث لا أعلم مدى صحته، يقول فيه ﷺ:(يا أيها النـاس! أمـا تسـتحيون! تجمعـون مـا لا تأكلون، وتبنون ما لا تعمرون، وتأملون ما لا تدركون، ألا

---

1)) السرب: بكسر السين وسكون الراء: المأوى.

2)) ابن عدي والبيهقي.

3)) البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجة.

تستحيون من ذلك)[1]

قال: أرأيت لو أن الأموال المبذولة في قصور الأغنياء بنيت بها مساكن بسيطة للفقراء، أكان ذلك يعالج ما تسميه بمشكلة السكن.

قلت: بل يكفي لبناء مساكن فارهة لا بسيطة.

قال: فحرصكم إذن هو الذي أوقعكم في الفقر، لا فضل الله.

قلت: فما علاج هذه العلة الرابعة.

قال: الأمن.

قلت: وما الأمن؟

قال: الثقة في فضل الله، والرضى بتقدير الله وتقسيمه وأن تعيش يومك وتسأل الله لغدك.

قلت: فكيف أتحقق بهذه الأدوية الأربع.

قال: بأن تملأ جوفك بهذه الأدوية الأربع.

قلت: وأين أجدها؟

قال: في هذا القصر، وبالتعرض لأشعة جواهره، وتفهم أسرار حقائقه.

***

تأملت ما قاله، فإذا بخاطر جميل يلوح لي يملؤني نشوة وينزع بعض الكدر، لقد قلت لنفسي: إن أكثر من تراهم من الفقراء الذين تحزن لهم ليسوا فقراء، وإنما هي أجوافهم التي جعلوها كهاوية عميقة لا يملؤها شيء.

---

1)) الطبراني والديلمي.

وتـذكرت حينهـا قولـه ﷺ:(ليس الغـنى عن كـثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس)(1)

وذكرت قوله ﷺ ناصحا:(إن هذا المـال خضـر حلـو، فمن أخـذه بسـخاوة نفس بـورك لـه فيـه، ومن أخـذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكـان كالـذي يأكـل ولا يشبع؛ واليد العليا خير من اليد السفلى)(2)

وتذكرت قوله ﷺ وهو يـبين منبـع من منـابع الفلاح: (قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه اللّه بما آتـاه) (3)

وعلمت أن المراد بـالفلاح هنـا ليس مـا نتوهمـه من قصـره على الآخـرة، بـل المـراد بـه النجـاح في كلا الحياتين: الحياة الدنيا والآخرة، فالله رب الدنيا والآخرة.

جوهرة التدبير:

وقفت مع المعلم أمام أول جـوهرة من جـواهر كـنز القناعـة، لأملأ جـوفي بأشـعتها، قـال لي المعلم: هـذه جوهرة نفيسة.. حقيقتها تخلق بأخلاق الله.

قلت: هـذا كلام خطـير، فمـا علاقـة القناعـة والفقـر بصفات الله؟

قال: أليس الله هو المدبر؟

قلت: بلى، ولكن تدبير الله مختلف، فخـزائن اللـه لا تنفذ.. وخزائننا محدودة مقدرة.

قال: وهذا ما يزيد في عمق الإشارة.

قلت: لم أفهم.

قال: ألم تسـمع قولـه ﷺ لسـعد عنـدما رآه يتوضـأ،

1)) البخاري ومسلم.

2)) البخاري ومسلم.

3)) مسلم.

ويسرف في الوضوء:(ما هذا السرف يا سعد؟)، فقال سعد:(أفي الوضوء سرف؟)، فقال ﷺ:(نعم، وإن كنت على نهر جار)(1)

قلت: بلى، ولكن ما علاقة ذلك بالإشارة؟

قال: لأن النبي ﷺ أراد أن يبين لنا أن الإسراف لا يرتبط بكم الأشياء، وإنما هو خلق، فقد تجد الفقير يسرف، والغني يقتصد.

قلت: هذا صحيح وواقع، ولعله من أسباب الفقر، ولكن ما علاقته بالإشارة؟

قال: إن الله تعالى يملك كل شيء، ومع ذلك دبر الكون تدبيرا محكما بحيث لا نجد زيادة ولا نقصا في أي محل.

قلت: أهذا ما يشير إليه قوله تعالى:{ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ}(فصلت:10)؟

قال: ومن هذه الآية يتخلق المؤمن بخلق التدبير الذي يملأ جوفه بالحق لا بالباطل، وبالخير لا بالشر.

قلت: كيف، فلا أرى في الآية ما يشير إلى هذا، بل هي تتحدث عن عظمة الربوبية وتصرفها في الكون.

قال: إن الله قدر أقوات الأرض في أربعة أيام.

قلت: ولكن ما علاقة هذه بتدبير الله، ثم ما علاقة تدبير الله بتدبيرنا، وقبل ذلك ما حقيقة هذا التدبير؟

قال: اسأل خبراء قومك، وسيجيبونك.

قلت: بلى .. وقد درسنا في مراحل تعليمنا المختلفة

---

1) رواه أحمد.

الكثير من ذلك..

قال: وبالإضافة إلى ذلك، فإن الله تعالى دبر للأرض من الأقوات في جوفها ما تتنعمون به الآن مما لم يظفر به أسلافكم.

قلت: ولعل من يأتي بعدنا سيظفر بأقوات لم نظفر بها نحن.

قال: إن ذلك لكائن، فقد قال ﷺ وهو يحدثنا عما يختزنه المستقبل من أحداث:(ثم يرسل الله عز وجل مطراً لا يكِنّ منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَقَةِ، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك ودِرّي بركتك. فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقِحْفِها، ويبارَك في الرِّسل حتى إن اللِّقْحَةَ من الإبل لتكفي الفئام من الناس، و اللِّقْحَةَ من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللِّقْحَةَ من الغنم لتكفي الفخذ من الناس)[1]

ثم تمتم بينه وبين نفسه: ومن رحمة الله أن ستره عليكم كما ستر على من قبلكم.

قلت: لم؟ فالله هو الجواد الكريم.

قال: لأنه لو أظهره لما تركتم منه أخضر ولا يابس.

قلت: لم أفهم إلى الآن كيف يكون التدبير خلقا من أخلاق الله.

قال: كيف تدبر المرأة الحكيمة شؤون بيتها؟

قلت: تحاول أن تحول من القليل كثيرا، ومن الصغير كبيرا، وتنظم مصاريف البيت بحيث لا تصل إلى ضرورة، ولا تضطر إلى حاجة.

قال: أريد توضيحا أكثر لما تقول.

(1) مسلم.

أحسست بانشراح لتحولي معلما، فاندفعت أقول: أرأيت لو أن عائل البيت لم يكن يتسوق ــ لفاقته أو لضرورة ـ إلا يوما واحدا في الأسبوع، فأتى بما يكفي ذلك الأسبوع، فما هي المدة التي ينبغي أن تتعامل معها المرأة المدبرة لذلك الرزق الذي سيق لها؟

قال: أسبوع.

قلت: هذا ما تفعله المرأة الحكيمة المدبرة، أما الخرقاء، والتي هي سبب فقر زوجها، فإنها قد تضعه جميعه في القدر في يوم واحد.

قال مندهشا: وسائر الأسبوع، ماذا تفعل فيه؟

قلت: تقترض من جيرانها، أو تضطر زوجها للسؤال والشحاذة.

قال: فسبب الفقر إذن قد يكون سوء التدبير.

قلت: هذا صحيح.

ثم التفت، وقلت: ولكني إلى الآن لا زلت مصرا على سؤالي.

قال: تقصد العلاقة بين تدبير الله وتدبير العبد.

قلت: أقصد سر كون التدبير تخلقا من أخلاق الله.

قال: لقد ذكرت لك بأن الله دبر أقوات الأرض في أربعة أيام، أي أن هذه الأقوات تنزل بقدر معين، بل إن القرآن الكريم سماها أقواتا، والقوت هو الرزق المحدود المعتدل.

قلت: فذلك يشبه إذن تدبير المرأة الحكيمة.

قال: بل إن تدبير المرأة الحكيمة هو الذي يشبه هذا التدبير، فهي متخلقة بأخلاق الله.

قلت: نعم لقد دبرالله رزق الرضيع تدبيرا حكيما، ولكنه وكل تدبير حياتنا نحن الكبار لنا، فليته دبرها كما يدبر الرضيع.

قال: لو كان الأمر كذلك لما احتجتم إلي شيء.. ولكن البلاء الذي اقتضته خلافتكم اقتضى أن يوكل بعض من رزقكم لبعض.

قلت: ليس بعض رزقنا فقط، بل كل رزقنا، فنحن تحت رحمة الأغنياء.

قال: لو كان كل رزقكم بيد الأغنياء لما عشتم لحظة واحدة.

قلت: كيف؟

مد يده إلي، فأغلق فمي وأنفي، فصحت بيدي، وقد كدت أختنق: لماذا تحاول قتلي، ألست تلميذك؟ وهل أخطأت في شيء؟

قال: لقد أجبتك عن سؤالك.

قلت: كيف تجيبني، وأنت تخنقني.

قال: تصور لو أن هؤلاء الأغنياء الذين تتوهمهم قد ملكوا رزقك، فمنعوك منه، ملكوا هذا الهواء الذي تتنفسه، أكنت تعيش بعده لحظة واحدة؟

قلت: كلا.. إلا إذا استعبدوني لمصالحهم.

قلت: صدقت.. فالله هو المدبر، ولولا تدبيره لهلك الخلق جميعا.

قال: فخذوا من تدبير الله، وتخلقوا به، لتحفظوا وجودكم، وتقتلوا الفقر الكافر الذي يتربص بكم ويستعبدكم.

قلت: أي فقر يتربص بنا، ونحن نختزن ثروة العالم،

ألم تعلم ما أفاء الله على بلاد المسلمين من ثروات النفط.. الذهب الأسود؟

قال: إن الله لم يرزقكم ذلك الذهب لتعلقوه على أعناق الحسان، وتهدروه في المواخير، وإنما لتنصروا به المستضعف، وتملأوا به البطون الخاوية، وتطعموا به الأفواه الجائعة، وتحملوه معكم لتنصروا دين الله، وترفعوا راية الله.

قلت: ولكن راية الله نرفعها على أجسادنا وجماجمنا.

قال: قبل أن ترفعوها على جماجمكم ارفعوها على أموالكم وأرزاقكم، فالله دعا إلى الجهاد بالمال والنفس، لا بالنفس فقط.

قلت: صدقت، فإنه ما يأتي الجهاد في القرآن الكريم بالنفس إلا ويقترن بالجهاد بالمال، قال تعالى:{ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} (التوبة:20)

قال: بل يقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس.

قلت: وهل في ذلك سر؟

قال: لأن من قدم نفسه سوف لن يستطيع تقديم ماله.

قلت: كيف؟

قال: لأنه لا يستطيع أن يتكسب.

قلت: فماذا تريد هذه الآيات أن تقول إذن؟

قال: تريد أن تقول لكم: ابذلوا جميع جهودكم الخيرة، ثم اجعلوا خاتمتها موتكم في سبيل الله، أو هي

تقول لكم:(قبل أن تموتـوا في سـبيل اللـه، حـاولوا أن تحيوا في سبيل الله)

قلت: لأجل هذا إذن قال ﷺ:(خير النـاس من طـال عمره وحسن عمله، وشر الناس من طال عمره وسـاء عمله)(1)

قال: بل ورد في حديث آخر مـا هـو أعظم من هـذا، قال ﷺ:(ليس أحد أفضل عند الله عز وجل من مـؤمن يعمر في الإسلام، لتكبيره وتحميده وتسـبيحه وتهليلـه) (2)

قلت: ولكن ما علاقـة هـذا كلـه بالتـدبير.. ألم نخـرج إلى الاستطراد، وأنت تعلم عيوبه؟

قـال: لا.. ذاك تـدبير الطعـام، وهـذا تـدبير الحيـاة.. والحكيم هو الذي يدبر لمستقبله كما يدبر لبطنه، ويـدبر لنشأته الآخرة كما يدبر لنشأته الدنيا.

قلت: نعم، فقد أخـبر ﷺ عن كيفيـة تـدبير المـؤمن لآخرته فقال:(إن الدين يسـر ولن يشـاد الـدين أحـد إلا غلبـه، فسـددوا وقـاربوا وأبشـروا، واسـتعينوا بالغـدوة والروحة وشيء من الدلجة)(3)

قـال: وهـذا يشـبه تـدبير الإنسـان لأمـر دنيـاه بحيث يحاول الموازنة بين حاجاته، فيسد بعضها ببعض.

قلت: ما أعظم ما تشـير إليـه النصـوص من معـان.. ولكن..

***

ما قلت هذا الكلام حتى شعرت بجوهرة كريمة تنزل أعماق صدري، تنجلي من نورها بعض الظلمات.

---

(1) أحمد والترمذي، وقال: حسن صحيح، والحاكم.

(2) أحمد وعبد بن حميد.

(3) البخاري والنسائي.

قلت في نفسـي بعـدها: لـو أن أكـثر الفقـراء الـذين ملأوا نفوسهم هما وحزنا، وملأوا العالم بكاء وعـويلا، لـو عرفوا كيف يتعايشون مـع حـالتهم، واطمـأنوا بهـا، كمـا يتعايش المرضى مع أمراضهم، فيتناولون من الحمية ما يسد فاقتهم لانتفى فقرهم وعـادت إليهم كـرامتهم ولم يحجبهم اعتراضهم.

بل إن من الأغنياء من يبتليـه اللـه بـالمرض، فيعيش في حمية قاسية دونها حمية الفقراء، فمـا أهميـة امتلاء جيوب الأغنياء، وخواء بطونهم؟

ثم لماذا لا يعتبر الفقير بما يحصل لهؤلاء، فيحمد الله لكون حميته بسبب خـارجي، لا بسـبب داخلي، ولكونهـا ممكنة الزوال لا مستقرة فيه، وبكونها لا تـؤثر في سـير حياته ولا سلامة عقله ولا طمأنينة ضميره؟

ثم تذكرت الأغنيـاء المـترفين الـذي دعـاهم جـزعهم وهلعهم وحرصهم إلى تدبير لا يكفيهم فقـط، بـل يكفي أمما من الناس، فمن الأغنيـاء في العـالم من لـه ثـروة توازي ميزانيات دول بحالها، ثم هو لا يقنع بكل ذلك، بل يفعل ما قاله ﷺ:(لو كـان لابن آدم واد لأحب أن يكـون له ثان ولو كان له واديـان لأحب أن يكـون إليهمـا ثـالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ثم يتوب اللـه على من تاب)[1]

جوهرة الاقتصاد:

صـعدت مـع المعلم طابقـا آخـر في قصـر القناعـة، فوجـدنا شـعاعا عظيمـا متلألئـا، سـألت المرشـد عنـه، فقال: هـذه جـوهرة نفيسـة من جواهرالقناعـة، اسـمها الاقتصاد.

قلت: نحن نعـرف هـذا الاسـم، فهـو الـذي يسـير سياسات العالم، ويحكم على شعوبها بالتقدم والتأخر.

1)) البخاري ومسلم والترمذي.

قال: ذلك من تحريفكم للمعاني، لأن اقتصادكم يقوم على أهوائكم وتغليب مصالحكم، مبتوتا عن الأخلاق والمثل.

قلت: ذلك شأن كل شيء عندنا.. فما الاقتصاد عند أهل السلام؟

قال: اقتصاد أهل السلام يقوم على توزيع ثروات الله لخلق الله بما يتوافق مع مصالحهم جميعا، فلا نجيع بطنا لنشبع بطنا، ولا نفرغ جيبا لنملأ جيبا، ولا نبيد أمة لتعيش أمة أخرى على تراب جماجمها، وتملأ أنهارها من خالص دمائها.

قلت: كيف ذلك؟

قال: إن الله خلق رزق الخلق ليكفي الخلق، أليس هو الكافي والحسيب!؟

قلت: بلى، فقد قال تعالى:{ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} (الزمر: 36)، وقال تعالى:{ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ} (آل عمران:124)

قال: ولكنكم ــ للفراغ الذي تشعرون به في أجوافكم ــ اعتديتم على الأرزاق التي جعلها الله لغيركم.

قلت: كيف ذلك، وهل يملك أحد أن يأخذ رزق أحد؟

قال: أجل.. ألا يعتبر السارق معتديا على رزق غيره، آخذا له بطريق الحرام؟

قلت: أجل، ولهذا عاقبه الشرع بتلك العقوبة الخطيرة، ليقول له: هذه اليد لم أخلقها لك لتأخذ رزق غيرك، بل لتأخذ رزقك، وتسعى لرزقك.. ولكن ما علاقة هذا بذاك، فأغنياؤنا لم يستولوا على أرزاق

غـيرهم، بـل كسـبوها بـالطرق الصـحيحة الـتي أقرهـا الشرع؟

قال: ولكنهم صرفوها في غير ما شرع الله، فأجاعوا بطونا كثيرة ليملأوا الفراغ الذي تشعر به أجوافهم.

قلت: أشـيوعي أنت؟ إني أسـمع في صـوتك نـبرة شيوعية.

قـال: الشـيوعي يهـدم القصـر، لينـبي على أطلالـه الكـوخ، والـذي يهـدم مصـارع، والمصـارع لم يتعلم السلام.. وأنا معلم السلام.

قلت: فالرأسمالية في نظرك إذن أشرف؟

قـال: الرأسـمالية لاتهـدم القصـر ولا الكـوخ، ولكنهـا تمـارس كـل الحيـل لتجعـل من حجـارة الكـوخ لبنـات جديدة تزين بها القصر.

قلت: وأنت.. وأهل السلام؟

قـال: أنـا لا أهـدم القصـر ولا الكـوخ، لأني صـاحب سلام، ولكني أطلب من صاحب القصر أن يزين الكـوخ لكي لا يشـوه جمـال قصـره، وليحفـظ التناسـق في الكون.

قلت: أليس في طلبك صـراع واعتـداء على الحريـة الشخصية لصاحب القصر؟

قال: لا.. لأنه لولا الكوخ ما بني القصر.

قلت: وهؤلاء الذين هدموا الكـوخ أو القصـر مـا سـر هدمهم له.. وهم يزعمون أنهم أعيان اقتصاد.

قال: لأنهم نظروا إلى أجوافهم الفارغة.. ولم ينظروا إلى الحقيقة.. فأحالهم ذلك إلى الإسراف.

قلت: وما الإسراف؟

قال: هو مجاوزة الاعتدال والتـوازن الـذي طبـع اللـه بهما الأشياء جميعا، فلذلك لا ترى فيها أي فطور.

قلت: صدق الله العظيم:{ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَـمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَـرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}(الملك:3)

قـال: إن لم يكفـك ذلـك لتبصـر هـذه الحقيقـة، فـ{ ارْجِـعِ الْبَصَـرَ كَـرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْـكَ الْبَصَـرُ خَاسِـئاً وَهُـوَ حَسِيرٌ}(الملك:4)

قلت: لكأني بك تريـد أن تقحمـني في مـا أقحمتـني فيه في الطابق السابق، فتزعم لي بأن الاقتصـاد خلـق من أخلاق الله.

قال: ما قلت ذلك، فلا نسمي الله إلا بمـا سـمى بـه نفسه.

قلت: فقـد قـال:{ يُـدَبِّرُ الْأَمْـرَ }(السـجدة: 5)، ولم يقل:(يقتصد)

قــال: ومــع ذلــك فهــو يحب المقتصــدين، ويبغض المسرفين، فإن لم تقصد التشبه به، فتشبه بما يحبه.

قلت: كيف يحب المقتصدين؟

قال: ألم تسمع إلى الحـق تعـالى، وهـو يقـول:{ وَلا تُسْـرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْـرِفِينَ}(الأنعـام: 141)، وهـو يحض على تناول نعمه من غير إسراف، قال تعالى:{ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْـجِدٍ وَكُلُـوا وَاشْـرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}(لأعراف:31)

وقد يأخذ الإسراف أسماء أخرى، كلها لا يحبهـا اللـه، ولا يحب أهلها، قال تعالى:{ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَـدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَـدِينَ}(البقـرة: 190)، فالمعتـدي قـد تجـاوز حـد الاعتـدال إلى الظلم،

فصار مسرفا، ولذلك تقوم الحروب بسبب الإسراف.

والإسراف نوع خطير من الفساد لا يحبه الله، قال تعالى:{ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ}(البقرة:205)

قلت: وقد أخبر تعالى بأن المبذرين إخوان الشياطين، فقال:{ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً}(الاسراء:27)

قال: إن القرآن الكريم ـ هنا ـ يجعل التبذير والكفر في سلة واحدة، أتدري لم؟

قلت: لم؟

قال: لأن المسرف لا يعرف نعم الله، أو أن إسرافه يجعله يلتهم الأشياء التهاما يشغله عن معرفة مصدرها، فلذلك لا يبالي المسرف ما ملأ جوفه أمن حلال، أم من حرام، ولا يبالي أفيه منفعة، أم فيه مضرة، ولا يبالي ما عاقبة ما يتناوله أسجن أم زنزانة أم موت.. كل همه أن يملأ جوفه.

قلت: فالمسرف إذن يضر مصالحه.

قال: لا يضر مصالحه فقط، بل يضر مصالحه، ومصالح المجتمع، ومصالح الدنيا، ومصالح الآخرة.

قلت: فهلا تفصل لي مظاهر هذا الإضرار، فإن قومي لا يخافون من شيء كما يخافون على مصالحهم.

قال: سنتحدث عن مضار الإسراف وضرورة الاقتصاد في حفظ المصالح الخاصة والعامة، فالفقر فقر افراد وفقر مجتمعات، ومن الخطأ أن نعالج الفرد، ونترك المجموع للأوبئة تلتهمها.

المصالح الخاصة:

قلت: فلنبدأ بأثر الإسراف في تهديم مصالح النفس؟

قال: إن الله تعالى خلق لنفس الإنسان التي هي جسم وروح طاقات معينة وحدودا محددة، فمن جاوزها وقع في الإسراف.. قل لي: لو أن جهازا من أجهزتكم الكهربائية يحتاج فقط إلى فرق كمون قدره 12 فولت، فأوصله شخص بتيار كهربائي قدره 380 فولط، ما يكون مصيره؟

قلت: التلف.

قال: فإن الله خلق لأجسامكم وأرواحكم التي هي حقيقتكم حدودا معينة، فمن جاوزها حصل له التلف، لا من الله، بل بما كسبت أيديكم، ألم تسمع قوله تعالى:{ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} (الرحمن:33)

قلت: أجل.. ويستدل البعض بهذا على إمكانية غزو الإنسان للفضاء.

قال: ولكن الله تعالى قال بعدها:{ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ}(الرحمن:35)، أتدري لم؟

قلت: لعل في هذا تنبيها للمخاطر التي تعترض الإنسان إن فكر في سلوك هذا السبيل.

قال: لأن الله تعالى خلق الأرض للإنسان، ولم يخلق له أي كوكب آخر، فإن فكر في الخروج منها حصل له ما حصل للعبد الآبق، أو ما حصل للفراش المتهافت على النار، يحسبه لؤلؤا أو ياقوتا.

قلت: هذا قد يحصل في المستقبل، وقد يراد بالآية غير ما فهمنا، ولكن أريد معرفة أنواع الضرر التي

يحملهـا الإسـراف على مصـالح الإنسـان في جسـمه وروحه.

قال: أمـا روحـه، وهي حقيقتـه، فقـد وضـع اللـه لهـا قانونا تسير عليه، فإن جاوزته وقعت في الإسرف.

قلت: ألهذا يرد ذكر الإسراف في القرآن الكريم في غير المأكل والمشرب؟

قال: لكل ما يضر الجسد الظاهر قرين يضر الجسـد الباطن، ولكل ما يضر الروح الظاهرة مثال يضر الـروح الباطنة، فالروح كالجسد، لكليهما صانع واحد.

قلت: لقد كنت أحتار في هـذا، فـأقول: كيـف اعتـبر الله فعل قوم لوط إسرافا، فقـال تعـالى:{ إِنَّكُمْ لَتَـأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَـلْ أَنْتُمْ قَـوْمٌ مُسْـرِفُونَ} (لأعراف:81)

قال: لأن الله تعالى خلـق حـدودا للـذة تتناسـب مـع حاجات الإنسان ومصالحه، فالخروج بها كما خـرج قـوم لوط، أو كما خرج قومك، إسراف عظيم.

قلت: قومي ليسوا سدوما ولا عمورية؟

قـال: سـدوم وعموريـة مجـرد نـاديين صـغيرين من نوادي حضارتكم.

تصبب عرقي حيـاء، وقلت: نعم، إن قـومي أسـرفوا كثيرا في هـذه الأنـواع من الانحـراف حـتى ابتـدعوا مـا عجزت عنه سدوم وعمورية.

قال: فكيف تزعم احترامهم للاقتصاد.

قلت: الاقتصاد عنـدهم لا علاقـة لـه بهـذا.. بـل دوره الوحيد ملء خزائن الكبراء، وإفراغ جيوب الضعفاء.

قـال: ومـع ذلـك فـإنهم لـو احـترموا هـذا النـوع من

الاقتصاد، لحقق لهم مصالح ما يعرفون من الاقتصاد؟

قلت: كيف؟

قال: إن أكثر ما يحزن له الفقير من بني قومك أنه لم يكن له من الشهوات ما يتمتع به الغني.

قلت: هذا هو مقياس الفقر عندنا.

قال: ولم لا ينظر الفقير إلى ما عنده من المتاع الذي قد لا يوجد مثله في قصر كسرى وقيصر!؟

قلت: كيف هذا؟

قال: أليس في بيت أكثر الناس مذياعا يسمع به أخبار العالم، ومصباحا يضيء عليه أرجاء بيته؟

قلت: بل أشياء كثيرة لا تنقل له الأصوات فقط، بل الأصوات والصور.. ولكن ما علاقة هذا بالمصالح الاقتصادية؟

قال: لأن أخطر ما يفرغ جيوب المستضعفين هو ذلك الاستهلاك العشوائي لكل الأشياء، فيعيشون في نهم لكل شيء، ولا يظفرون بأي شيء، ولو أنهم تماسكوا وقبضوا أيديهم قليلا، وقتروا نوعا من التقتير لوفروا لأنفسهم من السعادة والاستقرار ما يوفر لهم من السعادة ما تعجز عنه اللعب التي يتفانون في جمعها.

قلت: فلنفرض أنه حصل ذلك؟

قال: سيرتفع شبح الفقر، وسيسعد الناس جميعا لا بعض الناس.

قلت: ولكن ذلك قد يجعل خزائن الأغنياء متوقفة في حدود معينة لا تتجاوزها.

قال: ولكنها حدود تكفيهم وترضي نهمهم.

قلت: ولكن نهمهم لا حدود لـه، ألم تقـرأ علي قولـه ﷺ:(لو كـان لابن آدم واد لأحب أن يكـون لـه ثـان ولـو كان له واديان لأحب أن يكون إليهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ثم يتوب الله على من تاب)

قال: ولكنا لو أطعنا هـذا النهم لجعلنـا الأرض جميعـا مزرعة في يد غني واحد، وجعلنا أهلها جميعا عبيــدا بين يديه.

قلت: هذه حقيقة.

قال: وهذا مبدأ الصراع.

قلت: لهذا صارعت الشيوعية.

قـال: ولهـذا تصـارع الرأسـمالية، وكـل من يصـارع يهلك.

قلت: الشيوعية سقطت، ولكن الرأســمالية في أوج عنفوانها.

قال: والرأسمالية سقطت في أوج عنفوانها؟

قلت: كيف؟

قال: ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا.

قلت: ويأتيك بالأخبـار من لم تـزود.. هـذا شـعر وأنـا أريد نور البصيرة أو بصيرة النور؟

قـال: إن اللــه تعـالى توعـد المجتمعـات المسـرفة بالخراب.

قلت: أين؟وكيف؟

قال: سنعرف ذلك عند الحديث عن مضار الاسـراف العامة، أما لآن فنحن في مضار الإسراف الخاصة.

قلت: عرفت ضرر الإسراف على مصالح الروح، فما

مضـاره على مصـالح الجسـد؟ فقـومي أحـرص على أجسادهم من كل شيء.

قال: لقد ربط الحق تعالى بين تناول الشهوات وبين الاقتصاد في مواضع من القـرآن الكـريم، فقـال تعـالى: { وَهُـوَ الَّذِي أَنْشَـأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَـاتٍ وَغَيْـرَ مَعْرُوشَـاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفـاً أُكُلُـهُ وَالزَّيْتُـونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَـابِهاً وَغَيْـرَ مُتَشَـابِهٍ كُلُـوا مِنْ ثَمَـرِهِ إِذَا أَثْمَـرَ وَآتُـوا حَقَّهُ يَـوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}(الأنعـام:141)

قلت: لقد ذكر تعالى في هذه الآيـة مـا أنعم بـه على عبـاده من نعيم، فالله هـو الـذي خلـق انـواع البسـاتين والمزارع الحاوية على أنواع الأشـجـار والنباتات ، فمنهـا مـا يعتمـد في موقفـه على الأعمـدة والعـروش حيث تحمـل مـا لـذ وطـاب من الـفـواكه والثمـار، وتخلب بمنظرها الساحر العيـون والألبـاب ، ومنهـا مـا لا يحتـاج الى عـريش ، بـل هـو قـائم على سـوقه يلقي بظلالـه الوارفة على رؤوس الادميين ، ويسـد بثمـاره المتنوعـة حاجة الانسان الى الغذاء.

قال: وبعد أن أغرى الحق تعالى عبـاده بتنـاول هـذه الشهوات بين لهم ضوابط تناولها، وهي ثلاثة: الأكل منها والإنفاق والاقتصاد.

قلت: كيف يكون الأكـل ضـابطا من ضـوابطها، وهـو ضرورة؟

قال: ليرد على الذين حرموا ما أحل اللـه، واعتقـدوا الكمـال في التعفـف عمـا رزق اللـه من الطيبـات، ألم تسمع قوله تعالى:{ قُـلْ مَنْ حَـرَّمَ زِينَـةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْـرَجَ لِعِبَـادِهِ وَالطَّيِّبَـاتِ مِنَ الـرِّزْقِ قُـلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}(لأعراف:32)

قلت: تقصد الزهاد.

قال: لا.. الزهـاد من الأوليـاء، والأوليـاء يفهمـون عن الله ويأتمرون بأمر الله، وإنما أقصد الرهبانية التي قـال الحق تعالى فيها:{ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا } (الحديد: 27)

قلت: ولكن من زهـاد هـذه الأمـة من وقـع في مثـل هذه الرهبانية.

قال: فلا نسميه زاهدا.

قلت: فماذا نسميه؟

قال: راهبا، كما سماه القرآن الكريم.

قلت: فما الضابط الثاني؟

قال: ترك الإسراف، لأن من أكل فـوق حاجتـه كـان كمن يريد أن يملأ خزان وقود سـيارته بربطـه بعين مـاء مغدقة، أو ببئر متدفق.

قلت: لعل هذا ما يشير إليه قوله ﷺ:(المؤمن يأكـل في معي واحد والمنافق يأكل في سبعة أمعاء)(1)

قال: أتدري سر ذلك؟

قلت: وما سر ذلك؟

قـال: لأن المـؤمن ــ حقيقـة الإيمـان ــ ممتلئ ثقـة بفضل الله، فلا يشـعر بـالفراغ الـذي يشـعر بـه الكـافر والجاحد والذي لم يكتب الإيمان في قلبه.

قلت: ألهذا إذن قال تعالى:{ وَالَّذِينَ كَفَـرُوا يَتَمَتَّعُـونَ وَيَـأْكُلُونَ كَمَـا تَأْكُـلُ الْأَنْعَـامُ}(محمـد: 12)، أي هم في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكـل الأنعـام، خضـماً وقضماً ليس لهم همة إلا في ذلك.

1)) البخاري وغيره.

قال: ولهذا ربط الله تعالى بين الإسراف والكفر كما مر معنا، فالكافر لا يرى في النعمة ما يراه المـؤمن من فضل الله، فينشغل بتناولها كما تنشغل البهائم بالرعي.

قلت: ولكنا نرى السمنة في بلاد المسـلمين فاشـية، بـل تكـاد تـبز غيرهـا من الأمم، فكيـف يرتبـط المفـر بالإسراف؟

قال: نحن نتحدث عن الحقيقـة، ولا يهمنـا من تلبس بها أو عري عنها، وقد ورد في النصوص إنكـار السـمنة، فلا ينبغي غض الطـرف عنهـا لكـون الأمـة مصـابة بهـا، فالحق أحق أن يتبع.

قلت: تقصـد قولـه ﷺ:(إن خـيركم قـرني ثم الـذين يلـونهم ثم الـذين يلـونهم ثم يكـون من بعـدهم قـوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن)[1]

قال: صدق رسول الله ﷺ .. هذا هو الاقتصاد.

قلت: فالسمن إذن ظاهرة خطيرة.. ولكنـا يمكن أن نتخلص منها بالرياضة، بـل هنـاك أدويـة كيمياويـة يكفي دهن الجلد بها ليتخلص من الدهون الزائدة.

قال: ولماذا يدخلها أصلا حتى يبحث عن مخرجها؟

قلت: إنهـا شـهوة المطعم، فهـل حـرم اللـه لذائـذ الأطعمة؟

قال: أكلما اشتهى أحد شيئا أكله، ألم تسمع قوله ﷺ :(إن من الإسـراف أن تأكـل كـل مـا اشـتهيت)[2] .. وتجشأ بعضهم عند رسول الله ﷺ فقال له:(أقصر عنـا من جشائك، إن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكـثرهم

---

1)) الترمذي والحاكم.

2)) ورد في سنن ابن ماجة.

شبعاً في الدنيا)(3)

قلت: فلنعد لما ورد في الآية(3)من ضـوابط التعامـل مع نعم الله، فقـد ذكرنـا الأكـل والإسـراف، فمـا محـل الإنفاق في هذا المحل ،ولماذا ربط بالإسراف؟

قـال: لأن المسـرف في الأكـل والشـرب وتنـاول الشهوات لن يبقى له من المال ما ينفـق منـه، أو يبقى له ما يدخره لنفسه الـتي لا تشـبع.. أو هـو في انشـغاله بملأ الفراغ الذي يعاني منه لا يفكر في الإخراج بل يفكر في الإدخـال، ولا يفكـر في الإطعـام، بـل يفكـر في الاستطعام.

قلت: ألهـذا قـال ﷺ:(طعـام الواحـد يكفي الاثـنين، وطعـام الاثـنين يكفي الأربعـة، وطعـام الأربعـة يكفي الثمانية)(4)

قال: ولكن هذا لا يكون إلا لمن مرن نفسه، فلم يدع الفراغ النفسـي يـؤثر فيـه، ولا للشـهوات أن تتحكم في سـلوكه.. ارجـع لقومـك، وادعهم إلى الاشـتغال باللـه، وبأمر الله، فسيملؤون كل فراغ، فإن الشره يهرب إلى الطعام ليهرب من الحقيقة، ولو أنه امتلأ بها لكفته.

ألا تـرى أنـك في انشـغالك بفـرح أو حـزن لا تكـاد تستقر اللقمـة في فمـك حـتى تنهض عن طعامـك غـير عابئ بلذته.

قلت: نعم، ذلـك صـحيح، وكـل النـاس يحصـل منهم هذا.. لقد أرشـدتني إلى دواء جديـد للسـمنة، فالسـمنة عندنا ظاهرة خطيرة.

---

3)) مجمع الزوائد للهيثمي.

3)) هي قوله تعالى:﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(الأنعام:141)

4) مسلم.

قال: ولكنكم تعالجونها ـ كشأنكم في كل شيء ـ بالاتجار فيها، فتنتجون العقارات والسموم، لتصوركم أن الإنسان مجموعة وظائف بيولوجية أو ظواهر فيزيائية لا حقيقة من الحقائق العليا.

قلت: فقد نهينا عن الإسراف، فما مضاره على أجسادنا؟

قال: ألم تعلم أن المعدة بيت الداء؟

قلت: كما أنها بيت الدواء.

قال: هي بيت الدواء إن احترمت ما يدخل إليها، أما إذا لم تحترمه، فستكون بيتا لا لداء واحد، بل لأدواء كثيرة.

قلت: أأنت تقول إذن ما قال ابن سينا؟

قال: وما قال ابن سينا؟

قلت: لقد قال:

جمعتُ الطبَّ في بيتين جمعاً ... وحُسن القولِ في قِصَر الكلام

فقلّل إن اكلتَ وبعد أكل ... تجنّب، والشفاءُ في الإنهضام

وليس على النفوس أشدُّ حالاً ... من إدخال الطعامِ على الطعام

قال: بل أقول ما قال طبيب الأطباء وحكيم الحكماء ﷺ:(ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن

آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه)[1]

المصالح العامة:

قلت: لقد عرفنا مضار الإسراف، ومحاسن الاقتصاد على المصالح الخاصة، فما ضرره على المصالح العامة.

قال: المصالح العامة هي المصالح الخاصة، وضرر الأفراد ضرر المجتمع، ألم يقل ﷺ:(المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى رأسه اشتكى كله، وإن اشتكى عينه اشتكى كله)[2]

قلت: ذلك للمؤمن، ونحن نتحدث مع الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم، فالمصالح العامة مصالح البشر جميعا.

قال: ألم يقل الحق تعالى لليهود، وقد كانوا كفرة:{ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ }(البقرة: 85)، فقد عبر الحق تعالى عن قتلهم لبعضهم بعضا بقتلهم لأنفسهم.

قلت: نعم.. فما الأضرار المرتبطة بهذا الجانب.

قال: الهلاك الذي توعد الله به المسرفين، والهلاك إذا حل بقرية لم يميز صالحها من فاسدها، ولا طيبها من خبيثها.

قلت: تقصد ما ورد في القرآن الكريم من الإخبار بما حصل للمسرفين، كقوله تعالى:{ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ} (الانبياء: 9)، وقوله:{ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ}(الذريات:34)

---

1)) أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم.

2) مسلم.

قال: ولذلك قال تعالى:{ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ}(الشعراء:151)

قلت: وما سر النهي عن طاعتهم، وما علاقة ذلك بهلاك الأمم؟

قال: سر النهي عن طاعتهم هو ما عبر عنه الحق تعالى بقوله في الآية التالية لتلك الآية:{ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ}(الشعراء:152)، فهم لا يكتفون بالإفساد فقط، بل يضيفون إليه ترك الإصلاح.

قلت: كنت أتصور أن ذكر الإفساد وحده كاف، فلماذا ذكر معه ترك الإصلاح؟

قال: لأن الإفساد قد يقع، فيأتي الإصلاح فيسد مواقع الفساد، ويحمي الخلق من أضراره، لكنه إن اجتمع الإفساد مع ترك الإصلاح كان ذلك الفساد شديدا.

قلت: فذلك ما يشير إليه قوله تعالى:{ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}(هود:114)

قال: نعم.. ألم أقل لك إن السنن التي تحكم الأفراد هي التي تحكم المجتمعات، والسنن التي تحكم الدين هي التي تحكم الدنيا.. لأن ربها جميعا واحد؟

قلت: فهمت ما تعلق بهذا في الدين، لأنه أمر غيبي، ولكني لم أفهم ما يتعلق بذلك من الدنيا، ومن مصالح الناس.

قال: قد وضع الله في جميع مصالح الدنيا من الفرص ما يصلح به المخطئ ما أفسده، فإن فعله سد منافذ الفساد ووقي المجتمع شر انحرافه، وإن ترك الإصلاح استقر الفساد، واشتد عوده، حتى يصل إلى درجة لا يمكن أن يصلح أبدا.

قلت: فهلا ضربت لي مثالا يوضح لي هذا المعنى.

قال: لو أن أحدهم رمى بعود ثقاب في غابة في حـر شديد، أليس ذلك إفسادا؟

قلت: نعم، فللأشجار حرمة لا تقل عن حرمة البشر.

قال: فإن أسرع وأطفأها قبل أن تتمكن وتنتشــر، ألا يكون بذلك قد واجه الفساد بالإصلاح؟

قلت: أجل، يكون قد عمل حسنة لتمحو أثر خطيئة.

قال: ولكنه إن تركها حـتى انتشـرت، وعمت الغابـة، أكان يملك حينها القدرة على الإصلاح؟

قلت: لا.. بل يخرج الأمر من يده، بل قد يخرج الأمر من يد المطفئين أنفسهم.. فنحن نسمع الحرائق الهائلة التي تعجز الدول العظمى عن إطفائها.

قال: فلذلك أخبر الله تعـالى عن المسـرفين أنهم لا يفسدون فقط، بل يفسدون، ويتركون الإصلاح.

قلت: فليس ترك الإصلاح إذن مرادفا للفساد؟

قال: ليس في القرآن الكـريم مرادفـات ولا تكـرارا، بـل في كـل كلمـة معـنى جديـد، وحقـائق جديـدة، ألم تسمع قوله تعالى في وصف كتابه:{ لا يَأْتِيـهِ الْبَاطِـلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيـلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيـدٍ}(فصـلت: 42)، والتكرار لغو، واللغو باطل، والقرآن الكريم مــنزه عن اللغو.

قلت: فهمت هذا.. ولكن ما علاقة ذلك بالهلاك العام الذي يحيق بالمسرفين؟

قال: ألم تسمع رسول اللـه ﷺ، وهـو يقـول:(يكـون في آخـر هـذه الأمـة خسـف ومسـخ وقـذف، قيـل: يـا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال:(نعم، إذا كـثر

الخبث)(1)، فقــد اعتــبر ﷺ كــثرة الخبث ســببا للهلاك العام.

بل أشار إلى هـذا قولـه تعـالى:{ وَإِذَا أَرَدْنَـا أَنْ نُهْلِـكَ قَرْيَـةً أَمَرْنَـا مُتْرَفِيهَـا فَفَسَـقُوا فِيهَـا فَحَـقَّ عَلَيْهَـا الْقَـوْلُ فَـدَمَّرْنَاهَا تَـدْمِيراً}(الاسـراء:16)، فتـأمير المـترفين أو تكثــيرهم مــؤذن بهلاك القــرى، وهــل المــترفون إلا المسرفون؟

قلت: اضــرب لي أمثلــة على هــذا، لعلي أعي مــا تقول.

قال: سأضرب لك على هذا أربعة أمثلة.

المثال الأول:

قلت: أعلم غرامك بالأربع، فهات المثال الأول.

قال: أنتم تسرفون في السيارات.

قلت: الســيارات ضــرورة، فهي من المـراكب الـتي خلقها الله لنا، ألم يقل الحـق تعـالى:{ وَالْخَيْـلَ وَالْبِغَـالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ} (النحل:8)

قال: وكذلك الطعام، فهو من الخلق الذي خلقه الله لنا، ومع ذلك كان متعرضا للإسراف.

قلت: فما الإسراف في السيارات؟

قــال: هــذا الكم الهائــل من الســيارت بأنواعهــا المختلفة، وأثمانها المرتفعة، والتي لا يحتـاج إلى أكثرهـا ألا تـؤذي ــ بـالخراب الـذي تنشـره في الجـو ــ ملايين الرئات التي لا تتنفس هواء، وإنما تتنفس سموما.

قلت: هــذا صـحيح، فالبيئـة في خطـر، ولكن كيـف يصلحون ليدرؤوا منافذ الفساد؟

1)) الترمذي.

قال: بترك الإسراف، فما حل الإسراف في شيء إلا أفسده، ألم تسمع قول الحق تعالى:{ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}(الروم:41)

قلت: نعم، فالله تعالى يرجع الفساد الذي ظهر في البر والبحر إلى ما كسبت أيدي الناس.

قال: وهذه الاختراعات الكثيرة التي تفخرون بها وتتكاثرون بها من هذا النوع من الإفساد.

قلت: أفنحرم السيارات إذن على الناس؟

قال: لا:{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ} (لأعراف: 32)، ولكن نكف شرهم على الناس بالإصلاح الذي أمر الله به، فلا تملك هذه المخترعات التي تجتمع فيها المصالح مع المفاسد إلا بشروط أهمها أن يصلح المفسد ما أداه إليه فساده.

قلت: أتقصد أن تغرم شركات السيارات والأفراد غرامات تصلح من البيئة ما فسد؟

قال: هذا لا يكفي، فالفساد ليس متعلقا بالبيئة وحدها، بل إن هذا المثال، وهو واحد من آلاف الأمثلة له علاقة بعقد الحياة جميعا.

قلت: فنأمرهم إذن بشراء دراجات هوائية تغنيهم عن العوادم وعما تخلفه العوادم.

ابتسم، وقال: إن قبلوا منك ذلك، فانصحهم به.

المثال الثاني:

قلت: فما المثال الثاني؟

قال: هو ما عبر عنه ﷺ بقوله:(وأن ترى الحفاة

العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)[1]

قلت: هـذا حـديث عن علامـة من علامـات السـاعة، فما علاقته بهذا؟

قال: وهل علامات السـاعة إلا علامـات لهلاك الأرض والأمم؟

قلت: ولكن هذه العلامـات أخبـار، وهي لا تحمـل أي معنى تشريعي، فلا يستطيع أحـد أن يسـتدل بهـذا على تحريم التطاول في البنيان.

قـال: نحن لا نتحـدث عن الحلال والحـرام.. فـذلك للفقهاء.. ولكنا نتحدث عن أثر هذا النـوع من الإسـراف في الخراب والفساد والهلاك.

قلت: فلا أرى في هـذا أي فسـاد، بـل هـو العمـران والحضارة والرقي، فلـولا التقـدم العلمي الـذي وصـلت إليه البشرية ما حققنا هذه المنجزات؟

قال: ولكن النبي ﷺ لم يقل:(يطيلون البنيان) وإنما قال:(يتطاولون في البنيان) وهو ما فعلتمـوه، فـوقعتم في الإسراف.

قلت: أتقصد أن التفاخر في التطاول في البنيان هــو الإسراف لا إطالة البنيان؟

قـال: نعم، وهـو مـا نطـق بـه ﷺ، فليس محرمـا أن يطيل الشخص بنيانه، وقد قـال تعـالى في بنيـان الجنـة: { لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُـرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَـارُ وَعْـدَ اللَّهِ لا يُخْلِـفُ اللَّهُ الْمِيعَـادَ} (الزمر:20)، ولكن المحرم أن يتطاول في البنيان.

قلت: وما الفرق بينهما ما دامت النتيجة واحدة؟

قـال: لا.. ليسـت النتيجـة واحـدة، فالمتطـاول في

1) البخاري ومسلم.

البنيان قد يبني ما لا حاجة له إليه، لأن غرضه ليس ملأ جوفه الفارغ فقط، وإنما ليظهر انتفاخ جوفه أمام جيرانه.

قلت: ذكرتني بقول ابن رشيق القيرواني:

مما يزهدني في أرضِ أندلسٍ	أسماء مقتدرٍ فيها ومُعْتضِدِ
ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضعِها	كالهرَّ يحكي انتفاخاً صَوْلة الأسدِ

المثال الثالث:

قال: صدق شاعركم، وقد كانت تلك الألقاب المنتفخة التي أسرف فيها حكام الأندلس سببا في خراب الأندلس.

ابتسمت وقلت: وهل في الألقاب أيضا إذن إسراف؟

قال: نعم.. وأعظم إسراف.. أليست واجهات المحلات هي الألقاب التي تعرف بالمحلات؟

قلت: نعم.

قال: فكذلك الألقاب هي التي تعرف بأصحابها، وتدعو إليهم، ألستم توزعون الألقاب كما تشاءون، فتسمون الجاهل بالحكيم، والفاسق بالفنان، والمرابي برجل الأعمال؟

قلت: بلى.

قال: ولا تكتفون بألقاب الدنيا، فتضيفون إليهم

ألقاب الآخرة وأجزيتها؟

قلت: كيف؟

قال: ألا تقولون عن الداعر الفاسد الذي يسب الله في ظلام الليل وضوء النهار إذا مات:(تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنانه) فلم ترضوا أن تسكنوه الجنة حتى أسكنتموه فسيحها.

قلت: أجل، وما في ذلك؟

قال: ألم تسمع ما روي عن أم العلاء - وكانت بايعت رسول اللّه ﷺ قالت:(طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون، فاشتكى عثمان فمرَّضناه حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول اللّه ﷺ، فقلت: (رحمة اللّه عليك أبا السائب شهادتي عليك، لقد أكرمك اللّه تعالى، فقال رسول اللّه ﷺ:(وما يدريك أن اللّه تعالى أكرمه؟)، فقلت:(لا أدري بأبي أنت وأمي)، فقال رسول اللّه ﷺ:(أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وأني لأرجو له الخير، واللّه ما أدري وأنا رسول اللّه ما يفعل بي)، قالت، فقلت:(واللّه لا أزكي أحداً بعده أبداً)(1)

فهذا رسول الله ﷺ يقول عن نفسه هذا، وقد قال تعالى مشيرا إلى هذا المعنى:{ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ} (الاحقاف:9)

قلت: أهذا أيضا من الإسراف؟

قال: بل من أخطر الإسراف، فمثل هذا القول الذي يحمل روائح التألي على الله يجعل من أولئك الأقزام الملطخين أولياء صالحين يتهافت الخلق على الاقتداء

(1) البخاري.

بهم.

قلت: لقد استطردنا، فهات المثال الثالث.

قال: لم نستطرد، بل هذا هو المثال الثالث.

قلت: أهــو الإســراف في الألقــاب، والإســراف في توزيع الجنان.

قـال: ليس هـذا فحسـب، بـل تسـرفون في تعظيم عصـركم وتبجيلـه، وتعتبرونـه القمـة الـتي وصـل إليهـا التاريخ، وكأن مـا قبلكم مقـدمات لكم وأنتم النتيجـة، أو كــأن مــا قبلكم همج بــدائيون، وأنتم وحــدكم أربــاب الحضارة وصناعها، وهذا كله مؤذن بهلاككم.

قلت: كيف يكون سببا لهلاكنا؟

قال: ألم يقل من قبلكم مثل قولكم، فهلكوا؟

قلت: أتقصد قوله تعـالى:{ فَأَمَّا عَـادٌ فَاسْـتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُـوَّةً}(فصـلت: 15)، فــرد اللــه عليهم بقولــه:{ أَوَلَمْ يَــرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُــوَ أَشَــدُّ مِنْهُمْ قُــوَّةً وَكَـانُوا بِآياتِنَـا يَجْحَــدُونَ} (فصلت: 15)

قال: بل أقصد قول كل جبار عنيد.. ألم يقل فرعون ما يقوله أسـيادكم.. ألم يقـل:{ يَـا قَـوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْـكُ مِصْــرَ وَهَــذِهِ الْأَنْهَــارُ تَجْــرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِــرُونَ} (الزخرف: 51)، فما كان جزاؤه؟

قلت: فخر بالأنهار التي تجري من تحته، فأجراها الله من فوقه، وكانت سببا لهلاكه.

قال: فليعتبر قومك بفرعون وعاد، فلم يذكرهما الله في كتابـه قصصـا ولهـوا، ولا أحـداثا وتاريخـا، وإنمـا هي سنته في عباده.

المثال الرابع:

قلت: فهات المثال الرابع.

قال: أنت تسرفون في اللهو واللعب وفرص الراحة.

قلت: وهـذا ممـا لا شـك في إباحتـه إن انضـبط بالضوابط الشرعية.

قال: كل شيء ينضبط بالضوابط الشرعية مباح، ولكنا نتحدث عن الإسراف، فأنتم تملؤون الأرض بمئات القنوات الفضائية، وآلاف المسارح والملاعب، ومئات الآلاف من دور اللهو، وملايين اللعب من كل الأصناف.

قلت: وما الخطر في هذا؟

قال: أنتم تشغلون الناس عن حياتهم ورسالتهم وحقائقهم، فتقتلونهم لا بإهلاك أجسادهم، وإنما بقتل أرواحهم.

قلت: كيف ذلك، وهل اللهو ـ الذي هو فرح الروح ـ قتل لها؟

قال: ألم يقل الشيطان:{ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}(لأعراف:17)، فهذا تعبير عن محاصرة الشيطان للإنسان من كل الجهات وتوسله إلى إغوائه بكل وسيلة ممكنة ، وسعيه في إضلاله بكل طريق.

قال: نحن نعبر بهذا الأسلوب في حياتنا اليومية، فنقول: فلان حاصرته الديون أوالامراض من الجهات الاربع، ولكن ما علاقة هذا بحياة اللهو اللعب التي نعتبرها من علامات التحضر في هذا العصر؟

قال: لقد أجبت عن سؤالك، فالذي يحاصر من الجهات الأربع، هل يجد له وقتا يجلس فيه مع نفسه يفكر ويتأمل؟

قلت: كيف؟

قال: أنتم تملأون برامج يومكم ملأ تامـا، فلا تـتركون لحظة تتفرغون فيها لحقـائقكم، بـل قـد تعتـبرون كثـيرا من القضايا التي يسأل عنها العقـل السـليم، أو تتطلبهـا الفطرة النقية، والتي جعلها الله سببا لطرق بابـه، جـدلا فارغا، أو ترهات لا معنى للبحث فيها.

قلت: أريد مثالا على هذا أكثر توضيحا.

قال: أتعلم معنى قوله تعالى:{ وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيـهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُـونَ}(فصـلت: 26)

قلت: نعم، فاللـه تعـالى يخـبر عن المشـركين أنهم تواصــوا فيمــا بينهم أن لا يطيعــوا القــرآن ولا ينقــادوا لأوامره، فإذا تلي لا يسمعوا له.

قال: وبماذا توسلوا إلى ذلك؟

قلت: بـاللغو، وهـو ــ كمـا قـال مجاهـد ــ المكـاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول اللّـه ﷺ إذا قرأ القرآن.. وكانوا يلغون بقصص اسفنديار ورستم كما فعـل مالـك بن النضـر ليصـرف النـاس عن القـرآن، ويلغون بالصياح والهرج. ويلغون بالسجع والرجز..

قال: كل ذلك أساليب قديمة، أما في عصركم، فقـد تطورت أساليب الشيطان في المحاصرة كمـا تطـورت أساليب سدنته في اللغو.

قلت: أتقصد أن كل هـذه المحلات الـتي يـوزع فيهـا اللهو بالمجان هي نوع من أنواع المحاصرة واللغو؟

قـال: نعم.. هي زنـازين تحاصـر المـدمنين عليهـا.. ليحيوا حياتهم جميعا فلا يعرفـوا من أين ابتـدأوا، ولا أين سينتهون.

قلت: أهذا هو خطر هذه الوسائل الحديثة؟

قال: هـذا جـزء من مخاطرهـا.. أمـا خطرهـا الأكـبر، فهي أنها قوالب كتلك القوالب التي تضعون فيها الفخار لتكونوا منها أواني تأكلون فيها وتشربون.

قلت: فهـل الإنسـان آنيـة فخـار، حـتى يوضـع في القوالب؟

قال: نعم لأن أرباب المصالح من المترفين يـأبون إلا أن يشكلوا عقول الناس وقلوبهم وأهواءهم بحسـب مـا تتطلبه خزائنهم من أموال، وفراغهم من شغل.

قلت: كيف؟

قال: هم يمجدون الرذيلة، إن كانت سببا لكسب يدر عليهم الأرباح، وهم يحقرون الفضـيلة، ويرمونهـا بأبشـع التهم إن وقفت حائلا بينهم وبين مآربهم.

قلت: فلو سمعوا بك إذن لقتلوك؟

قـــال: هم لا يســتطيعون قتلي، ولكن يســتطيعون التشويش علي، ومن شوش عليـك خنـق صـوتك، ومن خنق صوتك قتله.

قلت: ومن قتل صوتك قتلك.

قـال: لا.. لن يسـتطيع.. يوشـك أن يهلـك الباطـل ليرتفع صوت الحق، فـالحق لا يمـوت، ألم تسـمع قولـه تعالى:{ وَقُلْ جَاءَ الْحَـقُّ وَزَهَـقَ الْبَاطِـلُ إِنَّ الْبَاطِـلَ كَـانَ زَهُوقاً}(الاسراء:81)

قلت: فكيـف يكـون هـذا النـوع من الإسـراف سـببا للهلاك؟

قال: لقد سمعت الآية، فالباطل الذي يصـادم الحـق لا بقاء له، ألم تسمع هذا المثل الذي ضربه اللـه تعـالى:

{ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَـاءً فَسَـالَتْ أَوْدِيَـةٌ بِقَـدَرِهَا فَاحْتَمَـلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَـاءَ حِلْيَـةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَـذَلِكَ يَضْـرِبُ اللَّهُ الْحَـقَّ وَالْبَاطِـلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}(الرعد:17)؟

قلت: فكيف يكون هذا الهلاك، أبخسف أم بمسخ؟

قـال: لا يكـون بخسـف ولا بمسـخ، ولكن الباطـل سيقتل نفسه بنفسه.. سينتحر انتحارا بطيئا..

ثم غاب نظره في الأفق البعيد، وقال بصوت لا يكـاد يسمع: لكـأني أراه الآن يمسـك سـكينا مسـموما، وهـو يقطع أجزاءه إربا إربـا، وهـو بين ذلـك يرسـل ضـحكات مختلطة بأنات كالمجنون.

قلت: يا معلم، فهو الآن إذن ينتحر.

قال: إن أول خطوة يخطوها كل باطل خطوة يتقدم بها نحو الموت.

قلت: لقـد ذكرتـني، فقـد أخبرتـني عن هلاك هـذا النظـام الـذي يسـتولي على دفـة العـالم، فكيـف ذلـك، ونحن نراه في أوج قوته؟

قال: هو الآخر ينتحـر كانتحـار كـل باطـل، ولا تزيـده السـنون الـتي يمهـل فيهـا إلا سـقوطا فـوق سـقوط وانحدارا فوق انحدار.

قلت: هم لا يقبلون هذا إلا بأرقام.

قال: وهم لا يؤمنون بالأرقام؟

قلت: بـل هم لا يؤمنـون إلا بهـا، ألسـنا في عصـر الأرقام؟

قال: لو كانوا يؤمنون بها لوصـولوا إلى الحقيقـة من

أقرب أبوابها؟

قلت: كيف؟

قال: هي ذي الإحصائيات أمامهم.. الانتحار.. التلوث.. الإدمان.. الشذوذ.. العصابات.. الجرائم.. الإبادة..

وغرق المعلم في العد، فقلت: أظن أنني اقتنعت، فالإسراف سبب الهلاك.

قال: هلاك الفقير والغني.

قلت: صدق الله العظيم إذ قال:{ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} (الشعراء:151 ـ 152)

جوهرة الزهد:

صعدت مع المعلم طابقا آخر في قصر القناعة، فوجدنا شعاعا عظيما متلألئا، سألت المرشد عنه، فقال: هذه جوهرة نفيسة من جواهر القناعة، اسمها الزهد.

قلت: نحن نعرف هذا الاسم، لكن قومي يمقتونه ويسبونه ويضحكون على أهله، ويكتبون الكتب الكثيرة في الرد عليهم، ويحاضرون المحاضرات الطويلة ليحاصروهم ويحبسوهم.

قال: عن أي زهد يتحدثون؟

قلت: هم يطلقون القول إطلاقا..

قال: أخطأ من أطلق، فالحكمة تطلب التقييد، ألم تسمع إلى الحق تعالى وهو يقول عن أهل الكتاب:{ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ}(آل عمران:113)؟

ألم تسمع إلى القرآن الكريم في حديثه عن الأعراب؟

قلت: اشتد عليهم القرآن الكريم اشتدادا عظيما، لما صدر منهم من أنواع الانحراف، قال تعالى: { الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}(التوبة:97)، وقال تعالى:{ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}(التوبة:98)

قال: ولكن حكمة القرآن الكريم تأبى أخذ البرئ بذنب الجاني، فقد أثنى الله على الأعراب ثناء عظيما، فقال تعالى:{ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (التوبة:99)

قلت: فأنت تقول إذن بأن الزهاد كأهل الكتاب والأعراب منهم المحسن، ومنهم المسيء.

قال: نحن لا نتحدث عن هذا الآن، فذلك موضوع آخر.. نحن نريد هنا تبيين دور الزهد بمعناه الصحيح في تربية النفس على القناعة، وفي ملأ الفراغ الذي ينشئه الطمع، وفي قتل الفقر الذي يجر صاحبه إلى الكفر.

قلت: ولكن الحكماء من قومي يقصرون الزهد على الأغنياء، ففيم يزهد الفقير!؟

قال: الزهد مقام من مقامات الدين، وخلق من أخلاق المرسلين، ووصف من أوصاف الأولياء والصالحين، لا يحرم منه مؤمن لفقره، ولا يبعد عنه لغناه.

قلت: كيف ذلك، فالفقير ليس لديه ما يزهد فيه،

وقد قيل لبعض الصالحين: يا زاهد، فقال:(الزاهد عمـر بن عبد العزيز، إذ جاءته الـدنيا راغمـة فتركهـا، وأمـا أنـا ففيماذا زهدت)

قال: ما كان له أن يقول غير ذلك، وإلا لكان مدعيا.

قلت: إن قومي يفهمون من قوله هـذا قصـر الزهـد على الكبراء.

قال: أصابوا وأخطأوا.

قلت: هــذا تنــاقض.. أو بين لي فيم أصــابوا، وفيم أخطأوا؟

قال: أصابوا في كون الزهد لا يظهر ولا يكمل معنـاه إلا في الأغنياء، وأخطأوا في حصره فيهم، ففرق بين أن يكمل فيك الشيء، وبين أن يكون فيك أصله.

قلت: اضرب لي على ذلك مثالا.

قال: أرأيت لو كان في بيتك مائـة صـرة من الـذهب الخالص، ولم يسمع بها أحد، أكنت بهـا غنيـا لا تحـل لـك الزكاة.

قلت: أجل، لأني أستطيع صرفها في أي لحظة.

قــال: ولكن النــاس بســبب عــدم رؤيتهم لهــا قــد يعتبرونك فقيرا.

قلت: ذلك أرحم لي، ولا يضرني ما اعتقدوا.

قال: فإن أظهرتها بما اشتريت من المتاع.

قلت: خرجت من وصف الفقر إلى وصف الغنى.

قال: في نظرهم، أم في حقيقة الحال؟

قلت: في نظــرهم، لأني كنت غنيــا قبــل نظــرهم، بدليل عدم حل الزكاة لي.

قال: فكذلك الزهد.

قلت: فما وجه المقارنة؟

قال: أي سلوك أو مقام من مقامات الـدين لا ينفـك عن ثلاثة أمور: العلم والحـال والعمـل، فـالعلم دافعهـا، والحال حقيقتها، والعمل مظهرها وثمرتها.

قلت: اضرب لي مثالا على ذلك من الحس، فـإني لا أكاد أفهم المعاني المجردة.

قال: أرأيت لو قـربت إلى نـار لتحـرق بلظاهـا، مـاذا كنت ستفعل؟

قلت: أصيح وأولول، وأدفع بجهدي كلـه من يريـد أن يلقيني فيها.

قال: فهذا العمل، أتعلم أنه لم يكن ليحصل منـك مـا حصل لولا العلم والحال.

قلت: كيف؟

قال: علمك بأن النار محرقة ملأ نفسـك رعبـا منهـا، وذلك الرعب جر إلى ذلك الصياح الذي وقعت فيه.

قلت: فهمت الآن، ولكن ما علاقة ذلك بزهد الفقراء والأغنياء.

قال: أرأيت لو أن ذلك العـدو الـذي أراد إلقـاءك في النار لم يفعل، أو لم يوجد، أتقول بأن حـال الخـوف من النار لا يوجد فيك؟

قلت: لا، بدليل أني لو تعرضت في أي لحظـة لـذلك لأبديت نفس السلوك.

قال: فكذلك الزهد، فهو في الفقير قوة كامنة، وفي الغني قوة ظاهرة.

قلت: ولـذلك إذن نهـاهم ذلـك الصـالح عن تلقيبـه بالزاهد خشية أن يلقبوا به كل فقير.

قال: نعم.. فقد يكون الفقير أحـرص على الـدنيا من الغني، ولكنه يستر حرصه بإظهار الزهد.

قلت: فبين لي سـر الزهـد وحقيقتـه، فقـد شـوقتني إليه.

قال: لقد عرفنا عند الحديث عن القناعة أن الطـامع همه من حياته أن يملأ جوفه.

قلت: نعم بـدليل قولـه ﷺ:(لـو كـان لابن آدم واد لأحب أن يكـون لـه ثـان ولـو كـان لـه واديـان لأحب أن يكون إليهما ثالث ولا يملأ جـوف ابن آدم إلا الـتراب، ثم يتوب الله على من تاب)[1]

قـال: وذكرنـا بـأن الفـراغ الـذي يعانيـه الطـامع والحريص يجعله يطلب أشـياء كثـيرة لا حاجـة لـه إليهـا حرصا على ملأ فراغه.

قلت: نعم، وقد شبهته حينها بمن يريد أن يملأ حفـرة عميقـه، فوضـع فيهـا الـتراب، فلم يكـف، فوضـع فيهـا الحجارة، فلم تكف، فراح يضع المزابل والقمامات.

قال: فهذا هو الفرق بين الزاهد والحـريص، فالزاهـد لا يشعر بفراغ جوفه فلـذلك يملـؤه بـالقوت من الحلال من غير أن تتشتت عليه نفسه، وأمـا الحـريص، فيلجئـه ذلك إلى كل باب، ولو إلى قمامات الناس ومزابلهم.

قلت: لكأني بالزهد هو عين الاقتصاد.

قال: لا.. الاقتصاد يتناول الكم، والزهد يتناول الأنواع.

قلت: كيف؟

---

1)) البخاري ومسلم والترمذي.

قال: المقتصد لا يسرف، والزاهد لا يرغب.

قلت: كيف لا يرغب، والرغبة فطرة.

قال: هو يرغب، ولكن رغبة الزاهد تختلف عن رغبة الحريص.

قلت: كيف ذلك؟

قال: الحريص يرغب في المتاع، والزاهد يرغب في متاع أعظم منه، ألم تسمع قوله تعالى:{ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ}(يوسف: 20)

قلت: نعم، هذه الآية تتحدث عن إخوة يوسف ﷷ الذين باعوه بثمن قليل لزهدهم فيه.

قال: أرأيت لو أن أصحاب تلك القافلة لم يعطوا شيئا لإخوة يوسف ﷷ، أكانوا سيبيعونه لهم؟

قلت: نعم، لأن غرضهم التخلص منه.

قال: فسماهم الله زاهدين.

قلت: نعم، لقد زهدوا في أخيهم، وفضلوا تلك الدراهم القليلة عليه.

قال: فكذلك الزاهد الذي تحقق بهذا المقام من مقامات الدين، فإنه يقارن بين ما ادخر الله له في الآخرة إن أرضى الله، وبين المتاع الدنيوي، فيرى عظمة ما ادخر بجانب ما يرى من متاع، فتنصرف نفسه إلى متاع الآخرة، زاهدا في متاع الدنيا.

قلت: أيسعد بذلك؟

قال: كل السعادة.. ولهذا عالجت الشريعة آلام الفقير بحضه على الزهد، أي ترك الرغبة فيما لم يؤت، وتوجيهها إلى الرغبة في الله وفيما في يد الله.

قلت: فالـذين يحرمـون الفقـير من الزهـد يسـيئون إليه.

قـال: كـل الإسـاءة.. لأنهم حرمـوه من التسـلي بمـا ادخر له عما لم يؤته.

قلت: فاضرب لي على ذلك مثالا.

قـــال: أرأيت إن كنت في ســـفر مـــع قافلـــة من القوافل، وكان في القافلة أمـير محسـن، فـوهب الكـل هبــات مختلفــة، ولكنــك كنت المحــروم الوحيــد في القافلة.. أكنت تحزن لذلك وتتأثر له؟

قلت: أجل.. خاصة إن فخروا علي بما أعطوا.

قال: وهل سيمتلئ قلبك حقدا على هـذا الـذي عمي بصره أن يراك، أو شحت خزائنه أن تصلك؟

قلت: أجــل.. بــل سأســأل نفســي كثـيرا عن علــة حرماني مع فيض خزائنه.

قــال: أرأيت إن اســتدعاك إلى جنابــه، ثم صــرف الحجاب، وأسر لك قائلا:(لقد ادخرت لك هدية عظيمــة تفوق كل الهدايا الـتي وهبتهـا لجميـع القافلـة، وهي من العظمة بحيث لا يمكن أن تأخذها هنا)، أتفرح لذلك؟

قلت: أجل، بل أقبل قدميه، ويمتلئ قلبي محبة له.

قــال: فــإن فخــر عليــك رجــال القافلــة بمــا أوتــوا، وضحكوا على حرمانك.

قلت: أضــحك عليهم في قلــبي، لأني أعلم أني قــد أعطيت أضعاف ما أعطوا بالإضافة إلى القــرب العظيم الذي نلته من أمير القافلة.

قال: فطبق هذا المثال على ما نحن فيـه، فاللـه قـد

أعطى كثيرا من الأغنياء من كل الأموال، فإن نظر الفقير إلى ما أعطوا حزن وتأسف، بل قد يؤديه ذلك إلى الكفر، لكنه إن نظر إلى ما ادخر الله له إن أطاعه، لا يلبث حتى ينال قسمته الموعودة.

قلت: لقد ذكرتني بحديث له علاقة بهذا، فقد روي في الحديث أن رَسُول اللَّهِ ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة(1)، وهم أصحاب الصفة حتى يقول الأعراب هؤلاء مجانين. فإذا صلى رَسُول اللَّهِ ﷺ انصرف إليهم فقال:(لو تعلمون ما لكم عند اللَّه تعالى لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة) (2)

ثم التفت إلى نفسي، فإذا بالاعتراض لا يزال مستقرا لم أستطع قلعه، فقلت: ولكن القافلة في سفر قصير.

قال: والدنيا سفر، وهي أقصر مما تصور، ألم تسمع قول الحق تعالى:{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}(يونس:45)

قلت: بل قد نص على هذا آيات من القرآن الكريم، قال تعالى:{ َاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} (الاحقاف:35)، وقال تعالى:{ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}(النازعات:46)

قال: بل نطق بهذا رسول الله ﷺ، فعن عبد اللَّه بن مسعود قال: نام رَسُول اللَّهِ ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه. قلنا: يا رَسُول اللَّهِ لو اتخذنا لك وطاء.

---

1)) الفاقة والجوع الشديد.

2)) التِّرمِذِيُّ وقال حديث صحيح.

فقـال:(مـا لي وللـدنيا! مـا أنـا في الـدنيا إلا كـراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)[1]

قال: فهذه الحقيقـة العظيمـة الـتي نطقت بهـا هـذه النصـوص أعظم سـلوى للفقـير، وأعظم دافـع لـه على ترك الرغبة فيمـا لم يـؤت ليتحقـق بالزهـد، ولينـال عن طريقه ما ادخر له من الفضل.

قلت: لقـد ذكرتـني بقـول لأبي يزيـد، قالـه لأبى موسى عبد الـرحيم، قـال لـه:(فى أى شـىء تتكلم؟)، قال:(فى الزهـد)، قـال:(فى أى شـىء؟)، قـال:(فى الدنيا)، فنفض يده وقال:(ظننت أنـه يتكلم فى شـىء، والدنيا لا شىء، إيش يزهد فيها)

ثم التفت إلى المعلم، وقلت: فقـد حببت لي الزهـد وعظمته، فما السبيل إليه؟

قال: بأن تعلم الجوائز الـتي ينالهـا الزاهـد في الـدنيا قبل الآخرة.

قلت: أينال الزاهد جوائزه في الدنيا أيضا؟

قال: بالإضافة إلى ما ادخر له في الآخرة.

قلت: إن هـذا سـيجعل قـومي يقبلـون عليـه، ويتنفاسـون في تحصـيله، فـإني أعلم مـدى رغبتهم في الجوائز وحرصهم عليها.. فما هذه الجوائز؟

قال: أربع: الهمـة، والكمـال، والعـزة، والراحـة، كـل جائزة منها بالدنيا وما فيها.

الهمة:

قلت: فما الجائزة الأولى؟

قال: جائزة الهمة العالية التي يتحقق بها الزاهد.

1)) التِّرمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح.

قلت: لم أفهم.

قال: أرأيت من كان أمله في مستقبل حياته أن يكون حمالا أو حطابا، أيتساوى مع من همته أن يصير وزيرا أو ملكا أو استاذا كبيرا وعالما خطيرا.

قلت: بل همة الثاني أعلى.. ولكن أنى له أن يتحقق بما يحلم به.

قال: أرأيت إن وجدت من يوفر لك دواعي الهمة الثانية، وييسر لك سبيلها، ألا يكون بذلك قد قد كافأك؟

قلت: أعظم مكافأة، بل يكون قد قدم لي الخدمة التي تحولني إنسانا آخر، ففرق كبير بين أن أجمع الحطب للناس أو أحمل متاعهم، وبين أن أنال تلك المناصب الرفيعة.

قال: فإن الله تعالى وفر للفقير الذي يهزأ الناس من فقره، أو يرحموه لفقره من الفرص ما يلتحق به مع أصحاب الهمم العالية لينال ما نالوه.

قلت: كيف؟

قال: أليست الهمة العالية هي طلب المعالي والترفع عن السفاسف؟

قلت: بلى.

قال: فإن الزهد في الدنيا لا يتحقق به إلا أصحاب الهمم العالية.

قلت: كيف يكون ذلك، ولا أرى أحدهم يحلم بأن يصير وزيرا أو ملكا؟

قال: بلى، هو يحلم بذلك، بل يحلم بما هو أرفع من ذلك.

قلت: فهو راغب إذن لا فرق بينه وبين الحريص.

قـــال: هـــو راغب ولكن رغبتـــه ليس في الأحمـــال والحطب، وليس في الوزارة أو الملك، وإنمـا في أمـور أخطر وأعظم.

قلت: فيم يرغب، ما دام لم يـرغب في هـذه الأمـور التي يرغب فيها الناس؟

قـــال: الزهـــاد نوعـــان: منهم من يـــرغب في اللـــه ويكتفي به، ومن وجـد اللـه لم يفقـد شـيئا.. ومنهم من يرغب في متاع لا يتحول، وزاد لا يتطـرق إليـه الفسـاد، نظر إلى الدنيا، فأنفها وطلب دارا أجمل منها وأكمل.

قلت: أتقصد الدار الآخرة، والجنة.

قال: نعم.. فإن الزهـاد قـارنوا بين هـذه الـدار وتلـك الدار، وعلموا أن حرصـهم على هـذه الـدار قـد يبعـدهم عن تلـك الـدار، فملأوا همتهم بتلـك الـدار، وزهـدوا في هذه الدار.

قلت: لكأني بالقرآن الكريم يحث على الزهد.

قال: بل يحث على أصل أصول الزهـد، وهـو الاطلاع على حقيقة الدنيا، ومقارنتها بالدار التي لا تبيد، والملـــك الذي لا يفنى.

قلت، وكـأني أتـذكر شـيئا كنت أعلمـه، ولكـني كنت أجهله: بلى يا معلم لكأني أول مـرة أسـمع الحـق، وهـو يقول:{ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْـدَ اللَّهِ بَـاقٍ وَلَنَجْـزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}(النحل:96)

قـــال: نعم، فقـــد كنت تقـــرأ هـــذه الآيـــة، ولم تكن تسمعها، فالله تعالى يرغبك في الآخـرة ببقائهـا، ويزهـد في الـدنيا بفنائهـا، ودينـار دائم تملكـه خـير من عشـرة آلاف ما تستقر في يدك حتى تخرج منها.

قلت: بل إن الله تعالى لا يصـف متـاع الـدنيا بالنفـاد

فقط، بل يصفه بالقلة، فمتاع الدنيا أقل من متاع الآخرة، قال تعالى:{ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى}(النساء: 77)

قال: وفي هذه الآية أعظم الرد على من يصفون الزهد بالسلبية، ويصفون الزاهد بالكسل.

قلت: كيف؟

قال: ألم يقل الله تعالى في هذه الآية:{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}(النساء:77)

قلت: نعم، فالله تعالى يخبر عن علة كسل المتقاعدين وسلبيتهم.

قال: ولا سبب لذلك يذكره إلا حرصهم على الدنيا ورغبتهم في البقاء فيها، فلذلك أخبرهم أن متاع الدنيا قليل يستحق أن يرغب عنه، ومتاع الآخرة عظيم يستحق أن يرغب فيه.

قلت: ولهذا يعاتب الله تعالى من آثر الحياة الدنيا على الآخرة، ويبين له مبلغ الغبن الذي وقع فيه، قال تعالى:{ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}(الأعلى:17)

قال: ذلك أن الإنسان يحب الخير ودوام الخير، ولذلك أخبره تعالى بأن هذين الوصفين لا يتحققان بكمالهما إلا في الدار الآخرة.

قلت: أجل، وقد ورد ذلك في مواضع من القرآن الكريم، قال تعالى:{ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ

خَيْرٌ وَأَبْقَى}(طـه:131)

قـال: هـذه الآيـة تحض الأمـة عن طريـق رسـولها بالزهـد حـتى لا يغـرهم المتـاع الموجـود عن المتـاع المدخر.

قلت: وقـال تعـالى:{ وَمَـا أُوتِيتُمْ مِنْ شَـيْءٍ فَمَتَـاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ} (القصص:60)

قال: وفيها ترغيب أعظم، فالله تعالى يصـف مـا في الدنيا من الزخارف بكونه مجرد متاع للحياة الدنيا، وهي الحياة البسيطة الحقيرة، ثم يختم ذلك بالـدعوة للتأمـل والتفكر، فمن الغبن أن يباع الغالي بـالرخيص، والزهيـد بالنفيس.

قلت: وقـال تعـالى:{ فَمَـا أُوتِيتُمْ مِنْ شَـيْءٍ فَمَتَـاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَـا عِنْـدَ اللَّهِ خَيْـرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُـوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}(الشورى:36)

قال: بين لهم تعالى في هذه الآية وصفا من أوصاف الزاهدين، وهو الإيمان والتوكل، فليس كـل جـائع زاهـد، بل الزاهد من زهد بالله ولله.

قلت: ولهذا قال تعالى حاكيا عن سحرة فرعون بعـد أن لاقوا لذة معرفة الله:{ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَـا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}(طـه:73)

قال: لقد أشاروا إلى أعظم الزهد، وهـو الرغبـة في الله، وهو زهد المقربين الذين انشـغلوا بـالنظر للـه عن النظر لكل شيء.

قلت: فهلا تضرب لي أمثالا على هذه المعاني أنقلهـا لقومي، فالأمثال جند من جند اللـه يصـل بالمعـاني إلى خزانة الخيال ليضعها في العقول والقلوب.

قال: إن القرآن الكريم كفانا ضرب هذه الأمثلة، فهو يقرب صور هذه الحقائق بالأمثال العظيمة، قال تعـالى: { إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَـطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُـلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَـامُ حَتَّى إِذَا أَخَـذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَـا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَـا أَنَّهُمْ قَـادِرُونَ عَلَيْهَـا أَتَاهَـا أَمْرُنَـا لَيْلاً أَوْ نَهَـاراً فَجَعَلْنَاهَـا حَصِـيداً كَـأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}(يونس:24)، وقال:{ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا كَمَـاءٍ أَنْزَلْنَـاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَـطَ بِـهِ نَبَـاتُ الْأَرْضِ فَأَصْـبَحَ هَشِـيماً تَـذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً}(الكهف:45)

قلت: فهلا تقرب لي هذه الأمثلة وتصورها لي؟

قال: لا يوجد ما هو أعظم من تصوير القرآن الكـريم للحقائق.

قلت: ولكن الحقـائق تحتـاج أحيانـا لتفسـيرها، فمن النــاس من لا يطيــق تفهم الحقــائق لكثافتــه وغلاظــة طبعه، ولا أنكر أني مبتلى ببعض هذا الطبع.

قال: أخرجت إلى الحقول في الربيع الجميل؟

قلت: وكيـف لا أخـرج، وهـل الـدنيا إلا جمـال الربيـع وزهر الربيع ونسائم الربيع.

قــال: فهــل رأيت الأزهــار المتفتحــة، والأعشــاب النظرة..؟

قلت: والجمــال المتــدفق الحي الــذي يشــرق من الجبال والوهـاد، وكـأن الـدنيا كلهـا تبتسـم.. بـل ترسـل ضحكات عريضة.

قــال: فهـل مـررت بـه في الصـيف عنـدما ترسـل الشمس لهيبها؟

قلت: عنـدها يتحـول الحي ميتـا، والجمـال دمامـة،

وتنقلب الابتسامة الجميلة آهات وأحزانا.

قال: فهذه هي الدنيا.. أيام معـدودة من الابتسـامة.. ثم يعقبها صيف الألم وخريف الأحزان.

قلت: والآخرة؟

قال: الآخرة ربيع دائم، فهل تسـتبدل الربيـع الـذي لا يستمر إلا أياما معدودة بالربيع الـذي لا تفنيـه الأيـام، ولا تبلي ثيابه السنون.

قلت: فهمت المثال.. لكأني بنا قد غرقنا في نسـائم زهرة من زهرات هذا الربيع الفاني، واستبدلنا بهـا ربيـع الأزل.

قـال: بـل أنتم فعلتم أخطـر من ذلـك.. بعتم اللـه بالعـدم، وبعتم الجنـة بالمسـتنقعات.. وبعتم السـعادة بالأحزان..

قلت: فما المخرج؟

قال: الزهد..

قلت: تقصد رفع الهمة عن الدنيا..

قـال: إن اسـتطعتم أن ترفعـوا الهمـة عن الأكـوان جميعا، وتكتفوا بالله.. فسـتنالون من يديـه مـا لا يخطـر لكم على بال.. وما لا تستطيع أحلامكم أن تفكر فيه.

الكمال:

قال لي المعلم، وقد رآني مستغرقا فيما قـال: هـاك الجائزة الثانية التي أنعم الله بها على الزهاد.

مددت يدي، وقلت: هاتها.

ابتسم، وقال: امدد يـد بصـيرتك، فمـا تمتـد إليـه يـد جارحتك ينفد.

قلت: تعودنا ألا نعرف المدد إلا في اليد.

قال: ولذلك تنكرون الزهد، وتنكـرون فيوضـات اللـه وأمداده على عباده الزاهدين الذين اصـطفاهم بالكمـال حين رفعوا هممهم إليه وإلى ما عنده.

قلت: فأنا في انتظار جائزة الكمال، فما هي؟

قـال: إن قومـك في مجالسـهم يمـيزون بين الكبـار والصغار، فيجعلون لكل منهم محله الخاص به.

قلت: نعم، فللكبــار كراســيهم الــتي تتناســب مــع طـولهم وعرضـهم، بينمـا الصـغار لا تتناسـب معهم إلا الكراسي الصغيرة لصغر أحجامهم.

قال: أنا لا اتحدث عن صغار السـن، بـل عن الصـغار المحتقرين المستضعفين.

قلت: وأنــا لا أتحــدث إلا عنهم، فــإنهم في منطــق الكـبراء، أو نتيجـة للهـزال الـذي عرضـهم لـه الكـبراء صارت كراسيهم لا تختلف عن كراسي الصغار.

قـــال: ففي أي المجـــالس تحب أن تجلس أنت، أو يحب أن يجلس قومك؟

قلت: إن أردت الصراحة، فإنه لا أحـد من النـاس إلا ويحلم بالجلوس على تلك الكراسي الوثـيرة، والركـوب في تلك المـراكب الفارهـة، والـنزول في تلـك الفنـادق الفخمة ذوات النجوم الكثيرة.

قال: فأنت إذن تحب مصاحبة الكبار..

قلت: لست وحـدي في ذلـك، بـل كـل قـومي.. بـل أحسب ذلك طبيعة إنسانية.

قـال: نعم هي طبيعـة إنسـانية.. بـل طبيعـة كونيـة، فالكمال محبوب بالطبع.

قلت: فما علاقة هذا بهذه الجائزة؟

قال: الزهد هو الطريق الوحيد الذي يضعك مع الكبار، ويجلسك مجالسهم، وينزلك فنادقهم.

قلت: كيف؟ فالزهد يمنعني من مجرد الرغبة، والتفكير في ذلك.

قال: يمنعك من التلطخ، ولا يمنعك من التمتع.

قلت: اشرح لي.. أو بالأحرى مثل لي لما تقول.. فإني لا أطيق التجريد.

قال: سأضرب لك مثلا من القرآن الكريم، ضربه الله تعالى لمواقف الناس من الكبراء الذين كنت تحلم بالقعود معهم، بينما هم لا يساوون شيئا، لأن ضخامتهم مجرد انتفاخ سرعان ما تعبث به رياح الزمان.

قلت: أفي القرآن الكريم الحديث عن هذا؟.. لقد قرأته وحفظته وقلبت الطرف في تفاسيره، فلم أجد مثل هذا.

قال: لعلك قرأته ولم تسمعه، ففي القرآن الكريم كل العلوم وكل حقائق الكون، ولكن لمن سمعه لا لمن قرأه.

قلت: فما هو هذا المثال؟

قال: قارون، فقد جعله الله مثالا على هؤلاء الكبراء الذين صرفوا الناس عن الزهد، فملأوا قلوب الفقراء رغبة في الدنيا، فأراد الله أن يبين لهم ما ينتظر ذلك الحرص والرغبة من جزاء.

قلت: لقد قال الله تعالى في شأنه:{ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ } (القصص: 76)

قال: فماذا قال له الكمل من قومه من الذين آتـاهم الله العلم والزهد؟

قلت: لقد قالوا له ـ كمـا نص القـرآن الكـريم ــ:{ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَـا آتَـاكَ اللَّهُ الـدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْـــكَ وَلا تَبْـــغِ الْفَسَـــادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} (القصص:76 ـ77)

قال: فقد نصحوه بالزهد فيما آتاه الله.

قلت: ولكنهم لم يحرمـوا عليـه التمتـع بمـا أوتي من الكنوز، فقد قالوا له:{ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا }

قال: ولكنهم حرموا عليه التلطخ بتلـك الكنـوز، وقـد قلنا:إن فرقا كبيرا بينهما.

قلت: كيف؟

قال: التلطخ أن تملأ الدنيا قلبـك فتشـغلك عن اللـه، وعن توظيف نعم الله فيما أمر الله.

قلت: وهو مـا نصـح بـه هـؤلاء قـارون فقـد نصـحوه بالإحسان بما تفضل الله عليه.

قال: عندما خرج قارون في زينته تجلى موقفان من مواقف الناس، هي في الحقيقة مواقـف البشـر جميعـا من الرغبة والزهد.

قلت: نعم، موقــف الــذين يريــدون الحيــاة الــدنيا، وموقف الذين أوتوا العلم.

قال: فما حكى القرآن الكريم عنهما؟

قلت: أما موقف الفئة الأولى، فقـد نص عليـه قولـه تعالى:{ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِـهِ قَـالَ الَّذِينَ يُرِيـدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَـا أُوتِيَ قَـارُونُ إِنَّهُ لَـذُو حَـظٍّ

عَظِيمٍ}(القصص:79)، فقد اعتبروا قارون صاحب حـظ عظيم، فحسدوه على ما أوتي، وتمنوا أن يكون له مثل ما أوتي.

قال: وما هو موقف الذين أوتوا العلم؟

قلت: ما نصه علينا القرآن الكريم كذلك، وهـو قولـه تعـالى:{ وَقَـالَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَـوَابُ اللَّهِ خَيْـرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِـــلَ صَـــالِحاً وَلا يُلَقَّاهَـــا إِلَّا الصَّـــابِرُونَ} (القصص:80)

قال: فما كانت نهايـة الحـرص والرغبـة الممثلـة في قارون؟

قلت: هو مـا قصـه القـرآن الكـريم علينـا أيضـا حين قال:{ فَخَسَـفْنَا بِـهِ وَبِـدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَـا كَـانَ لَـهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُـــرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَـــا كَـــانَ مِنَ الْمُنْتَصِـــرِينَ} (القصص:81)

قـــال: فمن كســـب الرهـــان من الحريصـــين أو من الزاهدين، ومن كان الحق معه؟ ومن تحقق بالكمال؟

قلت: هو ما قصه علينا القـرآن الكـريم أيضـا، قـال تعالى:{ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَـأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَـوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} (القصص: 82)

قال: فالمفلح من؟.. هل الزاهدون أم الحريصون؟

قلت: الزاهدون، بل إن الحريصين حمـدوا اللـه على أنهم لم يؤتوا مثل ما أوتي قارون لئلا يحـل بهم مـا حـل به.

قـال: فلمـاذا يصـر قومـك على أن يلتحقـوا بالعـالم الأول، وهم يعلمون حقيقته الـتي لا تختلـف عن حقيقـة

قارون، بل هم يرددون ما ردد قارون:{ إِنَّمَا أُوتِيتُـهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي }(القصص: 78)

قلت: لأنهم يعتقدون أن الأولية والكمال في ذلك؟

قال: أو لم يعلمـوا:{ أَنَّ اللَّهَ قَـدْ أَهْلَـكَ مِنْ قَبْلِـهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً }(القصـص: 78)؟

قلت: ولكن مطالبهم الدنيوية تتطلب منهم ذلك.

قـال: لا، بـل الحـرص الكـاذب الـذي يمليـه فـراغ أجـوافهم هـو الـذي يطلب منهم ذلـك، فالكمـال في الحقيقة لا في المظاهر، وفي الصدق لا في الزور.

قلت: فقـد ذكـرت لي مثـالا من أمثلـة الكمـال في الزهـد، ولكن قـومي قـد لا يفهمونـه حـق الفهم، أو قـد يؤولونه، فما أسهل تأويل النصـوص وإلباسـها أي لبـاس يشاءون.

قال: ولكن النص واضح.

قلت: ولكنهم لن يقـــرؤوه ولن يفســـروه، بـــل سيكتفون منه بعبارة يجعلونها هي المحكم الوحيـد فيـه، وما عداه متشابه.

قال: فما هذه العبارة التي نالت هذا الفضـل عنـدهم دون من عداها؟

قلت: قولــه تعــالى:{ وَلا تَنْسَ نَصِــيبَكَ مِنَ الــدُّنْيَا }(القصص: 77)

قال: ويفعلون ذلك؟

قلت: بل فعلوه، فإن هذه العبـارة القرآنيـة أصـبحت مثلا دارجا يردده العامة والخاصة، وكأن القـرآن الكـريم جميعا اختصر فيها.

قال: فقد وقعتم فيما وقع فيه أهل الكتاب من التحريف، فقد قال تعالى في شأنهم:{ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْض}(البقرة: 85)،

قلت: ولهذا أمر تعالى رسوله ﷺ أن يحكم المؤمنين بجميع ما أنزل عليه، قال تعالى:{ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ }(المائدة: 49)

قال: فهلا اطلعوا على سنن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وكيف كانت حياتهم مليئة بمواقف الزهد فيما في أيدي الناس، والرغبة فيما في يد الله.

قلت: هم يتخيرون من مواقفهم ما يخدمون به آراءهم، فلن يعجزهم ذلك، وقد قال تعالى في أهل الكتاب: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً}(النساء:150)، فهم يؤمنون ببعض المواقف ويكفرون ببعض.

قال: أوصلت بهم الجرأة إلى الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ

قلت: لقد سمعت بعضهم يتحدث عن حب رسول الله ﷺ للحم والحلواء وأنواع المآكل الفاخرة ما يجعلك تتصور أن السنة في ارتياد المطاعم الفاخرة لإحياء سنة أكل اللحم والحلواء.

قال: ألم يقرؤوا النصوص الواردة في مصادركم الصحيحة؟

قلت: فرق ـ يا معلمي ـ بين أن تقرأ وأن تسمع ألم تقل لي ذلك دائما.

العزة:

قال: أراك اقتنعت بما قلت.

قلت: أجل.. وبـورك فيـك.. فهـات الجـائزة الثالثـة.. جائزة العزة.

قــال: أرأيت إن قــرب لــك طعــام لذيــذ، ثم رأيت الذباب متساقطا عليه متهافتـا على أكلـه، فهـو لا يبـالي في سبيله أن تذبه أو تقلته، أكانت نفسك تشتهيه؟

قلت: لكأني بك تريد ما قال الشاعر:

إذا لم أتــرك المــاء اتقـــــــــــــــــــاء ... تـــــركت لكــــــثرة الشـــــــــــــــركاء فيه

إذا وقع الذباب على طعـــــــــــــــــــام ... رفعت يدي ونفســي تشـــــــــــــــتهيه

وتجتنب الأســــــود ورود مـــــــــــــــاء ... إذا كان الكلاب يلغن فيه

قــال: هــو مــا أريــده بالضــبط، فقــد علمت غرامــك بالشعر.

قلت: وكيف لي أن أشارك الذباب طعامهم، فإنه إن لم يكن ذلــك مضــرا بالصــحة، فــإن النفس تعافــه بالضرورة.

قــال: فكــذلك الزهــد، فالزاهــد يــأنف من مشــاركة الذباب، وقد قيل لبعضهم: ما الـذي زهـدك في الـدنيا؟، فقال:(قلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها)

قلت: ولكن الدنيا لا يملكها الذباب.

قال: ولكن يملكها اللاهثون وراء السراب.

قلت: فهناك فرق بينهما.

قال: لا فرق بينهما، ولهذا ساوى الله تعالى بين الذباب والبشر في الضعف، فقال تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}(الحج:73)

قلت: صدقت، فكلاهما ضعيف الطالب والمطلوب.

قال: وأزيدك مثالا يجعلك ترى عالم الذباب بين يديك وملء بصرك.

قلت: هات.

قال: ذلك الطعام اللذيذ الذي قدم لك.

قلت: أتقصد ذلك الذي تهافت عليه الذباب؟

قال: أجل.. لماذا تهافت عليه؟

قلت: لأنه طعام دسم غني بما يشتهيه الذباب من المطاعم.

قال: فكذلك هؤلاء الذين امتلأت نفوسهم رغبة في الدنيا يسلط الله عليهم الذباب ليمتص رحيقهم.

قلت: ولكن قومي اخترعوا أنواع المبيدات.

قال: تلك لا تبيد هذا النوع من الذباب، فإنه ذباب له من الحذق ما لا يستطيع أحد ذبه أو قتله.

قلت: فهمت قصدك.. تعني الأصدقاء المحيطين بهؤلاء الراغبين ينافقونهم ويخادعونهم ليمتصوا بعض ما يمتصه الذباب من مآكل.

قال: نعم، فقد صدق الشاعر في كل ما قال.

قلت: أول مرة أسمعك تصدق فيها شاعرا.

قال: ألم تسمع بقوله ﷺ:(إن من الشعر حكما)(1)

قلت: بلى، سمعت، وقد قال أبو تمام:

ولولا خِلالٌ سَنَّها الشِّعْرُما درى بناةُ المعالي كيفَ تُبْنى المكارمُ

قال: ولكن.. لا كل الشعراء أقصد.

قلت: أجل، فـ:

الشعراءُ فاعلــمـنَّ أربـعةْ فشاعرٌ يجري ولا يُجـرى معهْ

وشاعـرٌ ينشدُ وسـطَ المعمعهْ وشاعرٌ مـن حَقِّه أن تَسْـمَعَهْ

وشاعرٌ من حَقِّهِ أن تَصْــفَعَهْ

قال: فاترك الشعر، وعد بنا إلى جائزة العزة.

قلت: فهمت.. فإن العزة تاج فـوق رؤوس الزهـاد لا يراه الراغبون.

قال: والقرآن الكريم يدل على ذلك.

قلت: أفي القرآن الكريم هذا؟

قال: أجل، فلنعـد إلى قصـة قـارون، مـا هـو موقـف الرغبين في الدنيا عندما رأوه؟

قلت: لقد سال لعابهم، وهم يـرون مراكبـه الفـاخرة وزينته التي خرج بها، كما قال تعالى:{ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَـا لَيْتَ لَنَـا مِثْـلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ }(القصص:79)

---

1)) الترمذي، وقال: حسن صحيح، وابن ماجة.

قال: ولماذا خرج في زينته ما دام قومه سيحسـدونه هذا الحسد؟

قلت: بل خرج لأجل أن يحسدوه، فهو يكـاد يشـمت بهم بخروجه.

قال: وفي ذلـك الحين الـذي يـراهم فيـه مشـدوهين نحو طلعته ومراكبه وزينته، ماذا كان يتصورهم؟

قلت: يراهم كالذباب المتهافت حول الطعام.

قال: هم أذلاء إذن؟

قلت: بـل أذل من الـذباب، لأن الـذباب إن تهـافت حـول الطعـام نـال منـه، وهـؤلاء لا ينـالون إلا الحسـرة والألم.

قال: ولو أن هؤلاء لم يلتفتـوا إلى زينـة قـارون، ولم يأبهوا له، ولم يعيروهم نظراتهم، أكـان يهتم بمثـل هـذه الزينة، ويخرج بهذا الكبر.

قلت: لا أظنـه سـيفعل، فمـا الفائـدة الـتي يجنيهـا بخروجه بكل تلك الزخارف، بـل سـيخرج كمـا سـيخرج سائر الناس؟

قـال: أفلا تـرى أنهم بـذلك الموقـف الـذليل الـذي وقفوه جذروا في نفسه كبرياءه، وجـذروا في نفوسـهم الذلة؟

قلت: أجل، وقد أشار القـرآن الكـريم إلى هـذا حين قال تعالى:{ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَـاعُوهُ إِنَّهُمْ كَـانُوا قَوْمـاً فَاسِقِينَ}(الزخرف:54)

قال: أفكان فرعـون يجـرؤ على أن يقـول:{ يَـا أَيُّهَـا الْمَلَأُ مَـا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرِي}(القصـص: 38)، ويقـول:{ أَنَـا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} (النازعـات: 24) لـولا قلـة عقول قومه وتهافتهم بين يديه كتهافت الفراش؟

قلت: لا، فالذلة هي المحل الذي يمكن للكبراء، ولـو أن الناس أروا من أنفسهم عزة لمـا تجـرأ عليهم أحـد.. فالزهد إذن هو ما يقي المؤمنين من مهاوي الذلة الـتي يوقعهم فيها الحكام.

قال: ليس الحكام فقط، فقد كـان قـارون غنيـا، ولم يكن حاكما.

قلت: الحكام وأشباه الحكام.

قال: ألا تقولون بأن العبرة بالخاتمة؟

قلت: ونقول بأن الناجح من يضحك أخيرا.

قال: فمن كان أعز الناس في قصة قارون؟

قلت: كانت لقـارون بعض العـزة عنـدما خـرج بتلـك الزينة.

قال: فما خاتمتها؟

قلت: ما نص عليه القرآن الكـريم بقولـه:{ فَخَسَـفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَـانَ لَـهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُـرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ}(القصص:81)

قال: فنهايته إذن الذل المحض، بل الهلاك الـذي هـو فوق الذل.

قلت: نعم.

قال: فمن كان أعز الناس إذن؟

قلت: الذين أوتوا العلم، فقد قال تعالى في شـأنهم: { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْـرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} (القصص:80)

قال: وهل كانوا حينها أعز من قارون؟

قلت: أجل، لأن عزتـه بمراكبـه، وعـزتهم بمـا أتـاهم

الله من العلم.

قال: وهل جرهم علمهم إلى الدنيا أم زهدهم فيها؟

قلت: بل زهدهم فيها.

قال: ولو جرهم إلى الدنيا، وإلى أبـواب قـارون هـل سيتحلون بالعزة التي تحلوا بها؟

قلت: لا.

قال: فعزتهم إذن ليس بعلومهم.

قلت: بم إذن؟

قال: بزهدهم، فالزهد باب العزة.

قلت: في النفس من كلامك شيء.

قال: ألم تسمع قوله تعالى:{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}(لأعراف:176)

قلت: بلى، فهذه قصة بلعم بن باعوراء، وقد ذكر المفسرون أنه (كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي اللّه موسى ﵇ إلى ملك مدين يدعوه إلى اللّه فأقطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى ﵇)[1]

قال: دعك من القصص، واعتبر بالقصة كما وردت في القرآن الكريم، فهي ليست قصة بلعم وحده، بل قصة آلاف وعشرات آلاف البلاعم.

قلت: ماذا تريد أن تقول؟

---

1)) هذا قول مالك بن دينار.

قال: ما الذي جعل هذا الذي آتـاه اللـه العلم ينسـلخ عن علمه؟

قلت: هـو مـا ذكـره القـرآن الكـريم من إخلاده إلى الأرض وسكونه إليها.

قال: فلو أنه لم يخلـد إلى الأرض ولم يسـكن إليهـا، ولم تشتد رغبته فيها، ما هي الجائزة التي كان سينالها؟

قلت: الرفعة والعزة، كما ذكر القـرآن الكـريم، قـال تعالى:{ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـاهُ بِهَـا ﴾، ولكنـه بسـبب خلـوده إلى الأرض صار ذليلا كالكلب { إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾

قال: أتدري لما شبهه الله بالكلب؟

قلت: نعم، فـهـو لـفرط اتباعه الهـوى وتعلقـه بعـالم المادة انتابته حالـة من التعطش الشـديد غـير المحـدود وراء لـذائذ الـدنـيـا، وكل ذلك لم يكن لحاجة ، بل لحالة مرضـية ، فهـو كـالكلب المسـعور الـذي يظهـر بحالـة عـطش كاذب لا يمكن إرواؤها، وهي حالة العبيـد الـذين لا يهمهم غير جمع المال واكتناز الثروة فلا يحسون معه بشبع ابدا.

قـال: فأيهمـا أرفـع شـأنا العـالم الزاهـد، أم العـالم الراغب؟

قلت: بل الزاهد.

قال: لماذا؟

قلت: لينال من العزة ما لا يظفر به الراغب.

قال: ليس هذا فحسب، بل إن الرغبة والحرص على الدنيا وترك الزهد فيها هي السـبب فيمـا حـاق بالأديـان من أنواع التحريف.

قلت: هذه دعوى خطيرة، فهل لها من بينات تقوم عليها؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى:{ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ}(لأعراف: 169)

قلت: بلى، فما في الآية مما تدعيه؟

قال: لقد ذكر تعالى تمسكهم بالدنيا، وأخذهم بالمتاع الأدنى، فبماذا عاتبهم الله تعالى بعد ذلك؟

قلت: عاتبهم على أنهم لم يوفوا بالميثاق الذي أخذ عليهم.

قال: وما هو؟

قلت: ألا يقولوا على الله إلا الحق.

قال: فذلك يدل على أنهم لم يفعلوا ذلك.

قلت: نعم وإلا لما عاتبهم الله تعالى.

قال: فما الذي جرهم إلى ذلك؟

قلت: أول الآية وآخرها يشيران إلى أن علة ذلك هي الحرص على الدنيا، فقد قال تعالى في أول الآية: { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى }، وقال في آخرها:{ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ }

قال: فهذه الآية تدل على علة التحريف في دين الله.

قلت: نعم.

قال: أزيدك آية أخرى، ألم تسمع قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}(التوبة: 34)

قلت: أجل، فقد جمع الله في هذه الآية بين أكلهم أموال الناس بالباطل، وصدهم عن سبيل الله، وهو يشير إلى أن الحرص حول من هؤلاء الأحبار والرهبان إلى تجار بضاعتهم تحريف الكتاب بما يتناسب مع الأهواء.

قال: فانصح علماء قومك أن يحذورا من أبواب السلاطين، فإن العلم يذل عند أبوابهم.

قلت: ولكنهم ينصحونهم، وفي ذلك مصلحة الرعية.

قال: فانصحهم إذا ذهبوا أن يطهروا أرض قلوبهم من شوك الحرص، وحجارة الرغبة، لئلا ينبتوا الحصرم والعلقم.

قلت: ومن أنا حتى يسمعوا لي..!؟

قال: إن عليك إلا البلاغ..

قلت: ومن لي بأن يصلهم صوتي!؟

قال: ذلك لله، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

الراحة:

قلت: جزاك الله خيرا .. لقد اقتنعت بما قلت.

قال: فهلم لأخذ الجائزة الرابعة من جوائز الزهد.

قلت: لقد كفاني ما نلت من الجوائز، فلذلك لا تهمني المشاق التي أتحملها من أجل السعي لتحصيله.. خاصة بعد علمي بعلاقته الخطيرة بما حاق بالأديان من

تحريف.

قال: لن تتحمل أي مشقة في تحصيله، بل إن الزهاد أكثر الناس راحة.

قلت: كيف؟

قال: لأن الحرص هو الذي يجلب التعب لأصحابه، أما الزهد، فلا يجلب إلا الراحة.

قلت: لكأني بك تقصد قول الشاعر:

ليس بالزاهدِ في الدنيا امرؤٌ	يلبسُ الصوفَ ويهوى الرُقَعا
ظَنَّ دينَ اللّهِ في تَرْكِ الدُّنا	ورأى الإِعراضَ عنها أنْفعا
وهو لو جاءَتْهُ منها بَدْرَةٌ	طلقَ التقوى وعافَ الوَرَعا
فهو لا زُهْداً بها عنها نأىْ	لكنِ الجدُّ يذيبُ الأَضْلُعا
خافَ أن يسعى فيدمي رجلَه	فرأى الراحةَ فيما صَنَعا

قال: صدق الغلاييني، وما أريد هذا، فقد ذكرنا إيجابية الزاهد، وسنذكر طرقه لأبواب فضل الله، ولكن

التعب ليس في السعي، وإنما في الحرص.

قلت: كيف؟

قال: عندما لا تكون لك طاقة تحمل معينة، فتحمل عليها ولا تتجاوزها، أيصيبك التعب لذلك؟

قلت: لا، لأني لم أجاوز مقدار طاقتي.

قال: فالزاهد لا يجاوز مقدار طاقته التي وهبه الله إياها، أما الحريص، فلحاجته لملأ الفراغ النفسي الذي يشكوا منه تجده يحمل نفسه ما تطيق وما لا تطيق.

قلت: كيف؟

قال: هو يتصور الدنيا كمنجم ذهب محدود عليه يتهافت الراغبون، فلو قعد لحظة واحدة لسبقه غيره، ولا يبقى له منه شيئا.

قلت: والزاهدون كيف يرون الدنيا؟

قال: بنظرة مختلفة تماما، فهم يرون الدنيا دار ضيافة إلهية لا يعدم الساكن فيها من رزق يساق إليه، فلذلك يتناوله هنيئا مطمئنا مرتاحا يقول في نفسه: إن نفذ هذا، فسيرسل إلي صاحب المائدة رزقا آخر، قد أصل إليه بسعيي، وقد يجيئني بسعيه إن قعد سعيي.

قلت: ولكن الناس لا يكتفون بالرزق القليل؟

قال: ولكن تضحياتهم في سبيل الكثير الذين يملأون به فراغ نفوسهم لا يقاوم ما ينالونه.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أرأيت من ضحى بصحته وقوته وعرضه ودينه من أجل لقمة شهية كاسبا أم خاسرا؟

قلت: بل خاسرا أعظم خسارة، فما تجدي اللقمة

أمام كل ما ضاع منه.. بل هو كمن باع قصرا فخما بحجارة لا تغني ولا تسمن من جوع.

قال: فهذا هو عناء الحريص، وراحة الزاهد.

قلت: ولكن مع ذلك.. لا ينبغي أن نستنكر ما لتلك اللقمة من لذة.

قال: لذة مكتنفة بالغصص، ولا يعدم الزاهد مثلها، أو أكثر منها مع ما استفاده من الراحة والأمن.

قلت: الراحة والأمن؟

قال: فإن الزاهد ينعم من الراحة والأمن ما لا ينعم به الحريص.

قلت: فاضرب لي على ذلك مثالا.

قال: بل سأحكي لك عن كل منهما حكاية، فالحكايات كالأمثال جند من جند الله.

قلت: فما حكاية الراحة؟

قال: كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان، فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل فى فناء القصر، وفى يده رغيف يأكله، فلما أكل نام، فقال لبعض غلمانه:(إذا قام فجئنى به)، فلما قام جاء به إليه، فقال إبراهيم:(أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع) قال:نعم، قال: فشبعت، قال: نعم قال: ثم نمت طيبا قال: نعم فقال إبراهيم فى نفسه: فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر.

قلت: لقد ذكرتني بعامر بن عبد القيس، فقد مر برجل وهو يأكل ملحا وبقلا فقال له: يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: ألا أدلك على من رضى بشر من هذا؟ قال: بلى قال: من رضى بالدنيا عوضا عن الآخرة.

وذكرتني بمحمد بن واسع فقد كان يخرج خبزا يابسا، فيبله بالماء، ويأكله بالملح ويقول: من رضى من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد.

قال: أما حكاية أمن الزاهد أمام المخاطر التي يتعرض لها الحريص، فقد روي أنه صحب رجل عيسى بن مريم ﵇ فقال:(أكون معك وأصحابك) فانطلقا فانتهيا إلى شط نهر، فجلسا يتغديان، ومعهما ثلاثة أرغفة، فأكلا رغيفين وبقي رغيف ثالث، فقام عيسى ﵇ إلى النهر، فشرب، ثم رجع فلم يجد الرغيف، فقال للرجل: من أخذ الرغيف، فقال: لا أدري. فهذا أول آثار الحرص.

فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها، فدعا أحدهما فأتاه فذبحه فاشتوى منه، فأكل هو وذلك الرجل، ثم قال للخشف:(قم بإذن الله)، فقام فذهب، فقال للرجل:(أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف)، فقال: لا أدري، ثم انتهيا إلى وادي ماء، فأخذ عيسى بيد الرجل، فمشيا على الماء، فلما جاوزا قال له:(أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف)، فقال:لا أدري، فانتهيا إلى مفازة، فجلسا، فأخذ عيسى ﵇ يجمع ترابا وكثيبا، ثم قال:(كن ذهبا بإذن الله تعالى)، فصار ذهبا فقسمه ثلاثة أثلاث، ثم قال:(ثلث لي، وثلث لك، وثلث لمن أخذ الرغيف)، فقال:(أنا الذي أخذت الرغيف)، فقال:(كله لك)

وفارقه عيسى ﵇ فانتهى إليه رجلان في المفازة، ومعه المال، فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه، فقال:(هو بيننا أثلاثا)، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشتري لنا طعاما نأكله)، فبعثوا أحدهم فقال الذي بعث:(لأي شيء أقاسم هؤلاء هذا المال، لكني أضع في هذا الطعام سما فأقتلهما، وآخذ المال وحدي)، ففعل وقال ذانك الرجلان:(لأي شيء نجعل لهذا ثلث المال ولكن

إذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا)، فلما رجع إليهما قتلاه، وأكلا الطعام، فماتا، فبقي ذلك المال في المفازة وأولئك الثلاثة عنده قتلى، فمر بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لأصحابه:(هذه الدنيا فاحذروها)

قلت: هذه قصة جميلة.. ولكن لست أدري هل هي صحيحة أم لا، فقد قرأت العهد الجديد حرفا حرفا، فم أرها؟

قال: وما يهمك أن تصح أو لا تصح، كل البقلة ولا تسأل عن البقال.

قلت: ولكن معناها صحيح، فأكثر الناس تعرضا للجرائم هم الأغنياء طمعا في مالهم وثرائهم، بل قد يقتلهم أقرب الناس إليهم.

قال: فإن حرصوا على ملء بطونهم من أصناف الشهوات.

قلت: ستقتلهم حينها شهواتهم، أما سمعت بأمراض الأثرياء.

فجأة خطر على بالي قوله تعالى:{ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ}(الشرح:7)، فقلت: يا معلم، فقد قال الله تعالى:{ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ}(الشرح:7)، فكيف تحمد الراحة، والله تعالى يأمرنا بالنصب؟

قال: فاقرأ ما بعدها.

قلت: { وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}(الشرح:8)

قال: كل نصب لا يرغبك فيه، ولا يضعك ببابه باطل، لأنك تلهث بذلك وراء السراب.

قلت: كيف؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى:{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ

كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}(النور:39)

قلت: بلى، ولكن ما الذي تعنيه؟

قال: السعي وراء السراب هدر.

قلت: ولكن الحريص لا يلهث وراء السراب، بل يلهث وراء ثروة حقيقية.

قال: ولماذا؟

قلت: ليرضي نهمه.

قال: وهل ينتهي نهمه؟

قلت: لا، فلا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب.

قال: فهو يجري وراء السراب إذن، ومن جرى وراء السراب، كان كالكلب { إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث}(لأعراف: 176)

ثم التفت إلي، وقال: وأزيدك أمرا آخر، فيه كل الراحة للزهاد، ألم تسمع قوله ﷺ:(من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره، وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة)[1]؟

قلت: هذه ناحية مهمة جدا، فالضياع عندنا شائع، والتشتت النفسي منتشر.

قال: أتدري ما علة ذلك؟

---

1)) ابن ماجة من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف.

قلت: ما نص عليه الحديث.

قال: ومثل هؤلاء كمثل من وضع في مفازة ووضع له فيها من كل أصفر وأبيض وأخضر، فاحتار ما يأخذ وما يدع، فتشتت عليه أمره، ولم ينل في الأخير إلا التعب والنصب.

ثم التفت إلي، وقد رأى في بعض الوجوم: أزيدك أمرا آخر، ألم تسمع قوله ﷺ عندما سئل:(أي الناس خير؟)

قلت: بلى، لقد قال:(كل مؤمن محموم القلب، صدوق اللسان)(1)

قال: فمن هو محموم القلب؟

قلت: لقد عرفه ﷺ بقوله:(التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغى ولا حسد)

قال: فهذا هو قلب الزاهد بدليل قوله ﷺ بعد هذا لما سئل:(يا رسول الله فمن على أثره؟)، قال:(الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة)

قلت: لا أراني أعدم على هذا أمثلة، فأكثر الأمراض النفسية ناشئة من هذا، فكل واحد يريد أن ينفرد بجميع رزق الله، ولا يرضى لغيره أن ينافسه فيه.

قال: وما سبب ذلك؟

قلت: الحرص، بل قد ورد الحديث المؤكد لهذا، قال ﷺ:(إن النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح) قيل:(يا رسول الله وهل لذلك من علامة؟)، قال:(نعم التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله)(2)

---

1)) ابن ماجه بإسناد صحيح.

2)) الحاكم.

قال: فما العلاج؟

قلت: الزهد.

قال: فالزهد إذن راحة وصحة.

جوهرة الأمن:

صعدت مع المعلم طابقا آخر في قصر القناعة، فوجدنا شعاعا عظيما متلألئا، سألت المرشد عنه، فقال: هذه جوهرة نفيسة من جواهر القناعة، اسمها الأمن.

التفت إلى المعلم، وقلت: ذاك الذي تكفل به مجلس الأمن؟

قال: أمنكم يبذر الشقاق، وينبت الحروب، وهذا أمن يمسح الدموع، ويسكن الآهات، ويشرح الصدور.

قلت: بماذا يمسح الدموع، أبالمساعدات الغذائية التي ترميها طائرات قومي من جو السماء.

قال: وترمي بعدها القنابل العنقودية والنووية والجرثومية والكيميائية..

قلت: لكأني بك تعلم مخترعاتنا من الأسلحة.

قال: ومن لا يعلم مخترعاتكم منها، حتى النمل في جحوره، والحيتان في أعماق المحيطات، والذرات في خلايا الفضاء يعرفون أسلحتكم، ويمسهم الرعب منها.

قلت: ولكن على العموم، فإن قومي يحسنون إذ يرسلون هذه الأمداد من الأغذية لهذه الشعوب المستضعفة.

قال: هم يسمنوهم ليأكلوهم سمانا لا عجافا، كما تسمنون الدجاج والأرانب.

قلت: ولكن لولا تلك المساعدات التي تنزل كل حين لضاعت تلك الشعوب، بل لضاعت شعوبنا أيضا.

قال: وما الثمن الذي تقدمونه لذلك؟

قلت: كل ما يطلبون.. كرامتنا.. مواقفنا..

قال: ودينكم وحياتكم ومصيركم وربكم؟

قلت: لعلهم لو طلبوهم منا لأعطيناهم لا نساومهم في ذلك.

قال: فسيطلبون ذلك.. إن لم يكونوا قد فعلوا..

قلت: بلى.. لقد بدأو يجرؤون.

قال: أتدري ما سبب ذلك؟

قلت: لا أدري.. ولا أدري لماذا نحن نتحدث عن هذا الموضوع الآن، أمام هذه الجوهرة النفيسة.

قال: هذا الحديث عنها.. فهي جوهرة الأمن.. وخوفكم على أرزاقكم، وعدم ظفركم بحقائق هذه الجوهرة هو الذي جعلكم تنحدرون كل ذلك الانحدار.

قلت: فحلل لي سبب ذلك خطوة خطوة حتى أفهم ما تقول.

قال: ألم تسمع قوله تعالى:{ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ}(القصص:57)؟

قلت: بلى، وقد ذكرهم الله بما أنعم عليهم في الحرم من الأمن، فقال:{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ}(العنكبوت:67)

قال: فما هي العلة التي اسـتند لهـا المشـركون في تركهم اتباع الهدى مع النبي ﷺ؟

قلت: ما نص عليه القرآن الكريم من خشـيتهم على أنفسهم وأرزاقهم.

قـــال: على أي أرزاق خـــافوا، هـــل على أرزاق حاضرهم، أم أرزاق مستقبلهم؟

قلت: رزق حاضـرهم يأكلونـه، فلن يخرجـه أحـد من أفــواههم، ورزق ماضــيهم أكلــوه، فلا يمكن أن يســلبه منهم أحد، فلم يبق إلا رزق مستقبلهم.

قال: وبماذا طمأنهم اللـه تعـالى، ونـزع من قلـوبهم المخافة؟

قلت: بذكر ما وفر لهم من النعم، والتي تجعلهم في غنية عن مخافة التخطف أو ذهاب الرزق.

قال: فهـذه الآيـة إذن تشـير إلى مـا يحملـه الخـوف على الــرزق من أضــرار على حقيقــة الإنســان وحيــاة الإنسان.

قلت: بلى، وقـــد وجههم اللـــه بعـــدها إلى توجيـــه المخافة لله وحده، فقال تعـالى:{ وَكَمْ أَهْلَكْنَـا مِنْ قَرْيَـةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْـكَنْ مِنْ بَعْـدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْـوَارِثِينَ}(القصـص:58)، أي لا ينبغي أن تخــافوا إن اتبعتم الهــدى أن يتخطفكم النــاس، ولكن خافوا إن لم تتبعوه أن يتخطفكم الله.

قال: فتلك إشارة مؤكدة مكملة للإشارة السابقة.

قلت: لكـني لا أزال لم أفهم وجـه العلاقـة بين الأمن وكنز القناعة؟

قال: لقد عرفت أن الحرص يجعل الحــريص في هم دائم وبحث دؤوب على كل ما يملأ جوفه.

قلت: أجل بدليل الحديث الذي عبر به ﷺ عن نفسية الإنسان الطامع.

قال: وهذا الإنسان الطامع الذي يسرف ولا يدبر ولا يزهد كل ذلك حرصا على ملء الفراغ الذي يعانيه.

قلت: نعم، وقد اقتنعت بكل ما ذكرته من ذلك.. ولكن ما جذور الأمن، وما علاقتها بالقناعة، وكيف كان جوهرة نفيسة من جواهرها، بل من أعلى جواهرها وأغلاها.

قال: الحريص لا يفكر في لحظته فقط، بل يفكر في المستقبل الطويل.. لا يقول بملأ قلبه:(الحمد لله، لقد شبعت اليوم، وكفيت)، بل يقول:(لست أدي ما الذي سآكل السنة القادمة، أو السنة التي بعدها)

قلت: فإذن هو لا يعيش لحظته ويومه.

قال: بل لا يعيش غده وشهره، فهو يفكر، ويتألم لما ينتظره.

قلت: والقانع.

قال: القانع فرح بالرزق الذي سيق إليه، مطمئن بما وهب، ويأمل أن يوهب في مستقبله ما وهب في ماضيه.

قلت: فهو سعيد إذن.

قال: هو سعيد ومسالم.

قلت: وما علاقة ذلك بالسلام.

قال: ألم نكن نتحدث عن القنابل ومن أرسل القنابل، أليس ذلك وليد الحرص.

قلت: لم أفهم.

قال: أولئك الجناة المجرمون المصارعون لم يقتنعوا بما آتاهم الله من الرزق، فطلبوا أراضي جديدة لتضمن المستقبل الذي يخافون منه، فراحوا يرمونكم ويرمــون المستضــعفين، ثم يســكتوكم أو يســمموكم ببعض السموم.

قلت: فلم سميت هذه الجوهرة بالأمن؟

قـال: ألم تسـمع قولـه تعـالى:{ وَلا تَقْتُلُـوا أَوْلادَكُمْ خَشْـيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَـرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَـانَ خِطْئـاً كَبِيراً}(الاسراء:31)؟

قلت: بلى، فاللـه تعـالى ينهى المشـركين عن قتـل أولادهم خشــية الفقــر، ووعــدهم بأنــه ســيرزقهم في مستقبل الأيام.

قال: فقد كـان الخـوف إذن هـو سـبب قتـل الأولاد.. ومثله قتل الشعوب.

قلت: هذا صحيح.

قال: فلذلك كانت هـذه الجـوهرة هي جـوهرة الأمن الــذي يمســح المخــاوف، ويطمئن القلــوب، ويشــعرها بالاستقرار والسكينة.

قلت: نعم، فقــد رغبتــني في امتلاك هــذه الجــوهرة النفيسة، فبين لي طريق تملكها.

قال: بأربعة حقائق، إن تشربتها حلت فيك الســكينة، ونزل بساحتك الأمن.

قلت: فما الحقيقة الأولى؟

قال: أن تعلم بـأن المكلـف برزقـك خزائنـه لا تنفـد، وهو لا يغفل عنك لحظه، وهو مع ذلك رحيم بـك لطيـف ودود.

قلت: فيكــف ينشــئ هــذا في نفســي الأمن على رزقي؟

قال: الصبي الصغير الـذي يعيش في كفالـة والـدين رحيمين غنين، هل يفكر في مصدر رزقه، أو يحزن على غداء غده؟

قلت: كلا.. فلماذا يفكر، فهـو في كفالتهمـا؟.. ولكنـه مع ذلك صغير لا طاقة له بحمل هموم الكبار.

قـال: فالطـالب الكبـير الـذي ينتمي إلى معهـد من المعاهد التي تتكفل برزقه، هل يحزن على رزق غده؟

قلت: كلا، فهو تحت كفالة معهد لـه ميزانيتـه الغنيـة، فلذلك لا يصيبه هم رزقه.

قال: فإذا علم العبد أن رزقه بيد الله، وأن الله غــني حميد، وأنه كريم جواد، وأنه لا تأخـذه سـنة ولا نـوم، ولا تصيبه غفلة ولا نسيان، أيخاف على رزقه؟

قلت: كلا، فهات **الحقيقة الثانية**.

قــال: ألا تعلم أن مطــالب الإنســان الحقيقــة الــتي يتطلبها استقراره على هـذه الأرض لتأديـة مـا كلـف بـه من وظائف لا يستدعي كل ذلـك الكم من الجهـود ومن الحزن.

قلت: كيف؟ والضرورات كثيرة، وكل ضـرورة تـؤدي إلى ضـرورات أخـرى.. وهكـذا تتعقـد الحيـاة ومطـالب الحياة.

قال: سبب ذلك ليس مطالب الحياة كمـا هي، وكمـا خلقها اللـه، وإنمـا هي مطـالب الأجـواف الفارغـة الـتي تستدعي وديانا كثيرة لتملأها.

قلت: فالمطـالب إذن وهميـة، والضـرورات ليسـت ضرورات.. كيف هذا؟

قال: سأبين لك هذا بتفاصيله، ولكن قل لي: من كانت له جهة غنية تكفله، ثم كان لا يحتاج إلا إلى حاجات بسيطة أكان ذلك يجعله خائفا؟

قلت: اضرب لي مثالا على ذلك.

قال: رأيت قومك يحبون تربية القطط.

قلت: ويتفنون في تربيتها وأنواع طعامها.

قال: أرأيت لو أن شخصا ترك قطه عند جزار، أو صاحب مطعم، أيخاف على قطه من الموت جوعا؟

قلت: كلا.. فإنه وإن لم يلتفت الجزار أو صاحب المطعم إلى حاجات القط، فإن غذاء القط بسيط، فيكيفيه أن يحمل أي عظم أو أي شيء في الأرض ليسد به رمقه.

قال: فكذلك الإنسان في ملك الله، فإن مطالبه أقل بكثير من خزائن الرزق التي جعلها الله له.

قلت: فهمت، فما **الحقيقة الثالثة**؟

قال: إذا علمت أن لكل زمان رزقه الخاص به، لا تحزن على المستقبل، لأنه لا يأتي إلا ومعه رزقه.

قلت: كيف؟

قال: سبب الخوف على المستقبل هو تصور خلو المستقبل من الرزق، فإذا علمت أن لكل زمان رزقه الخاص به لم تحزن، كالرضيع الذي يسوق الله له في كل لحظة من الرزق ما يتناسب مع حاجاته.

قلت: فما **الحقيقة الرابعة**؟

قال: إذا ركبت باخرة ضخمة، وكان في الباخرة كل وسائل الأمان، بما فيها الزوارق وقوارب النجاة، وكنت تتقن السباحة، وكان البر قريبا، أكنت تخاف؟

قلت: لا.. ولماذا أخاف، فأنا قريب أولا، وقوارب النجاة موجودة، ومع ذلك، فإن مهارتي في السباحة قد تكفي لنجاتي.

قال: فكذلك الله، فقد زودك بالإضافة إلى كل ما ذكرت قوى لتعمل بها، فإن لم تكن لك قوى وفر دواعي الإحسان في الخلق ليحسنوا إليك.

قلت: هذه الجملة، فهات التفصيل.

الحقيقة الأولى:

قلت: ففصل لي الحقيقة الأولى.

قال: الحقيقة الأولى وصفه، واسمه الذي به ينادى، وفعله الذي به يفيض الأرزاق على خلقه.

قلت: نعم، فالله {هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} (الذريات:58)، ففصل لي ما يشرح صدري لهذا الاسم، وما يملأ قلبي بحقيقته، فإني وإن علمت ذلك ولم أجحده إلا أن حقيقته لم تصل قلبي، فأجدني جزعا خائفا.

قال: الشأن في الحقيقة أن تلامس شغاف الروح لا أن تلامس خلايا العقل، فالعلم وحده لا يكفي ما لم يصحبه اليقين وطمأنينة القلب.

قلت: فما الطريق إلى ذلك؟

قال: طريق اليقين رسمه الله لإبراهيم ﷸ عندما سأله أن يبين له كيفية إحياء الموتى.

قلت: نعم، لقد قال الله تعالى حاكيا عن ذلك:{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(البقرة:

(260)

ولهـذا قـال تعـالى عن إبـراهيم ﷺ:{ وَكَـذَلِكَ نُـرِي إِبْــرَاهِيمَ مَلَكُــوتَ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُــونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}(الأنعام:75)

قلت: ولكن هل نطلب من الله تعالى معجـزة مثلمـا طلب إبراهيم ﷺ؟

قال: وهل نفتقر إلى طلب المعجزات؟

قلت: وكيف نراها؟

قال: في ملك الله وملكوته.. فهي من الكـثرة بحيث لا تحد ولا تعد.

قلت: لم أفهم.. فأنا لم أر في حياتي معجزة.

قال: بل، لم تر في حياتك إلا المعجزات.

قلت: فسر لي، فإني لا أكاد أفهم.

قال: ألم تسمع تمهيد الله تعالى لقصة أهل الكهف؟

قلت: بلى، لقد قـال فيهم:{ أَمْ حَسِـبْتَ أَنَّ أَصْـحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً}(الكهف:9)

قال: فما المراد منها؟

قلت: يخـبر اللـه أن لـه آيـات أكـثر عجبـا من قصـة أصحاب الكهف التي عجب لها الناس وخلـدوها واهتمـوا بها.

قال: وفيم هذه الآيات، وما محالها؟

قلت: في السماء والأرض، وكل شيء.

قال: فقد أجبت عن سؤالك، فـرزق اللـه آيـة اسـمه الــرزاق، أو هــو فيض من فيوضــات الــرزاق، وهــذه

الفيوضات تستدعي الظهور حتى لا ينكرها أحد، ولهذا لم ينكر المشركون كون الله رزاقا.

قلت: نعم، فقد قال الله تعالى:{ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ}(يونس:31)

ولكن.. فصل لي مظاهر رزقه حتى يطمئن قلبي، فلو لامست الطمأنينة لرزق الله شغاف قلوب المشركين ما كفروا بالله.

قال: سأكتفي بذكر آية من آيات رزق الله، وهي أنه وضع رزقه في محال لا يطيق أحد نزعها.

قلت: لماذا، وكيف؟

قال: أما لماذا، فقد دل عليه قوله تعالى:{ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً}(الكهف:82)

قلت: ما وجه الإشارة في هذا؟

قال: هذا الوالد المسن لأولاده، لماذا خبأ الكنز في مكان لا يراه فيه أحد، ما عدا أولاده؟

قلت: لئلا يطمع فيه أحد، فيسلبه منهم.

قال: فكذلك الله تعالى وضع رزقه في محال بحيث لا يستطيع أحد أن يسلبها من الخلق.

قلت: فهلا مثلت لما تقول، فإني أكاد أفهم، ولكني أريد أن أرى الحقيقة لا أن أسمعها؟

قال: سأضرب لك مثالا قريبا من مثال الكنز.

قلت: أخبأ الله كنوزا، وما الحاجة إلى ذلك.

قال: ألم تسمع قوله ﷺ وهو يخبر عن علامات الساعة، فقال عند ذكره لموت يأجوج ومأجوج: (فيرغب نبي الله عيسى ﷺ وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل عليهم طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله تعالى، ثم يرسل الله عز وجل مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها[1]، ويبارك الله في الرسل[2] حتى أن اللقحة[3] من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس)[4]

قلت: بلى، فما وجه الإشارة فيه؟

قال: الإشارة فيه عبارة، فقد أخبر ﷺ عن إخراج الأرض لبركاتها قبل قيام الساعة، بحيث يرى من بركاتها ما لا يخطر على بال.

قلت: وما في هذا؟

قال: لقد ادخر الله تلك البركات لذلك الزمان حتى لا يموت آخر إنسان على هذه الأرض جوعا.

قلت: تلك بركات ذلك الزمان؟

قال: ولكل زمان بركاته.

قلت: كيف؟

قال: ألم يكن النفط كنزا عظيما مخبأ في صناديق لا

---

1)) أراد قشرها، تشبيها بقحف الرأس، وهو الذي فوق الدماغ.

2)) ما كان من الابل والغنم من عشر إلى خمس وعشرين.

3)) الناقة القريبة العهد بالنتاج.

4)) رواه أحمد والترمذي ومسلم.

يصلها أحد لتتنعموا به في هذا الزمان، ولا تمدوا أيـديكم لأحد من الناس؟

قلت: بلى، بل أصبحنا نحن الذين نمـد أيـدينا للنـاس بالمعونة من غير حساب.

قال: فذاك كنز خبأه الله لكم لينظر ماذا تعملون.

قلت: ولكن هذا الرزق محصور في بلاد محدودة.

قال: وهي البلاد التي تحتاج إليـه لقلـة مـوارد رزقهـا الظـاهرة، ألا تـرى أن الأب الـرحيم قـد يفضـل ابنـه الضعيف أو المريض أو المحتاج بالعطيـة ليسـد حاجتـه، ويكل الأقوياء لقوتهم؟

قلت: بلى.

قال: فكذلك الله تعالى برحمته جعل في البلاد الـتي تشـح أرضـها، أو يحبس قطرهـا من أسـباب الـرزق مـا يسد حاجاتها.

قلت: إن في القرآن الكريم إشارة جميلـة إلى هـذا، فقـد قـال تعـالى على لسـان إبـراهيم ﵇:{ رَبَّنَـا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُـوا الصَّـلاةَ فَاجْعَـلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْـوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَـرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْـكُرُونَ}(ابـراهيم:37)، فمكة المكرمـة بـواد غـير ذي زرع، فحنن اللـه القلـوب إليها، فإذا برزقها يفاض عليها من كل مكان.

قلت: تلك مكة المكرمة..

قـال: ومثلهـا كثـير من بلاد اللـه، بـل قـد تجـد أهـل الأرض الشحيحة أكثر غنى من أهل الأرض السخية.

سكت، فقال: سأعطيك مثالا لن يخالفك فيه أحد.

قلت: ما هو؟

قال: هذا الهواء الذي تتنفسه، هل جعل الله في طاقة البشر تملكه ومنع العباد عنه؟

قلت: لو أطاقوا لحجزوه في قارورات، وباعوه للناس.

قال: وهذا الماء الذي تشربه، والذي تفيض به الأنهار، والوديان والسماء.

قلت: هم كذلك لا يطيقون حبسه ولا منعه عن الناس.

قال: فهذه أهم الأرزاق لا يمنعها أحد.

قلت: ولكن الطعام.

قال: الطعام موجود مبثوث في كل مكان.

قلت: ولكنه بأيديهم يرفعون فيه ويخفضون، فيمتلكون به رقاب الناس.

قال: لا.. الطعام لا يختلف عن الماء والهواء، ولكن الناس بما ابتدعوه فيه سلموا رقابهم لمن يسقيهم الويلات بسببه.

قلت: كيف؟

قال: أنتم لا تأكلون ما يسد حاجتهم، ويحفظ قوامكم، ولكنكم اتخذتم الأكل حرفة، تظل المرأة طول نهارها من أجل وجبة أو وجبات أكثر ما فيها لغو وعلل.

قلت: نعم.. إني حينما أرى تلك الجهود المبذولة في التقطيع والتصفيف والمزج والتخليط أشعر بالضيق يدب إلى نفسي، لأن كل ذلك التخليط سينزل إلى المعدة، ولا يهمها أن يأتيها مصففا أو غير مصفف.

قال: فأنتم الذي ضيقتم على أنفسكم، أما الله فإن رحمته وسعت كل شيء، ورزقه لم يحرم منه أحدا،

وسنرى تفاصيل هذا في الحقيقة الثانية.

قلت: فقد فهمت هذه الآية، فهل من آية أخرى؟

قال: لو ظللنا نعد آيات الله في رزقه لبقينا جميع دهرنا أمام هذه الجوهرة لا نبرحها، ولكن سأدلك على ملاك ذلك كله.

قلت: فهات، فما أحوجني إلى المجامع والأصول.

قال: أرأيت إن ضمنت لك جهة ما رزقك، بحيث يأتيك مياومة أو مشاهرة أو مسانهة، أكنت تخاف عليه؟

قلت: وكيف أخاف عليه، وهو يأتيني رغدا وبانتظام، ولكن قد أخاف إن لم تكن جهة موثوقة.

قال: فإن كانت جهة موثوقة.

قلت: قد لا أخاف على وعدها ووفائها وجميل صدقها، ولكني أخاف على التقلبات التي قد تحدث فتمنعها من الوفاء بما ضمنته.

قال: فإن كانت فوق التقلبات.

قلت: تقصد أن يأتيني رزقي من جهة لا دخل للوزارة فيها.. فالوزراء يتحولون كل حين، ويعزل كل جديد كل قديم.

قال: ولا دخل للملوك والأمراء والرؤساء.

قلت: إذن أنام قرير العين لا أختلف عن الملوك ولا عن الوزراء والرؤساء.

قال: فقد وعد الله إذن عباده برزقه، ووعده لا يتخلف، ألم تسمع قوله تعالى:{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}(هود:6)، فقد وعد الله بتنزل أرزاقه على كل ذي حياة على هذه الأرض، فهل ترى في هذا من

تخلف؟

قلت: لا، بل أرى أرزاق الحيوانات تساق إليهم عفوا، لا يحتاجون إلا إلى تناولها.

قال: ومثل ذلك أرزاق الإنسان إلا أنه يأبى إلا أن يعقد ما بسط الله.. أتدري لم يحرم الموكل بأرزاق البشر بعض العباد رزقه؟

قلت: إن خالف الوزير أو الأمير.

قال: أما الله، فإن رزقه لا يفرق بين مؤمن متعبد، وكافر متعنت.

قلت: نعم، ولهذا قال تعالى مجيبا إبراهيم عليه السلام عندما سأل الرزق لعباد الله المؤمنين(1) دون غيرهم { وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:126)، فأخبره الله تعالى أن رزقه يناله المؤمن والكافر.

قال: وسأضرب لك مثالا على ذلك.. ألا تعلم أنواع الجرائم والكفر التي وقع فيها بنو إسرائيل بعد أن أنجاهم الله؟

قلت: كثيرة، بل إنهم بمجرد خروجهم وهلاك عدوهم التفتوا فوجدوا قوما { يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} (لأعراف: 138)

قال: وهل استجابوا لقوله؟

قلت: كلا، فبمجرد غيبته عنهم أياما معدودات، عبدوا العجل، قال تعالى:{ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}(البقرة:51)

---

1)) ونص قوله هو:{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } (البقرة:126)

قال: وعندما أمرهم بالـدخول إلى الأرض المقدسـة، بماذا أجابوا؟

قلت: ما قصه علينا القرآن الكريم من قوله:{ قَـالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَـداً مَـا دَامُـوا فِيهَـا فَـاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}(المائدة:24)

قـال: فمـا هي العقوبـة الـتي حـاقت بهم بعـد هـذا القول؟

قلت: ما نص عليه قوله تعـالى:{ قَـالَ فَإِنَّهَـا مُحَرَّمَـةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَـــنَةً يَتِيهُـــونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَـأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}(المائدة:26)

قال: فكان دخولهم في التيه إذن عقوبة لهم؟

قلت: نعم.

قـال: والأصـل في العقوبـة أن يشـدد على صـاحبها، ويضيق عليه.

قلت: لا شــك في ذلــك، ومن شــك فعليــه بزيــارة السجون والمعتقلات.

قال: ولكن اسمع لما أنزل الرزاق الكريم على هؤلاء في فـترة عقـوبتهم، قـال تعـالى مخاطبـا لهم:{ وَظَلَّلْنَـا عَلَيْكُمُ الْغَمَــامَ وَأَنْزَلْنَـا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّــلْوَى كُلُــوا مِنْ طَيِّبَـاتِ مَـا رَزَقْنَـاكُمْ وَمَـا ظَلَمُونَـا وَلَكِنْ كَـانُوا أَنْفُسَـهُمْ يَظْلِمُونَ}(البقرة:57)

قلت: لقد ذكر الله تعالى ثلاث نعم عظمى: الغمـام، والمن، والسلوى.

قال: فقد وقاهم الله حر الشمس، وصـدى العطش، ولهيب الجوع.

قلت: لم يقهم فقط، بل متعهم، فقد قال قتـادة في

المن:(كان المن ينزل عليهم في محلّهم سقوط الثلج، أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك)، وقال ابن عباس في السلوى:(السلوى طائر يشبه السماني كانوا يأكلون منه)

قال: وعندما عطشوا؟

قلت: لم يكلفهم بحفر آبار ليشربوا، بل خرق العوائد من أجل أن يسقيهم، قال تعالى:{ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}(البقرة:60)

قال: وليس هذا فقط، بل إن الله تعالى يأمر عباده بأن يأكلوا من رزقه ويعرض عليهم أصناف نعيمه كما يعرض الضيف الكريم طعامه على ضيفه.

قلت: أجل، فقد ورد ذلك في آيات كثيرة، قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} (البقرة:172)، وقال تعالى:{ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}(الأنعام:141)

قال: ومع ذلك كله، فالله لا يغفل ولا ينسى، فهل يخاف من عرف الله على رزقه؟

الحقيقة الثانية:

قلت: كلا.. وعيت هذا فهات الحقيقة الثانية.. وهي حقيقة ضعف مطالب الإنسان وقلتها بجانب الرزق

المفاض عليه.

قال: أجل، وقد أشـار إلى هـذه الحقيقـة قولـه ﷺ:(من أصـبح منكم معـافى في جسـده، آمنـاً في سـربه، عنده قوت يومه، فكأنهما حيزت له الدنيا بحذافيرها)(1) ، وقد ورد في لفظ من ألفاظ الحديث ما هو أكثر دلالة، قـال ﷺ:(ابن آدم عنـدك مـا يكفيـك، وأنت تطلب مـا يطغيك، ابن آدم لا بقليل تقنـع، ولا من كثـير تشـبع، ابن آدم إذا أصـبحت معـافى في جسـدك آمنـا في سـربك عندك قوت يومك، فعلى الدنيا العفاء)

قلت: ويشـير إليهـا قولـه تعـالى:{ وَإِذْ قَـالَ مُوسَـى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَـاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكـاً وَآتَـاكُمْ مَـا لَمْ يُـؤْتِ أَحَـداً مِنَ الْعَـالَمِينَ} (المائدة:20)، فقد أخبر الله تعالى أنه جعلهم ملوكا مـع أن الملك لم يكن إلا في بعضهم.

قال: أراك لم تكتف بهذا.. ألم تؤمن؟

قلت: بلى، ولكن ليطمئن قلبي.

قال: فقارن بين حاجات الإنسان الغذائيـة البسـيطة، وبين ما كنز في البحر من أصناف الأغذية.

قلت: نعم، فقد قال تعالى وهو يعدد نعمه الـتي جعلهـا في البحار:{ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَـرَى الْفُلْـكَ مَـوَاخِرَ فِيـهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(النحل:14)

الحقيقة الثالثة:

قال: أما الحقيقة الثالثة، فأن تعلم لكل زمـان رزقـه الخاص به.

قلت: وماذا تقول هذه الحقيقة؟

(1)) البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجة .

قال: تقول لك:(عش يومك، ولا تحزن على المستقبل، لأنه لا يأتي إلا ومعه رزقه)

قلت: كيف؟

قال: سبب الخوف على المستقبل هو تصور خلو المستقبل من الرزق، فإذا علمت أن لكل زمان رزقه الخاص به لم تحزن.

قلت: فاضرب لي على ذلك مثالا.

قال: ألا يرزق الجنين؟

قلت: بلى، ولو توقف الرزق عنه لحظة هلك.

قال: وماهو رزقه؟

قلت: كل ما يتطلبه جسده لبنائه من معادن وبروتين وفيتامين وغير ذلك من المكونات.

قال: ولو نقص أحد هذه المكونات؟

قلت: سيهلك الجنين، أو سيخرج مشوها، وأحسن أحواله أن يخرج سقيما يحتاج إلى علاج.

قال: ولكن الجنين يمر بمراحل مختلفة.

قلت: أجل، لقد نص على جميعها القرآن الكريم، قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً }(الحج: 5)

قال: وهل يحتاج في كل المراحل إلى غذاء واحد؟

قلت: كلا، ففي كل مرحلة يحتاج غذاء خاصا.

قال: وهل يوفر له ذلك الغذاء الخاص؟

قلت: أجل، مثلما يوفر الطعام في المطاعم بحسب رغبة الطاعم.

قال: ولكن الطاعم هنا ضعيف ليس له أي قدرة.

قلت: ولكن مطعمه يعلم حاجته، ويوفرها له.

قال: تقصد أمه.

قلت: أمه، لا تدري أي شـيء عنـه، هـو في رحمهـا، لكنه غيب بالنسبة لها.

قال: فمن إذن؟

قلت: الله الرزاق ذو القوة المتين.

قال: فقد فهمت إذن بأن لكل زمان رزقه.

قلت: نحن لا نخاف على رزق الجـنين، ولكن نخـاف على رزق الوليـد، ولهـذا أخـبر اللـه تعـالى عن قتـل المشركين لأولادهم، ولم يخبر عن إجهاضـهم لنسـائهم، قـال تعـالى:{ وَلا تَقْتُلُـوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَـرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} (الأنعام: 151)

قال: فالوليد عند نزوله، أيطيق أكل طعام الناس؟

قلت: كلا.

قال: فهل وفر الله له ما يقوم بغذائه؟

قلت: نعم، لقـد أدر اللـه ثـدي والدتـه لتسـقيه من حليبها.

قال: فهل في لبن الأم ما يكفي حاجة رضيعها؟

قلت: بل ما يكفي ويشفي.

قال: فهل يتناسب ذلك مع حاجاته المختلفة.

قلت: أجل، فحلييب الأم ـ كما يقرر الخبراء ـ يتطور تركيبه من يوم لآخـر بمـا يلائم حاجـة الرضـيع الغذائيـة، وتحمل جسمه، و بما يلائم غريزته وأجهزته التي تتطـور يوماً بعد يوم.

قال: ولكن الرضيع ليس بحاجة إلى الغذاء فقط، بل هو بحاجة إلى الدواء، أو بـالأحرى تقويـة جهـاز مناعتـه، ليواجه الأعاصير التي تتربص به.

قلت: وذلـك كلـه موجـود في لبن الأم، فهـو يحـوي أجسـاما ضـدية نوعيـة، تسـاعد الطفـل على مقاومـة الأمراض.

ثم التفت إلى المعلم، فرأيتـــه، وكأنـــه يحضـــر لي سـؤالا، فقلت: وأزيـدك، فإنـه زيـادة على هـذه الفوائـد الصحية، هناك فوائد نفسية واجتماعية كثـيرة، فقـد أكـد علماء النفس أن الرضاعة ليست مجـرد إشـباع حاجـة عضوية إنما هو موقف نفسي اجتماعي شـامل، تشـمل الرضـيع والأم وهـو أول فرصـة للتفاعـل الاجتمـاعي .. وفي الرضاعة يشعر الطفل بالحنان والحب والطمأنينـة ويحدث اندماج في المشاعر بين الطفل وأمه.

قال: فأنت أقررت إذن بأن الله تعـالى وفـر للرضـيع كل ما يحتاجه.

قلت: لا شـك في ذلـك، وذلـك ليس كلامي، بـل هـو كلام الخبراء.

قال: أفتدرك الآن قيمة الرزق الذي ساقه اللـه لهـذا الرضيع، أليس في هذا اللبن آية؟

قلت: نعم، بل آية كبرى، فالمصـانع الضـخمة عنـدنا، والخبراء الكثيرون لم يستطيعوا أن يكونوا قطرة واحدة من حليب الأم.

قال: فاسـمع إذن لمـا يقـول الحـق تعـالى عن هـذه

الآية، قال تعالى:{ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ} (النحل:66)

قلت: ولهذا أمر الله تعالى تحقيق شكر هذه النعمة باستخدامها لا بتعويضها بأي شيء آخر، فقال تعالى: { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ } (البقرة:233)

قال: فإذا كبر الرضيع وفطم من أن يأتيه رزقه؟

قلت: لقد جعل الله من الرحمة في قلوب والديه ما يحيل عليهما التفريط في تغذيته وصحته، بل إنهما يؤثرانه على نفسيهما، ويطعمانه ولا يأبهان بما يعاملهما به من القسوة.

قال: فالرحمة الفطرية إذن هي التي توفر الدواعي على رزق الصبي بعد فطامه؟

قلت: نعم، وهي في أحيان كثيرة لا تقتصر على الوالدين، بل إن كل من طلب منه صبي طعاما أو شيئا أعطاه عن طيب نفس.

قال: فرزق الصبي مساق إليه من غير تعب ولا كد.

قلت: نعم، بل يساق إليه أفضل الرزق، هو تماما مثل دود الفواكه نائم في وسط غذائه، بل في أفضل غذاء على الإطلاق.

قال: فإذا كبر الصبي وشب؟

قلت: أعطاه الله من القوة والجلد ما يتمكن به من جلب رزقه بلا عناء ولا تعب.

قال: فإذا أصيب بآفة تحيط بقواه، أو بكبر ينهش عظمه؟

قلت: يوفر لـه من الـدواعي الفطريـة في أقاربـه أو في الأبعدين من يتكفل به.

قال: فإذا مات؟

قلت: لن يعدم من يغسله ويكفنه ويدفنه.

قال: فإذن هو لا يحتاج إلى شيء، ففي كل زمان له من الرزق ما يكفيه ويغنيه.

قلت: ولكن هناك مطالب أخرى أنتجتها الحضارة قد يعجـز عنهـا، وبسـببها يـرمى في سـلة الفقـراء الـتي لا تختلف في نظر المجتمع عن سلة المهملات.

قال: ذاك شيء ساقه لنفسه، وعقوبة جلد بها ذاته.

الحقيقة الرابعة:

قلت له: فما الحقيقة الرابعة؟

قال: من ألقاك في متاهة، أيكون بذلك قد عاقبك؟

قلت: أعظم عقوبة، بل لعله لم يرد إلا قتلي، ولكنــه خشي تلطيخ يديه فاكتفى برميي للموت يلتهمني.

قال: فإن أعطاك بوصلة تهتـدي بهـا، وعلمـك كيفيـة استخدامها؟

قلت: يكون قد أحسن لي بذلك، ولكنه مع ذلك فقـد أساء، فما عساها تصـنع البوصـلة لي، أأركب عليهـا، أم أشرب ماءها، أم آكل طعامها؟

قال: فإن أعطاك كل ذلك: مركبا وزادا وماء؟

قلت: يكون إحسانه أعظم.

قال: وهل تأمن حينها.

قلت: نعم يزداد أمني، ولكني مع ذلك أخاف السـباع

أن تعتدي علي.

قال: فإن أمنك من السباع، أو أعطـاك مـا تقتـل بـه السباع.

قلت: يكون قد أحسن إحسانا عظيمـا، وأنقـذني من الموت، لكني سأظل أتساءل عن علة وضـعي في تلـك المتاهة؟

قال: فإن أرسل لك بأنه لم يرد لـك إلا الخـير، وأنـك إذا رجعت إليه من تلك المتاهـة سـيعطيك قصـرا فخمـا ويتوجك ملكا.

قلت: سـينتفي حقـدي عليـه حينهـا، ولكـني سـأظل أتساءل عن علة ذلك.

قال: فإن أرسل لك يخـبرك بـأن غرضـه أن يمرنـك على مهمات الملك، ويختبر مدى قدراتك.

قلت: حينها سأعظمه وأجله.. وأحبه.

قال: وتلك الأدوات التي أعطاك، أتستخدمها؟

قلت: كيف لا أسـتخدمها، وهي وسـيلتي إليـه، فلـولا البوصلة لتهت، ولولا السـلاح لافترسـت، ولـولا الطعـام لهلكت جوعا.

قال: فهذه هي الحقيقة الرابعة.

قلت: أي حقيقة؟ فقد كنا نتحدث عن المتاهة.

قال: وهذ المتاهة هي الدنيا، والذي اختبرك هو ربهـا، وجزاؤك إن رجعت إليه سالما هو الجنة.

قلت: والبوصلة والأدوات..؟

قال: تلـك هي القـوى الـتي منحـك اللـه إياهـا، فـإن استخدمتها نجوت ، وإلا هلكت.

ثالثا ـ كنز الاستعفاف

سرت مع معلم السلام نبحث عن قصر الاستعفاف، لاح لنا قصر جميل، يشبه في شكله يدا ممتدة للسماء تتساقط عليها أنواع الجواهر، وتنتشر منها أصناف الروائح الطيبة.

قلت للمعلم: ما أروع هذا القصر، لكأن الذي صممه فنان لا مهندس.

قال: كل مصممي هذه القصور يجمعون بين الفن والهندسة.

قلت: إذن هم تخرجوا من جامعة واحدة.

قال: نعم.

قلت: فأي جامعة هي، فإن لي شوقا لأن أتعلم مثل هذه الفنون.

قال: هي جامعة موجودة في كل مكان.

قلت: في كل مكان.. أمتأكد أنت؟

قال: نعم.. في السماء والأرض، والحقول والبراري، والبحار والصحارى.. في كل مكان، بل في كل خلية تنبض بالحياة، أو كل ذرة تمتلئ بالحركة.

قلت: فأنت تقصد شيئا لا أفهمه.

قال: أقصد الصنعة الإلهية، فإن من أحب الله تخلق بأخلاق الله.

قلت: ولكنها صنعة إلهية، فكيف تقلد؟

قال: كل صنعة إلهية يجتمع فيها كمال الهندسة مع كمال الفن، فلا تعجب لكون كل مؤمن مهندسا وفنانا.

قلت: ولكن..

قال: دعنا من هذا، فله محله الخاص في هذه الرسائل، ولندخل إلى هذا القصر لنغنم جواهره.

قلت: لا شك أن هذا هو قصر الاستعفاف، فاليد تدل على السؤال والشحاذة، والجواهر المتساقطة عليها تدل على العطايا الممنوحة لهذه اليد.

قال: نعم، هذا هو قصر الاستعفاف، وفيه أربعة طوابق، كل طابق منها يرفع همتك، ويحمل يدك ليضعها في موضعها الصحيح.

قلت: يدي هي في يدي، فكيف يضعها في موضع صحيح.. أتقصد أني لن أخرج من هذا القصر بيدي؟

قال: افهم الحقائق، ولا تناقش الألفاظ.

قلت: فما تريد بيدي، أليست اليد غير الجارحة!؟

قال: يدك التي يمتد بها طمع عينيك إلى جيوب الناس، أو خزائن الناس.

ابتسمت، وقلت: تقصد يد الشحاذين لا يدي، فقد عافاني الله من الشحاذة.

قال: هي حرفة يتقنها الكل، ويتهرب منها الكل.

قلت: ما تقصد؟

قال: من هم الشحاذون بين قومك؟

قلت: الذين يقفون على عتبات المساجد والأسواق يبكون ويولولون ويبتكرون صنوف الحيل التي تستدر عطف الناس، فتستخرج ما في جيوبهم.. إنهم الشحاذون الماهرون في جلب المال بلا تعب.

قال: أهؤلاء هم الشحاذون في تصورك؟

قلت: وفي تصـور جميـع النـاس، إنهم الـذين حكى عنها الحريري والهمذاني في مقاماتهما.

قال: وسائر الناس؟

قلت: لقد عافاهم الله من الشحاذة.

قال: وما أدراك أن الله عافاهم منها؟

قلت: لأنهم لا يمدون أيديهم للناس.

قال: ولكنهم يمدون أعينهم وقلوبهم، ولو اسـتطاعوا لخنقوا الناس ليستولوا على ثرواتهم.

قلت: كيف.. أنا لا أرى ما تقول.

قال: ما تقول في الاستعمار؟

قلت: هم يقولون: جئنا لنعمر أرضكم.

قـال: ولكنهم أبـادوا شـعوبكم، ومرغـوا كـرامتكم، ونهبوا ثـرواتكم، ثم لم يخرجـوا إلا بعـد أن عاهـدتموهم على أن تضعوا أيديكم المجروحة في أيديهم الآثمة.

قلت: كـل ذلـك صـحيح.. ولكن الأيـام سـرعان مـا تطوي الأحقاد.

قـال: أنـا لا أتكلم عن الأحقـاد، ومعلم السـلام يملأ القلوب بالإيمان لا بالأحقاد.

قلت: فلماذا نتحدث عن الاستعمار إذن؟

قال: لنعرف نوعـا خطـيرا من أنـواع الشـحاذة الـتي يتهرب منها الكل، ويتقنها الكل.

قلت: ولكن الاسـتعمار ولى، ونحن الآن تحت رحمـة حكومات منا، لا تستجدينا ولا تطمع في أموالنا.

قال: ولكني رأيت وزراء شحاذين.

خطر على بالي وزير المالية أو الاقتصاد وهو يقف على باب من أبواب المساجد يطلب الصدقات ليملأ البنوك، فضحكت، فقال: أنت تتعجب من تحول وزير المال إلى شحاذ.

قلت: أجل.. لقد عرفت ما يجول في خاطري.

قال: نعم.. ألم يمد يده للموظفين ليقبل رشاواهم، ألم يمد يده لعموم الناس ليقبل مصالحهم؟

قلت: ذلك من الرسوم.

قال: أنتم تعرفون كيف تحولون المعاني بتحويل الألفاظ، فتسمون قتل الشعوب للاستيلاء على ثرواتها استعمارا، وتسمون أكل أموال الناس بالباطل رسوما، وتسمون الرشاوى هدايا..

قلت: لقد ذكرتني بقوله ﷺ:(ليشربن أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها)[1]

قال: وقد وقع ما أخبر به ﷺ.

قلت: أجل، فنحن نسمي الخمور مشروبات روحية.

قال: ألم تكتفوا بتسميتها مشروبات حتى نسبتموها إلى الروح؟

قلت:.. فما الطريق لأتخلص من الشحاذة، وأعف عن أموال الناس؟

قال: بقطعك هذه الطوابق الأربع، وجمعك لجواهرها.

قلت: فماذا أقطع في الأول؟

قال: تقطع طمعك من نفسك، فتيأس منها، ولا تمد يدك إليها.

---

1)) أحمد وأبو داود.

قلت: ففي الثاني؟

قال: تقطع طمعك من الخلق، فتيأس منهم، ولا تمد يدك إليهم.

قلت: ففي الثالث؟

قـال: تمـد أعنـاق طمعـك كلهـا إلى اللـه، فلا تـرى مستحقا للتفضل غيره.

قلت: ففي الرابع؟

قال: تمد يدك إلى الله الـذي طمعت فيـه، وحينـذاك تضـع يـدك موضـعها الصـحيح، وحينـذاك سـينعم عليـك بالفضل الذي تستغني بـه عن الكـل، وتمـتزج يـدك مـع اليد التي رأيتها في هذا القصر.

لا أمل فيك :

وقفت مع المعلم أمـام الجـوهرة الأولى من جـواهر الاستعفاف، فسألت المرشد عنها، فقال: هـذه جـوهرة نفيسـة، لا يحـل صـعود طوابـق القصـر إلا بعـد المـرور عليها.

قلت: فما اسمها؟

قال: هي جوهرة (لا أمل فيك)

ابتسـمت في نفسـي من هـذه الأسـماء الغريبـة، ثم التفت إلى المعلم ليشـــرح لي حقائقهـــا، فلا يمكن أن أنالها بدون الوصول إلى حقيقتها والاقتناع بها.

نظـــر إلي المعلم، وقـــال: ألا تعلم أول بيت يقصـــده الشحاذ، وأول من يمد إليه يده؟

فكرت قليلا ، ثم قلت: ربما.. جاره.. لا، فقـد لا يريـد أن يظهـر بمظهـر الذلـة أمـام جـاره.. لعلـه السـوق أو المسجد.. أو لعله يخرج من بلـده حفظـا لكرامتـه ليمـد

يده للغادي والرائح.

قال: كل من ذكرتهم بعيـدون، والشـحاذ لا يمـد يـده إليهم إلا بعد أن يمد يده إلى غيرهم.

قلت: فمن؟ لقد عجزت عن معرفته.

قال: أول من يمد الشحاذ يده إليه بالسؤال والافتقار هو نفسه.

قلت: نفسه؟

قال: التي بين جنبيـه، فافتقـاره إلى الخلـق يبـدأ من افتقاره لنفسه، وافتقاره لنفسـه هـو الـذي يجعلـه يـدق أبواب الخلق.

قلت: فكيف يمد يده لنفسه.. لم أر في حيـاتي رجلا يقـف في مكـان خـال أمـام مـرآة يضـع يـده ينتظـر أن توضع فيها أي صدقة.. إلا إذا كان مجنونا.

قال: بل كل الشحادين يقفون هذا الموقف، بـل كـل من لم يمد يده إلى الله يمد يده إلى نفسه، ويقف هــذا الموقف الذي استنكرته.

قلت: لكني لم أر أحدا يفعل ذلك.

قال: الفقراء والأغنياء يفعلون ذلك.

قلت: اشرح لي، فلا أطيق الإلغاز.

قال: عندما يقرر الملـك أمـرا من الأمـور، ويحب أن ينفذه، ماذا يفعل؟

قلت: يستنجد بوزرائه وأعوانه.

قال: أيمد يده إليهم طالبا المعونة؟

قلت: نعم، مثلمــا قص القــرآن الكــريم على ملكــة سبأ، حيث قالت لقومها:{ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْــرِي

مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ}(النمل: 32)

أو مثلما قال الملك في قصة يوسف ﵇ لأعوانه: { إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ}(يوسف:43)

قال: ولا حرج عليك أن تشبه ذلك بقول سليمان ﵇ لحاشيته:{ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}(النمل: 38)

قلت: نعم، ولكني خشيت أن تقول شيئا قد لا يتناسب مع مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

قال: لا، بل هذا من كمالهم، فمن كمال الملك استنجاده بأعوانه واستشارته لهم.

قلت: فما في هذا؟

قال: قد نسمي الملك شحاذا في هذه الحالة.

قلت: نعم إن جعلنا الشحاذة هي كل مسألة أو كل طلب معونة.

قال: فإذا استقر رأي الملك وحاشيته على أمر.

قلت: يبدأون في تنفيذه.

قال: أين؟

قلت: حسبما خططوا.

قال: فإن ظهر ذلك الأمر في الواقع، فلمن ينسب؟

قلت: للملك والحاشية، وقد ينسب للقصر نفسه.

قال: فالقصر إذن هو الباني والهادم، وهو الذي يتخذ كل القرارات.

قلت: خاصة الصعبة منها، لأن ما عداها قد تتكفل بـه الأكواخ.

قال: ألم تسمع من الغزالي بأن الإنسان مع لطائفه، كالملك مع حاشيته؟

قلت: نعم، لقد مثل الغزالي نفس الإنسان وعلاقتهـا بقواهـا بالملـك، فقـال:(مثـل نفس الإنسـان في بدنـه أعني بالنفس اللطيفة المذكورة، كمثل ملك في مدينته ومملكته، فإن البدن مملكة النفس وعالمهـا ومسـتقرها ومـدينتها وجوارحهـا، وقواهـا بمنزلـة الصـناع والعملـة، والقوة العقليـة المفكـرة لـه كالمشـير الناصـح والـوزير العاقــل، والشــهوة لــه كالعبــد الســوء يجلب الطعــام والمـيرة إلى المدينـة، والغضـب والحميـة لـه كصـاحب الشرطة)[1]

قال: فلو أن هذا الملك اختار بصواب رأيه ومــا أوتي من الحكمة بطانة صالحة.

قلت: ستكون رعيته في أحسن حال، ولن ينال منها، ولن تنال منه إلا الخير، وقد قال ﷺ:(مـا بعث اللــه من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانــة تأمره بـالمعروف وتحضـه عليـه، وبطانـة تـأمره بالشـر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصمه الله)[2]

وقد قال الشاعر ناصحا:

واجعـــلْ بطانتـــكَ الكــــــــرامَ فـــــــإِنهمْ أدرى بوجـــــــــــهِ الصــــــالحاتِ وأخـــــبرُ

إِن الكريمَ له الكرامُ طـــابتْ شـــمائلُهم

1)) الإحياء: 3/6.

2) البخاري والنسائي.

بطانَـــــــــــــــــــةٌ وطـــــــابَ العنصــــــرُ

إِن لاحَ خــيرٌ قَرَبــوه أو لاحَ شــرٌ باعــدُوه
ويَسْـــــــــــــــــــروا وَعَّســـــــــــــــــروا

أمــا اللــئيمُ فحولَــه قرنـــاءُ ســـوءٍ ليس
أمثالُـــــــــــــــــــهُ فيهم خيِّرُ

إِن لاحَ خـيرٌ باعـدوهُ أو لاحَ شــرٌ قَرَّبـــوه
وعَسَّـــــــــــــــــروا ويَسَّـــــــــــــــــروا

ولكـل كـونٍ كائنـاتٌ فقبيلُـــهُ من جنسِـــه
مثلُـــــــــــــــــــهُ والمعشـــــــــــــــــرُ

قال: فإذن ما يصـدر من الملـك وحاشـيته هـو الـذي يظهر في البلاد وبين الرعية؟

قلت: نعم، على حسب المثال الذي ذكره الغزالي.

قـال: فمـد الشـحاذ يـده للنـاس، أليس موقفـا من المواقف الخطيرة التي اتخذها في حياته؟

قلت: أجـل، بـل هـو أخطـر المواقـف على الإطلاق، فيكفي ما فيه من الذلة.

قال: فهل أرغم على ذلك، أم اتخذ القرار بنفسه؟

قلت: قد يكون مرغما، فقرار مثل هـذا لا يكـون عن طواعية.

قال: وكذلك مثل قرارات كثير من الملـوك الـذين لا يرون إلا جهة واحدة، ثم يتصورون أنهم مضطرون.

قلت: فليسوا مضطرين إذن؟

قال: من رحمة الله بعباده أو من ابتلائه لهم أن يضع لهم الكثـير من الحلـول، ولكنهم يعمـون أعينهم عنهـا، ويتصورون أنهم مضطرون لأبشع الحلول.

قلت: فهذا القرار الذي اتخذه في نفسه سـواء كـان مكرها عليه أو مختارا من لجأ إليه فيه.

قلت: إلى وزرائه وأعوانه وحاشيته.

قال: فقد وثق فيهم إذن عندما استشارهم.

قلت: لقد قال ﷺ:(إن المستشار مؤتمن)[1]

قال: ولكن المستشار قد يكون أخرق؟

قلت: أجل، وحينذاك يكون من البطانة السيئة.

قـال: فلمـاذا لم يمـد يـده إلى جهـة عليـا موثوقـة يستشيرها.

قلت: لثقته بوزرائه.

قال: فقد رضي إذن عن نفسه حين مد يده إليها.

قلت: نعم.

قال: فمبـدأ الشـحاذة إذن الرضـى عن النفس وعن قـرارات النفس، ولـذلك كـان علاجهـا الحقيقي لا بنهي الشحاذ عن مد يده إلى الناس، وإنما نهيـه عن مـد يـده إلى نفسه.

قلت: نعم، لقــد اقتنعت بهــذا الكلام، ولكن مــا هــو

---

1)) الترمذي وقال: حديث حسن.

السبيل لإقناعه بعدم مد يده إلى نفسه؟

قال: هو نفس السبيل الذي نقنع به الملك بعدم الثقة في مستشاريه.. إن أول خطوة تخطوها لقطع مد يدك إلى نفسك هو عدم ثقتك بها، وعدم رضاك عنها.

قلت: لقد ذكرتني بقول ابن عطاء الله:(أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها. ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، فأي علم لعالمٍ يرضى عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟)

قال: لم نصحه بأن لا يرضى عن نفسه؟

قلت: لتبديلها الحقائق، كما قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

كما أن عين السخط تبدي المساويا

قال: فهل يمكن أن يصلح من يرضى عن تصرفات نفسه.

قلت: لا، فإن كل ما كسب من المحرمات ناتج عن الرضى عن النفس والسماع لأوامرها، كما قال تعالى عن إخوة يوسف ﵇:{ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}(يوسف:18)

وكما قال عن السامري:{ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ

لِي نَفْسِي}(طـه:96)

قال: ما سبب قتل ابن آدم الأول لأخيه؟

قلت: لقد ذكر المفسرون في ذلـك أقـوالا، منهـا مـا قال السدي عن ابن عباس وعن ابن مسعود: أنــه كـان لا يولد لآدم مولود إلا ومعه جارية، فكان يزوج غلام هـذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هـذا البطن غلام هذا البطن الآخـر، حـتى ولـد لـه ابنـان يقـال لهمـا هابيـل وقابيـل، كـان قابيـل صـاحب زرع، وكـان هابيـل صـاحب ضـرع، وكـان قابيـل أكبرهمـا، وكـان لـه أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيــل طلب أن ينكح أخت قابيل، فـأبى عليـه، وقـال هي أخـتي ولـدت معي، وهي أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتـزوج بهـا، وأنهمـا قربـا قرباناً إلى اللّه عزَّ وجلَّ أيهما أحق بالجارية، قرب هابيل جذعة سمينة، وقرب قابيـل حزمـة سـنبل، فوجـد فيهـا سنبلة عظيمة ففركها وأكلها، فنزلت النار فأكلت قربانـا هابيل، وتركت قربان قابيل، فغضب، وقال لأقتلنك حتى لا تنكح أخـــتي، فقـــال هابيـــل:{ إِنَّمَـــا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}(المائدة: 27))(1)

قال: ولكن القرآن الكريم ذكر قولا واحدا؟

قلت: القرآن الكريم ذكر ذلك.. أين، فأنا لا أراه؟

قال: ألم تسمع إلى قول الحق تعالى:{ فَطَوَّعَتْ لَـهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْـبَحَ مِنَ الْخَاسِـرِينَ}(المائـدة: 30)، فما سولت له نفسه من المعصية هو السبب، أما ما ذكر من الأسباب، فمجرد خيوط عنكبوت، لأنه إن لم يقتله بهذا السبب قتله بغيره.

قلت: فما علاقة هذا بمد اليد إلى النفس؟

قال: لأن النفس التي اسـتطاعت أن تقهـر صـاحبها،

---

1)) ابن جرير.

فيمد يده لقتل أخيه، لن تعجز أن تسول له أن يمد يــده للناس يستجديهم.

قلت: لقد اقتنعت بمــا قلت، لكن أنى لي أن أتخلص من مد يدي إلى نفسي.

قال: بعلمك بتحقق نفسك بعدم أهليتها للاستشارة.

قلت: وكيف أعلم ذلك؟

قــال: أربعــة صــفات في النفس إذا علمتهــا ارتفعت ثقتك فيها، وكففت عن مد يدك إليها.

قلت: ما هي؟

قال: الجهل والظلم والهوى والخداع.

قلت: لماذا هذه الأربع؟

قال: جهلها يجعلها تكذب عليك في نقل الحقائق.

قلت: وظلمها؟

قال: يجعلها تضع الأشياء في غير مواضعها.

قلت: وهواها؟

قــال: يجعلهــا تســترالروائح المنتنــة ببعض العطــور السامة.

قلت: وخداعها؟

قال: هو احتيال النفس على نفسها.

الجهل:

قلت: فكيف أعرف جهل نفســي؟ ولمــاذا أبحث عن جهلها؟ ألا يزيدني ذلك حزنا وأسفا وألمــا؟.. وكــل ذلــك ينافي السلام الذي تعلمني إياه.

قال: علمك بجهل نفسك هو الذي يدعوك إلى السلام وإلى السعادة وإلى الطمأنينة، ويكف شر نفسك عنك.

قلت: كيف؟

قال: علمك بعلمك يدلك عليك، وعلمك بجهلك يجعلك تبحث عنه.

قلت: زدني توضيحا.

قال: كلام الله سيزيدك توضيحا.. بماذا أجاب قارون الصالحين من قومه عندما قالوا له:{ لا تَفْـرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}(القصص: 76)

قلت: أجابهم بقوله:{ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} (القصص: 78)

قال: فقد كان يعزل الله إذن عن إعطائه ذلك المال.

قلت: أجل.

قال: فعلمه إذن كان ساترا لجهل عظيم له أثره الخطير في حياته.

قلت: نعم، ولذلك رد القرآن الكريم عليه قائلا:{ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ } (القصص: 78)

قال: أتدري ما يقول له بهذا؟

قلت: نعم، كأنه يقول له:(لماذا اكتفيت بذلك العلم، ولماذا لم تبحث عن علم آخر أهم، وهو العلم بمصاير الأقوام الذين أبيدوا، وعن سبب إبادتهم، ليكون لك ذلك موضع عبرة)

قال: صدقت، ولكن لماذا لم يتعلم قارون هذا النــوع من العلم؟

قلت: لعله لم يجد معلما.

قال: لا.. ولكنه لم يجد استعدادا من نفســه لتعلمــه.. ولو وجد الاستعداد لأرسل الله له من يعلمه.

قلت: كيف؟

قال: إن العلم الــذي عنــده، والــذي هــو في حقيقتــه جهل يستر علمــا، منعــه من قبــول غــيره أيــا كــان ذلــك الغــير، ألم تســمع قولــه تعــالى:{ فَلَمَّا جَـاءَتْهُمْ رُسُــلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَـاقَ بِهِمْ مَـا كَـانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} (غافر:83)

قلت: بلى، فالله تعالى في هذه الآية يخبر عن الأمم المكذبة بالرســل في قــديم الــدهر، ومــاذا حــل بهم من العذاب الشديد مع شدة قــواهم، ومــا أثــروه في الأرض وجمعوه من الأموال، فما أغــنى عنهم ذلــك شــيئاً ولا رد عنهم ذرة من بأس اللّه، وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم، واســتغنوا بمــا عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

قال: فقد أرسل الله إلى هــؤلاء من يعلمهم، ولكنهم لتعالمهم الذي هو عين الجهل وأساس الجهل لم يقبلــوا منه.

قلت: نعم، هذا صحيح، وقد وقع فيه أكثر المنحرفين عن الله المجادلين أولياء الله.

قال: بل قل: وقع فيه كل المنحرفين عن الله، فأول خطــوة للانحــراف هي الجهــل، كمــا أن أول خطــوة للتحقيق هي العلم.

قلت: ولهذا جعل الله تعالى علة ما حاق بــالقرى من

هلاك هو الجهل، كما قال تعالى:{ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} (الأنعام:111)

قال: ألا ترى القوة التي يتمتع بها الجهل في التأثير في صاحبه، وفي صده عن الحقائق؟

قلت: نعم.

قال: بل إن الله تعالى يخبر بأن كل المعجزات لن تستطيع التأثير في الإنسان الجاهل.

قلت: لماذا؟

قال: لأنه سيجد من الحلول ما يغير به الحقائق، ألم تسمع قوله تعالى:{ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ}(الحجر:14 ـ 15)

قلت: نعم، فالله تعالى يخبر عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق بحيث أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك، بل بل أرجعوا ذلك إلى عماهم أو إلى السحر.

قال: فما سبب عمى أعينهم عن آيات الله؟

قلت: ما جعل فيها من الغشاوة، وما جعل في قلوبهم من الأكنة، كما قال تعالى:{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} (الأنعام:25)

قال: وتلك الأكنة التي منعتهم من معرفة الحقائق ماذا تضع بدلها؟

قلت: الأوهام، والجهـل، بحيث تجعلهم يكـابرون كـل شيء حتى المحسوس، كما قال تعالى:{ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}(الأنعام:7)، فهؤلاء كابروا ما لمسوه بأيـديهم.. وقـال تعـالى:{ وَإِنْ يَـرَوْا كِسْـفاً مِنَ السَّـمَاءِ سَـاقِطاً يَقُولُـوا سَـحَابٌ مَرْكُـومٌ}(الطـور:44) وهـؤلاء كابروا المرئي المشاهد.

قال: بل هم كابروا بحواسهم جميعا كـل آيـات اللـه، كما قال تعـالى:{ وَإِنْ يَـرَوْا آيَـةً يُعْرِضُـوا وَيَقُولُـوا سِـحْرٌ مُسْتَمِرٌّ}(القمر:2)

قلت: لقـد اقتنعت بكـل هـذا، ولا أحسـبني أخالفـه.. ولكني لم أفهم علاقة هذا بالاستعفاف؟

قال: الاستعفاف هو بذل الجهد لتحصيل العفاف عن أيــدي النــاس، وقــد عرفنــا أن ذلــك لا يكــون إلا بعــد الاستعفاف عن النفس، والنفس لا يسـتعف عنهـا إلا إذا علم جهلها.. أيمكن لملك عادل أن يســلم أي وزارة من وزاراته لغير المختصين؟

قلت: هذا محال.. لأنهم سيفسدون ولا يصلحون.

قال: فإذا وكل الإنسان لنفسه الجاهلـة تـدبير أمـره، ألا تكله إلى الخراب؟

قلت: نعم، مثل النفوس الـتي خـربت بنيـان قـارون وفرعون وجميع المشركين والملحدين.

قال: بل تخـريب كـل سـلوك، ألم تسـمع قولـه ﷺ:(إن اللّه عز وجل يقول يوم القيامة: يـا ابن آدم مرضـت فلم تعــدني! قــال: يــا رب كيــف أعــودك وأنت رب العالمين؟ قـال: أمـا علمت أن عبـدي فلانـاً مـرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدتـه لوجـدتني عنـده؟ يـا ابن آدم اســتطعمتك فلم تطعمــني! قــال: يــا رب كيــف

أطعمــك وأنت رب العــالمين؟ قــال: أمــا علمت أنــه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنــك لــو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسـقيتك فلم تسقني! قال: يا رب كيف أسـقيك وأنت رب العـالمين؟ قـال: استسـقاك عبـدي فلان فلم تسـقه! أمـا إنـك لـو سقيته لوجدت ذلك عنـدي!)(1)، فقـد أرجـع اللـه جهـل العبد بهذه المعاني هو الذي أوصله إلى ذلك التقصير.

قلت: بــل أخــبر ﷺ عن تــأثير الجهــل من الناحيــة الاجتماعية، فقال:(إن اللَّه لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من النـاس، ولكن يقبض العلم بقبض العلمـاء، حـتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوسـاً جهـالاً فسـئلوا فـأفتوا بغــير علم فضــلوا وأضــلوا)(2)، فقــد أرجــع ﷺ ســبب الضلالة إلى اتخاذ الرؤساء الجهال.

وأخبر ﷺ عن الهلاك الذي حاق بالأمم نتيجة تعالمهــا على كتبها، فقال:(إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضـربوا كتاب الله بعضـه بعضـا، وإنمـا نـزل كتـاب اللـه يصـدق بعضه بعضا ولا يكذب بعضه بعضا، ما علمتم فيه فقولوا وما جهلتم فكلوه إلى عالمه)(3)

قــال: فلــذلك كــانت أول حلقــة تقطــع من سلســلة الطمــع في النفس هي يقينــك بجهلهــا، فيقينــك بجهلهــا يوصلك إلى التعلم منه، فلا يتعلم إلا الجاهل.

قلت: لقد ذكرتني بقوله ﷺ:(لا يزال الرجــل عالمــا حتى يقول علمت، فإذا قالها فقد جهل)

الغرور:

قال: ألم تعلم ما الذي جعل فرعون يدعي الألوهية؟

---

1)) مسلم.

2)) البخاري ومسلم.

3)) البيهقي ن ابن عمرو.

قلت: قومه، فقد قال تعالى:{ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ}(الزخرف:54)

قال: وقبل قومه.

قلت: أنا لم أقرأ تاريخ فرعون حتى أعلم مصادر ادعائه الربوبية بالضبط، فقد يكون تأثر في ذلك بالديانات الفارسية أو الهندية..

قال: لا.. فقد ذكر القرآن الكريم ذلك.

قلت: أين؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى:{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ}(القصص:38)

قلت: بلى، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في موضع آخر، قال تعالى:{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ}(غافر:36 ـ 37)

قال: فما هي العلة التي ذكرها القرآن الكريم، والتي كانت سبب ما ادعاه من دعاوى؟

قلت: أليس هو الغرور الذي جعله يعتقد أنه يعلم العلم الذي لا جهل فيه، أو لا جهل معه.

قال: نعم، فالجهل بالجهل يولد الغرور.

قلت: فالغرور إذن وليد الجهل.

قال: وقد يكون ولدا غير شرعي للعلم.

قلت: كيف؟

قال: إذا حبس في قفص علومه، أو سقط في مهاوي معارفه، أو تاه في ظلمات كتبه وأوراقه.

قلت: ما أرى العلم إلا نورا، فكيف ترميه بالظلام، وما أره إلا حرية، فكيف ترميه بالقفص، وما أراه إلا رقيا، فكيف ترميه بالهاوية.

قال: ذلك هو العلم الذي لا يقف صاحبه عنده، بل يظل دائما صفحة بيضاء تنتظر أقلام الأبد لتكتب عليها.

قلت: فسر لي هذا، وما الفربق بين الجهل والغرور؟

قال: الجاهل قد يسأل، فيتعلم، ولكن المغرور لا يسأل ولا يتعلم.

قلت: وإذا هداه الله، فسأل؟

قال: يسأل ليجادل، لا ليتعلم.

قلت: فإذا هداه الله، وتعلم؟

قال: يتعلم ليضم إلى غروره كبرياءه.

قلت: فما علاقة هذا بمد اليد إلى النفس؟

قال: المغرور لا يمد يده إلا إلى نفسه، لأنه يرى ما عداه أياد ممدودة إليه.

قلت: إذن المغرور لا يكون شحاذا على عتبات المساجد.

قال: قد يكون كذلك، ولكنه يتكبر على اليد التي تمده بالعطاء، وقد يحاول قطعها إن استغنى واكتفى، أترى استحالة ذلك؟

قلت: ربما، فما أكثر ما نسمع عنه من مقابلة الجميل بالكفران، والإحسان بالإساءة.

قال: ولهذا كان الغرور هو منبع جميع الأمراض

النفسية.

قلت: كيف.. الأمراض النفسية كثيرة جدا، والمستشفيات تستقبل كل يوم أنواعا جديدة من هذه الأمراض.

قال: ليست المستشفيات وحدها هي التي تستقبل هذا النوع من الأمراض، بل إن الشوارع تعج بها والمدارس والبيوت..

قلت: فكيف يكون الغرور منبعها؟

قال: اسمع القرآن الكريم، وستجد كيف تدلى الخلق بحبال الغرور في مهاوي السخط.

قلت: نعم.. القرآن الكريم يذكر كثيرا الغرور باعتباره سببا من أسباب الكفر والضلالة، فقد قال تعالى عن بني إسرائيل الذين تصوروا أن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة:{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}(آل عمران:24)

قال: وتحسب ذلك خاصا ببني إسرائيل؟

قلت: لا أظن أن في هذه الأمة المرحومة من ادعى أنه لن يمكث في النار إلا أياما معدودات بسبب ذنوبه.

قال: إن كلمة (الأمة المرحومة) التي ذكرتها منبع غرور للكثيرين.

قلت: كيف، فهذه الأمة مرحومة بلاشك.

قال: ولكن كل من ولد في هذه الأمة يتصور أنه من المرحومين، ولو بغير عمل يعمله، أو حسنة يقدمها، ولعله يتصور نفسه يحمل في صدره صكا من صكوك الغفران التي تقول له:(اعمل ما شئت فقد غفرت لك)

قلت: هذه حقيقة، وكل المبشرات تدل على هذا.

قال: وعلى ماذا يدل قوله تعالى:{ لَيْسَ بِأَمَـانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَـهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً } (النساء:123)

قلت: نعم.. إن الآية تقرر أن الجزاء الإلهي لا يخضـع لأماني الناس، بل يخضع لقانون واحـد يشـمل الجميـع.. ولكن مع ذلك فنحن..

قاطعني، وقـال: اللـه رب الجميـع، ألم تسـمع قولـه تعـالى:{ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَـارَفُوا إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ أَتْقَـاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِـيرٌ}(الحجـرات:13)، فهـل قـال الله تعالى أكرمكم فلان أو فلان؟

قلت: لقد ذكرتني بقـول ابن عبـاس ﵁:(ثلاث آيـات جحد من الناس) وذكر منها قوله تعالى:{ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَـاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِـيرٌ} (الحجرات:13)، قال: (ويقولون: إن أكـرمهم عنـد اللّـه أعظمهم بيتاً)

قال: ثم تظن بعـد هـذا أن هـذا الغـرور خـاص ببـني إسرائيل.. إن كـل مـا في القـرآن الكـريم لهـذه الأمـة، ولكنكم هـربتم من الحقـائق الـتي تـواجهكم لتحولـوه قصصا تسرد، وحكايات تروى، وأمثالا يلغز بها.

قلت: يا معلم، النسب إذن سبب من أسباب الغرور، ولكنـه خـاص بفئـات محـدودة، وقـومي ــ عمومـا ــ لا يكادون يعتبرونه.

قال: ولكنهم يعتبرون ما هو أخطر من النسب.

قلت: وماذا يعتبرون؟

قال: أم الخطايا.

قلت: لست أعرف للخطايا أما، ولا أبا.

قال: حب الدنيا هو رأس الخطايا وأمها وأصل أصولها، ألم تسمع قوله تعالى:{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} (آل عمران:185)

قلت: بلى، فقد وردت الآيات الكثيرة المحذرة من الاغترار بالدنيا، فالله تعالى يقول:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}(فاطر:5)

قال: أتعلم الحبال التي يتدلى منها الغررو بالدنيا؟

قلت: ما هي.. دلني عليها لأقطعها وأخلص الخلق منها؟

قال: هي حبال الشيطان، ألم تسمع قوله تعالى:{ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً }(النساء: 120) .. ألم تسمع قوله تعالى:{ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً }(الاسراء:64)

قلت: يا معلم.. لقد جلنا جولة في رحاب القرآن الكريم عرفنا من خلالها خطر الغرور وثماره، فما علاقة ذلك بالاستعفاف، وما علاقة ذلك بالفقراء؟

قال: مد اليد بالسؤال علة خطيرة لا تكفي في معالجتها المراهم التي تداوون بها جراحكم، بل لا بد من عملية ضخمة تبدأ من تصحيح الذات، وتصحيح الذات لا يمكن إلا بالتعرف عليها وعلى مواضع الغرور منها.

قلت: فاذكر لي مثالا على تأثير الغرور في هذا؟

قال: اسمع قوله تعالى:{ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ}(آل عمران:196)، وقوله:{مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ} (غافر:4)

قلت: في هاتين الآيتين يحذر الله تعالى من الاغترار بما حصل للكفار من أنواع المتاع الدنيوي.. ولكن لماذا حذر من هذا الاغترار؟

قال: لأن الغرور هو نقطة الضعف التي يتسرب منها الشيطان ليملأ قلب الإنسان هما وحزنا على حاله الهزيل، ويقارنه بحال المنتفخين، فإذا ما حصل الاغترار طلب الهزيل أن ينتفخ بنفس الأسلوب الذي انتفخ به غيره، فيقع فيما وقعوا فيه.

قلت: أريد توضيحا أكثر.

قال: أرأيت لو أن سلطانا عادلا اتخذ وزيرا مغرورا، أيمكنه أن يدير دفة وزارته إدارة تتناسب مع عدل السلطان؟

قلت: لا، بل قد يشوه عدل السلطان، بل قد يرمى بالجور لغرور وزيره.

قال: أرأيت لو أن وزير الحرب كان جاهلا بقوة جيش السلطان، ولكنه مع ذلك مغرور، أيمكن أن يزف البلاد إلى حرب لا طاقة لها بها؟

قلت: نعم، ذلك ممكن جدا خاصة إذا تصور أنه لن يحقق ذاته إلا بخوض الحروب.

قال: فكذلك النفس لو أمرت عليها الغرور، فإنها ستتردى في حروب لا طاقة لها بها، ليس مع ذاتها فقط، بل مع ذاتها ومع الناس ومع الله.

قلت: فما الحل؟

قال: أن تهرب منها إلى اللـه، فلا تمـد يـدك إلا إليـه، ألم تسمع ما قال الصالح:(دع نفسك وتعال)

قلت: كيف أدع نفسي، وهي أنا؟

قال: دع مـا يحـول بينـك وبين ربـك من نفسـك، فلا يمكن أن تمد يدك إليه ويدك ممدودة إلى نفسك..

ثم التفت إلي، فــرأى تســاؤلات كثــيرة في عيــني فقال: أتعلم ما هو أشد المواقـف على رسـول اللـه ﷺ في فترة رسالته الأولى قبل البعثة.

قلت: أشدها ذهابه إلى الطائف، حيث تقطن ثقيـف، وهي تبعد عن مكة نحو الخمسين ميلاً، سارها محمد ﷺ على قدميه جيئة وذهوباً، فلما انتهى إليها قصد إلى نفــر من رجالاتهــا الــذين ينتهي إليهم أمرهــا، ثم كلمهم في الإسلام ودعـاهم إلى اللـه، فـردوه -جميعـاً- رداً منكـراً، وأغلظـوا لـه الجـواب. ومكث عشـرة أيـام، يـتردد على منازلهم دون جدوى.

فلمــا يئس الرســول ﷺ من خــيرهم قــال لهم: إذا أبيتم، فـاكتموا عليَّ ذلـك -كراهيـة أن يبلـغ أهـل مكـة، فتزداد عداوتهم وشماتتهم- لكن القوم كـانوا أخس ممـا ينتظر. قالوا له: اخرج من بلدنا، وحرّشوا عليه الصــبيان والرعاع فوقفوا لـه صـفين يرمونـه بالحجـارة. وزيـد بن حارثة يحاول الدفاع عنه حتى شج في ذلك رأسه.

وأصيب الرسول ﷺ في أقدامه، فسالت منها الدماء واضـطره المطـاردون إلى أن يلجـأ إلى بسـتان لعتبـة، وشيبة، ابني ربيعة، حيث جلس في ظـل كرمـة يلتمس الراحة والأمن[1].

قال: وعندما استراح في ذلك البستان، وهو في تلك

1)) فقه السيرة للغزالي.

الحال، هل مد ﷺ يده إلى نفسه يطلب منها إغاثته بصنوف الحيل ليخرج من ذلك المأزق؟

قلت: لا، بل روى علماء السير أنه بمجرد جلوسه في ظل الكرمة أخذ يدعو الله قائلا:(اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس..أنت أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي.. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي.. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل علي غضبك، أو أن ينزل بي سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك..)

قال: فهل شكى رسول الله ﷺ الناس إلى ربه؟

قلت: لا، بل شكى نفسه، واستعاذ من غضب ربه عليه.

قال: فلو كان في هذا الموقف مغرورا بنفسه معظم لها ماذا كان سيفعل؟

رأيت أن أحسن وسيلة للإجابة على سؤال المعلم هي أن أعرض نفسي على ذلك الموقف لأرى ما الذي سيمكن أن أفعله.. لقد تصورت نفسي مادا يدي إلى الله أسأله أن يدمرهم ويبيد خضراءهم ويقطع نسلهم ويشردهم، فيذوقوا من الأهوال أضعاف ما ذقت.. أو رأيتني أقول لنفسي:(لئن تمكنت منهم لأرينهم شر ما صنعوا)

قال لي معلم السلام، وقد رأى شرودي: وتبقى وحدك بعدها مع وزيرك المغرور الذي حرم أمما من فضل الله بسبب موقف من مواقف الأنفة.

قلت: لقد ذكرتني بمتسول كان يمد يده إلى الناس،

وكان يختلف عن سائر المتسولين في أنـه لا يـدعو لمن أعطاه، وإنما يدعو على من لم يعطه.. وكـان مـع ذلـك أكثر المتسولين مكاسب، فالناس يخـافون من دعـوات السوء أكثر من رجائهم لدعوات الخير..

الهوى :

قال لي معلم السلام: الصفة الثالثة التي تجعلك تمد يدك إلى نفسك هي الهوى.

قلت: ما الهوى؟

قال: هو وزير من وزراء النفس تعرض عليه الحلـول المختلفة لجميع المشاكل، فلا يبصر منهـا إلا مـا يوافـق ذوقه.

قلت: وماذا يفعل بالحلول الأخرى؟

قال: يرميها، أو يتهمها، أو ينكرها، أو يلتمس صـنوف الحيل ليقنع عقله بمخالفتها.

قلت: ولكن الـدين أعظم من العقـل، فنـوره أكـثر امتـدادا من امتـداد العقـل، فلـذلك قـد تقتنـع حقيقـة الإنسان بما يمليه الدين، ويترك مـا يمليـه العقـل الـذي سلم نفسه للهوى.

قال: ولكن الدين نفسه قد يصـبح لعبـة بيـد صـاحب الهوى.

قلت: ولكن الدين بيـد اللـه، ولا يمكن أن يصـبح بيـد أحد من الناس؟

قال: ألم تعلم بأن الهوى من أخطر أسـباب تحريـف الأديان، ومن أكبر سراديب الاعتراض؟

قلت: بلى، فقد قرأت في القرآن الكـريم كثـيرا من هـذا، قـال تعـالى:{ فَـإِنْ لَمْ يَسْـتَجِيبُوا لَـكَ فَـاعْلَمْ أَنَّمَـا

يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}(القصص:50)

ثم أخذت نفسا عميقا، وقلت: الحمد لله لقد من الله على هذه الأمة، فحفظ كتابها وسنة نبيها ﷺ، فلذلك لم تستطع كل شياطين الهوى أن تبدل هذا الدين أو تغيره.

قال: نعم، هذا من رحمة الله، ولكن للهوى سلطانه على النفوس، فلذلك قد يفسر الحق الذي لا مرية فيه بالباطل الذي لا شك فيه، أولم تسمع نهي الله لهذه الأمة عن طريق نبيها من الجثو أمام الأهواء، ألم تسمع قوله تعالى:{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ}(الرعد:37)

قلت: أيمكن للهوى أن يقلب الحقائق المستقرة؟

قال: في نفس صاحب الهوى تنقلب الحقائق انقلابا تاما.

قلت: لماذا؟

قال: ألم تعلم بأن الهوى قد يتحكم في الإنسان فيصير معبودا له من دون الله، ألم تسمع قوله تعالى:{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ}(الجاثية:23)؟

قلت: بلى، وقد سمعت أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام:(يا موسى، خالف هواك فإني ما خلقت خلقا نازعني في ملكي إلا الهوى)

قال: فإذا انقلب وزير الهوى على الملك إلها واستوى على عرشه، أيمكن لأحد أن يقنعه باتباع حق أو بالارتداع عن باطل؟

قلت: فكيف أنقلب على هواي؟

قال: برفع ثقتك من نفسك، وبتركك الأمل فيها، وباللجوء إلى الله.

قلت: فما مثل ذلك؟

قال: إذا أراد الوزير الانقلاب على الملك، ماذا يفعل؟

قلت: يستعين بالجند وبكل ما أمكنه من طاقات.. ولكن الهوى أخطر من الملك فهو يدعي الألوهية من دون الله.

قال: فحاربه بالله.

قلت: كيف؟

قال: بمد يدك إليه.

قلت: وكيف أمد يدي إليه؟

قال: بعدم مدها إلى نفسك، ألم تسمع قوله تعالى:{ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى }(النازعات:41)

الخداع:

قلت: وعيت هذا.. فما الصفة الرابعة التي تجعلني أمد يدي إلى نفسي؟

قال: هي قدرة نفسك العظيمة على الخداع.

قلت: وما الخداع؟

قال: هو وزير من وزراء النفس يضع لك الحيل المختلفة، ويوجد لك الحلول لمختلفة، ولكنها كلها ترمي

بك في الهاوية.

قلت: لعلك تقصد ما قال الغزالي في قوى النفس:(والعبد الجالب للميرة كـذاب مكـار خـداع خـبيث يتمثـل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتـل وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتدبيراتـه حتى لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة)[1]

قـال: نعم رحم اللـه الغـزالي، فقـد كـان خبـيرا بالنفوس.

قلت: ولكن كيف أكتشـف خـداع نفسـي لي، وكيـف أفرق بين نصائح الوزير الناصح، وخداع العبد المحتال؟

قـال: بخروجـك من نفسـك ورفعـك ثقتـك عنهـا، وعودتك إلى الله.

قلت: أتضرب لي أمثلة على خداع النفس.

قال: نعم، سأضرب لـك مثـالين على خـداع النفس، وتلاعبها بصاحبها.

قلت: فما **المثال الأول**؟

قال: خدعة اسمها (خدعة الإحسان السابق)

قلت: ما هي هذ الخدعة؟

قال: عبر عنها شاعركم بقوله:

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

قلت: هذا قياس، ولعل معناه صحيح، فإن صـاحب الإحسان السابق لا يستغرب منه الإحسان اللاحق.

قـال: والمخـادع هـو الـذي يلبس لبـاس الحـق

1)) الإحياء: 3/6.

ليشتري به الباطل أو ليبيع به الباطل.

قلت: فأي باطل هذا الذي يريد ببيعه أو شراءه؟

قال: هو باطل الهوى، فهو كلما هوى شيئا اشتراه بمخادعته لنفسه، ألم تسمع قوله تعالى في خبر الرجلين المتحاورين:{ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً }(الكهف: 36)؟

قلت: بلى .. ولكن كيف احتالت النفس على نفسها بهذه الحيلة؟

قال: هو قياس من أقيسة إبليس .. وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة، كما قال تعالى: { وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ } (المجادلة: 8)، فقال تعالى جواباً لقولهم:{ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ}(المجادلة: 8)

وترتيب القياس الذي نظمه في قلوبهم أنهم يقولون: قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا، وكل محسن فهو محب، وكل محب فإنه يحسن أيضاً في المستقبل(1).

قلت: أليس كل محسن محب، أو لم تستدل أنت على كون الله محبا لنا بإحسانه إلينا؟

قال: بلى .. كل محسن محب، ولكن من قال لهم: إن هذا إحسان محبة، ألم يجعل الله الدنيا دارا للابتلاء، كما قال تعالى:{ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} (الانبياء: 35)، فالله تعالى يبتلي بالغنى كما يبتلي بالفقر، ويبتلي بالقوة كما يبتلي بالعجز؟

---

1)) الإحياء: 3/283.

قلت: لقد فهمت هذه الخدعة، وما أكثر انتشارها بين قومي، بل إن القرآن الكريم نص عليها باعتبارها مغالطة من المغالطات الكبرى التي قد يخدع بها كل إنسان إلا أولو الألباب، فقال تعالى:{ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} (الفجر:15 ـ 16)

قلت: لقد فهمت المثال الأول، ورأيت نوع المغالطة فيه، فهات **المثال الثاني**.

قال: هذه الخدعة تسمى خدعة النعامة.

ضحكت، وقلت: وما خدعة النعام؟

قال: أنتم تنسبون أشياء كثيرة للحيوانات، فتسمون الرقص الماجن (رقصة البجعة)، فكيف غابت عنكم (خدعة النعامة)؟

قلت: لا أدري.. أرقصة هي كذلك؟

قال: هي نوع من رقص الشياطين على عقل الإنسان.

قلت: أفيتحول عقل الإنسان بذلك إلى مرقص.

قال: إن العقل الذي يستطيع أن يصير عرشا للملوك، وجنة من جنان الكمال، وجامعة من جامعات العلم، لن يستحيل عليه أن يصير مرقصا أو مستنقعا أو ساحة حرب.

قلت: فاشرح لي هذه الخدعة حتى لا تنطلي علي.

قال: يحكى أنه قيل للنعامة (إبل الطير): لماذا لا تطيرين؟ فانك تملكين الجناح، فقبضتْ وطوتْ جناحيها قائلةً: أنا لست بطائر بل إبل، فأدخلت رأسها

في الرمـــل تاركـــةً جســـدها الضخـــم للصـــياد، فاســتهدفها.. ثم قــالوا لـــها: فاحـــملي لنــا إذن هــذا الـحـــمل إن كنتِ إبلا كمــا تــدّعين، فعنــدها صــفّت جناحيها ونشرتهـما قائلـة: أنـا طـائر، وتفلت من تعب الحمل. فظلت فريدة وحيدة دون غذاء ولا حمايـة من أحد وهدفاً للصيادين.

قلت: هذه حكاية جميلة متداولة، فما وجه الخدعة فيها؟

قـــال: هـــذا المثـــال ينطبـــق تمامـــا على النفس المخادعة التي تحاول أن تتهرب من التكاليف الحلـوة اللذيذة لتقع في الحفر التي لم تحسب حسابها.

لا أمل فيهم:

وقفت مع المعلم أمـام الجـوهرة الثانيـة من جـواهر الاستعفاف، فسألت المرشد عنها، فقال: هذه جوهرة (لا أمل فيهم)

ابتسـمت في نفسـي من هـذه الأسـماء الغريبـة، ثم التفت إلى المعلم ليشـــرح لي حقائقهـــا، فلا يمكن أن أنالها بدون الوصول إلى حقيقتها والاقتناع بها.

نظر إلي المعلم، وقال: إن أردت أن تيـأس ممـا في أيدهم فقل:(هم فقراء.. هم عـاجزون.. هم ظـالمون.. هم بخلاء)

قلت: هم فقـراء.. هم عـاجزون.. هم ظـالمون.. هم بخلاء.. لكن يا معلم لا أرى هذه الكلمات أغنتني شيئا.

قال: أنت تداوي جـرح رجليـك بمسـح المـرهم على يديك.

قلت: كيف؟

قال: ذلك الدواء الذي وصفته لك لا تأكله بفمك.. بل

دع قلبك يلتهمه ليمسح عنه ذلك الأمل الكاذب.

قلت: ولكن القلب لا يأكل ولا يشرب، ولا تعتريه العوارض.

قال: بلى .. إنه يأكل ويشرب.. يأكل الحكمة ويشرب العلم.. لينبت شجرة الإيمان التي قال الله تعالى فيها:{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ}(ابراهيم: 24)

قلت: وكيف آكل تلك الكلمات، وكيف أشربها؟

قال: بأن تتعلم ما فيها من حقائق الحكمة، فلا يمكن لأشعة جوهرة (لا أمل فيهم) أن تنزل على صدرك لتحققك بحقائق الاستعفاف إلا إذا علمت ما فيها.

قلت: وما فيها؟

قلت: فيها الترياق الذي يرفع أملك عن الخلائق.

قلت: لماذا أرفع أملي من الخلائق؟

قال: لترفع يدك عنهم، فإن يدك لا تمتد إلا لمن تطمع فيه..

قلت: فلنفرض أني قطعت أملي من الخلائق؟

قال: تلك أول خطوة تحققك بالاضطرار، ألم تسمع الحق تعالى وهو يقول:{ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ}(النمل:62)؟

قلت: أتحققي بالاضطرار نعمة؟

قال: من أكبر نعم الله عليك أن لا تحتاج إلا إليه، وأن لا تمد أعناق همتك إلا إليه.

قلت: لكأني بك تقصد قول ابن عطاء اللـه:(لا تتعـدنية همتك إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه الآمال)

قال: فمن الكريم هنا؟

قلت: الله، فهو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعــد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجـــاء، ولا يبـــالي كم أعطى، ولا لمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفي عاتب وما استقصـى، ولا يضـيع من لاذ به والتجا، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء.

قال: فهل يستحق هذه الصـفات بكمالهـا أحـد من خلق الله؟

قلت: لا.. فذلك مستحيل.. فإن مثل هـذا الكـرم لا يمكن أن يكون إلا ممن خزائنـه لا تنفـذ.. أمـا خزائننـا فسريعة النفاذ.. ولو امتلأت ففينا من البخل مـا يمنـع التكرم بها.

قال: فلماذا إذن تتخطون الرقاب، ولمـاذا تـتركون عــزة المــادين أيــديهم إلى اللــه لتســحقوا في ذلــة المادين أيديهم إلى خلقه.

ثم سكت هنيهة، وأخذ يردد قول الشاعر الصالح:

حـــرام على من وحـــد اللـــه ربه

وأفــرده أن يجتــدي أحــداً رفــدا

ويــا صــاحبي قــف بي مــع الحــق وقفة

أمــوت بهـا وجـداً وأحيـا بهـا وجـدا

وقـل لملـوك الأرض تجهـد جهـدها

فـذا الملـك ملـك لا يبـاع ولا يهـدى

ثم التفت إلي، وقـال: ألم تسـمع مـا قـال الحكيم بعد تلك الحكمة؟

قلت: بلى، فقد قـال:(لا تـرفعن إلى غـيره حاجـة هو موردها عليك، فكيف يرفـع غـيره مـا كـان هـو لـه واضـعاً؟ من لا يسـتطيع أن يرفـع حاجـة عن نفسـه، فكيف يستطيع أن يكون لها عن غير رافعاً؟)

قال: فهذه الجوهرة شرح لتلك الحكمة.

قلت: فلمـاذا كـانت هـذه الأربـع هي التريـاق الـذي يقيني من مد همتي إلى الخلائق.. فقد ذكـر اللـه تعـالى الإنسان بسلبيات كثيرة غـير هـذه، فقـد ذكـر أنـه كثـير النسيان وناكر للجميل، وأنه موجود ضعيف، وأنـه ظـالم وكـافر، وأنـه بخيـل قتـور، وأنـه عجـول، وأنـه مجـادل خصيم، وأنه موجود قليـل التحمـل والصـبر، يبخـل عنـد النعمـة ، ويجـزع عنـد البلاء، وأنـه طاغيـة عنـد الغـنى.. فلماذا اكتفيت بهذه الأربع عن هذه الصفات جميعا؟

قال: خصائص الإنسـان كثـيرة كمـا ذكـرت، بـل هي أكثر مما ذكـرت، فـإن كـل صـفة مـذكورة يتفـرع عنهـا صفات أخرى، تجعل الإنسان مسـتعدا لأن يـنزل أسـفل سافلين، ولكننا نتحدث هنا عن الصفات التي تيئسك مما في أيديهم.

قلت: فما وجه الحصر في هذه الصفات؟

قال: إذا علمت مساواتهم لك في الفقر لم تمد يدك إليهم، وهل يمد مريض يده لمريض مثله.. وهل يمد غريق يده إلى غريق؟

قلت: ولكن الناس ليسوا كلهم فقراء، فلذلك لا أمد يدي إلا إلى الأغنياء منهم.

قال: فهم بخلاء.. يكنزون أموالهم، ويخافون إهدارها عليك وعلى أمثالك.

قلت: ولكن فيهم الكرام، وهل عقمت الأرحام أن يلدن مثل حاتم؟

قال: فهم ظالمون يضعون كرمهم في المواضع التي لا تصيبك.

قلت: سأعرفهم بحاجاتي التي أعرفها وأشرحها لهم.

قال: فهم عاجزون.. لأن حاجاتك أكثر من أن يسدها فقير وظالم وبخيل وعاجز.

قلت: يا معلم، لدي شبهة هنا، قد يتعلق بها من يتعلق.

قال: وما هي؟

قلت: إن هذه المعارف تحيلني يائسا قانطا، أليس القنوط كفرا؟

قال: ذلك هو القنوط من الله، واليأس من رحمته، فقد قال تعالى على لسان يعقوب ﵇:{ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} (يوسف: 87)

قلت: ومع ذلك، فقد يقاس اليأس من الخلق باليأس من رحمة الله بنوع من القياس أليس الخلق واسطة

من وسـائط الفضـل!؟.. فاليـأس من وسـائط الفضـل يأس من الموسوط صاحب الفضل.

قال: ألا تعلم أن أول من قاس إبليس حين قال:{ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}(لأعـراف: 12)؟

قلت: تخليت عن القيـاس.. فأنـا لا أكـاد أومن بـه .. ولكن ماذا يفيدني أن أعلم فقر الخلائق وعجزها وبخلهـا وجهلها.

قال: يخلصك من عبوديتهم والأمـل ممـا في أيـديهم ويجعل أملك في الله.

قلت: فكيــف لقلــبي أن يرفــع الأمــل من الخلــق، ويتحقق باليأس مما في أيديهم.

قــال: بتعلم حقــائق هــذه الكلمــات، فــإن القلب لا يتغذى إلا االكلمات النابعة من منابع الحكمة.

الفقر:

قلت: فعلمني أولها.

قال: أول حقيقة يتشربها القلب لتبث فيه اليأس من أيدي الخلائق أن يعلم فقرهم.

قلت: فـالفقر إذن ليس خاصـا بفلان من النـاس، ولا بدولة من الدول.

قال: الفقر هو سمة الكون جميعا.. أما الغني الوحيد في هذا العالم فهو الله تعالى، ألم تسـمع قولـه تعـالى: { يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَـرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} (فاطر:15)

قلت: فهلا أفهمت بصيرتي ما تعنيه هذه الآية.

قال: الفقر في حقيقته هو الحاجة، وهي ليست مختصرة فيما اصطلح عليه الناس من أصناف الحاجات، بل هي كل شيء وهبه الله تعالى لعباده ابتداء من وجودهم، وانتهاء بالأرزاق التي تفاض عليهم في كل حين.

قلت: فاضرب لي أمثلة على ذلك تجعلني أتصور الحقائق، فلا يمكنني تعقل الحقائق قبل تصورها.

قال: ما هي أصناف الحاجات التي يحتاج الخلق إلى سدها؟

قلت: هي كثيرة جدا، ففي الإنسان من الحاجات بحسب عدد خلاياه.. بل بحسب عدد الذرات التي يتشكل منها بنيانه.

قال: ففي الإنسان من الفقر إذن بحسب الذرات التي يتشكل منها بنيانه.

قلت: كيف؟

قال: لأن الفقر هو الحاجة.. ففي كل ذرة حاجة من الحاجات.. وفاقة تستدعي أن تسد.

قلت: هذا صحيح.. ولكن لحاجات الأغنياء ما يسدها بخلاف حاجات الفقراء.

قال: الأغنياء يسدون جزءا من مليون جزء من حاجاتهم.. أو هو جزء لا يكاد يرى.

قلت: كيف؟ أكل تلك الثروات التي يمتلكونها.. والخزائن التي يوصدونها.. والأموال التي يرصدونها لا يسدون بها إلا حويجات قليلة.

قال: بل في الحقيقة لا يسدون شيئا، ألم تسمع موعظة ابن السماك حين دخل عل بعض الخلفاء..

قلت: وبيد الخليفة كوز ماء يشربه، فقال له: (عظنى) فقال:(لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان، فهل كنت تعطيه؟ قال: نعم فقال:(لو لم تعط إلا بملكك كله، فهل كنت تتركه؟ قال: نعم قال: فلا تفرح بملك لا يساوى شربة ماء.

قال: فهل فهمت ما في هذه الحكمة من حكمة؟

قلت: هي واضحة، فنعم الله على عباده لا تعد ولا تحصى، وكأنه يقول له: إن نعمة الله تعالى على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها.

قال: فنعم الله إذن لا تعد، ولا تحصى؟

قلت: أجل، بل قد ورد التنصيص على هذا مرتين في القرآن الكريم، قال تعالى:{ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْأِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}(ابراهيم: 34)

قال: فلماذا تنزل نعم الله؟

قلت: تنزل من فضل الله وجوده، فالله كريم جواد:

وَهُوَ الجَوَادُ فَجُودُهُ عَمَّ الوُجُو دَ جَمِيعَهُ بِالفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

وَهُوَ الجَوَادُ فَلا يُخَيِّبُ سَائِلاً وَلَوْ أنَّهُ مِنْ أُمَّةِ الكُفْرَانِ

قال: لم أسألك عن مصدر النعم، وإنما سألتك عن علل نزولها.

قلت: هي تنزل لتسد حاجات الخلائق.

قال: كيف يكون ذلك؟

قلت: إن الجود الإلهي يسد فاقة الجوع بالإطعام، كما يسد فاقة البرد باللباس، كما قال ﷺ في الحديث القدسي:(يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم)(1)

قال: فأنت تقر إذن بأن نعم الله لا تحصى، وأن فضله لا يعد، ثم تذكر بأن ذلك الفضل وتلك النعم غايتها سد حاجات الخلق.

قلت: كل هذا صحيح، فما علاقته بفقر الخلائق؟

قال: إن هذا يوصلك إلى حقيقة فاقة الخلائق، لأنه لولا حاجاتهم الكثيرة غير المحصورة لما نزلت النعم غير المحصورة، والفاقة هي عين الفقر.

البخل:

قلت: نعم فاقة الخلائق ضرورة لا ينفكون عنها، فما بخلهم؟ وهل البخل إلا لمن يملك؟

قال: نعم يملكون.

قلت: كيف يملكون.. وهم فقراء.. أليس في ذلك تناقضا؟

قال: إن الله بحكمته أعطى الأغنياء بعض ما قد تمس إليه حاجة الفقير ليبتلي الغني بالفقير، والفقير بالغني، ألم تسمع قول الحق تعالى:{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} (الأنعام:165)؟

---

1) رواه مسلم.

قلت: فما تحمل هذه الآية من الإشارة إلى هذا المعنى؟

قال: هذه الآية تشير إلى الحقائق التي ينطوي عليها بخل الإنسان.

قلت: كيف ذلك؟.. لا أرى فيها ما تقول.

قال: قوله تعالى:{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ } يدل على أن الله تعالى جعل في أيدي بعض الناس ما يوصلون به الفضل الإلهي لعباده، فهم خلفاء في توصيل هذا الفضل، بدليل قوله تعالى بعدها:{ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾

قلت: أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وقد ورد مثل هذا في القرآن الكريم، قال تعالى:{ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً } (الزخرف: 32)، وقال:{ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً } (الاسراء:21)

قال: ولكن أكثر الخلائق يحبسون هذا الفضل.

قلت: لماذا؟

قال: لما في طبعهم من البخل، ألم تسمع قول الحق تعالى:{ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ }(النساء: 128)، فالشح طبع فيهم يغذونه بسلوكهم المنحرف.

قلت: ولكن لماذا غذوا بالشح الفطري، لماذا لم يغذوا بالكريم الفطري؟

قال: لأن الكرم الذاتي من صفات الغني، وليس ذلك إلا الله، أما الخلائق فلفقرهم وحاجاتهم اللامتناهية يخشون دائما نفاذ ما عندهم، فيبخلون على الخلائق به.

قلت: والكرماء من الخلق.. كيف يكرمون؟

قال: الأولياء يكرمون من خزائن الله لا من خزائنهم، فلذلك لا يعرفون البخل.

قلت: لماذا، وما الفرق بينهم وبين سائر الناس؟

قال: لأن البخيل يبخل بما يملك، وهم يعتقـدون أنهم لا يملكون شيئا مع الله.

قلت: ولهذا كـان ﷺ يقـول:(أنفـق يـا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا)(1)

قـال: أتـدري إلى أي شـيء التفت رسـول اللـه ﷺ عندما ربط بين ذي العرش والإنفاق؟

قلت: إلام؟

قـال: التفت إلى عـرش اللـه العظيم، فظهـرت لـه الأرض جميعا كشيء لا وجود له.

قلت: أجل، فإن العلم يؤكـد هـذا.. فـالأرض بالنسـبة للكواكب والنجوم لا تكاد تساوي شيئا..

قـال: وهـل اكتشـفتم شـيئا!؟.. إن كـل مـا ذكـره علماؤكم لا يعدو أن يكون جزءا ضئيلا من سـماء الـدنيا، وأين السماء الثانية والثالثة إلى السابعة!؟

قلت: وما نسـبة هـذا كلـه إلى العـرش الـذي التفت إليه رسول الله ﷺ؟

قال: إنها النسبة التي وردت بها النصوص المقدسـة، فقد قال ﷺ:(والذي نفسي بيده مـا السـموات السـبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقـة ملقـاة بـأرض فلاة، وإن فضـل العـرش على الكرسـي كفضـل الفلاة

---

1)) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (3/126) وقال: رواه الطـبراني في الكبير .. ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن.

على تلك الحلقة)(2)

قلت: وما علاقة هذا بما نحن فيه؟

قال: لتعرف بهذا سر قوله ﷺ:(أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا)، فقد ذكر ﷺ بوصفه صاحب العرش، ليذكر بلالا بأنه لا ينفق من عنده، وإنما ينفق من عند الله.

قلت: وما في هذا من العزاء للفقير، ومن تيئيسه مما في أيدي الخلائق؟

قال: فيه العزاء العظيم، فالفقير الذي ينشغل برؤية عرش الله، وخزائن الله لا يمد يده لأي أحد من الناس، بل يكتفي بمدها لله، فماذا يساوي الخلق جميعا أمام أبسط مخلوقات الله.

قلت: وهذا أيضا يجعل الفقير يشعر بفقر الخلق جميعا، فلا يحسدهم ولا يسألهم، ولا يتمنى أن يحصل له ما حصل لهم، كما قال تعالى:{ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ}(النساء:32)

قال: ألم تسمع الحق تعالى، وهو يقول في هذه الآية:{ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ}؟

قلت: بلى، فما وجه علاقتها بالنهي عن التمني؟

قال: لأن التمني يبدأ بجحود فضل الله، وينتهي بتمني زوال فضل الله، فلذلك نصحوا بدل الغرق في أودية الأماني أن يتوجهوا إلى المعطي والمتفضل، فمن أعطى أولا يعطي آخرا، ومن أعطى لفلان لا يعجز عن العطاء لفلان.

قلت: فهذا إذن أكبر علاج للحسد الذي يقع من الفقراء للأغنياء.

---

2) رواه ابن حبان.

قال: بل هو أكبر علاج لأمراض الطبقيـة الاجتماعيـة، فالطبقية ليست محصورة في الغنى والفقر.

ثم سكت هنيهة وقال: ليت بخلكم كـان قاصـرا على المال.

قلت: وهل هناك بخل أعظم من بخل المال؟

قـال: نعم بخلكم بالابتسـامة والبشـر، فإنهـا وإن لم تشـبع بطن الفقـير، فإنهـا تطمئن قلبـه، وتخرجـه من الكوابيس التي يعيشـها، ألم تسـمع قولـه ﷺ:(تبسـمك في وجه أخيك صدقة)(1)

قلت: صدقت، فإن معاناة الفقير النفسية أخطر من معاناته المادية.

قـال: فلـذلك إن لم تطيقـوا علاج جوعـه، فعـالجوا نفسه.

قلت: والكمال في استعمال كلا العلاجين.

خطر على بـالي حينهـا مـا ذكـره الشـعراء في آداب المضيف من خدمته لأضيافه وإظهار بسـط الوجـه لهم، فقلت: يا معلم لقد قال الشـعراء في هـذا كلامـا جميلا، فهل أجزت لي ذكره؟

قال: اذكره، فإن الحكمة أشرف من قائلها.

قلت: لقد نشر العرب في هذا مثلا يقول:

بشاشة وجه المرء خير من القرى فكيف بمن يأتي به وهو ضاحك

وقال الآخر:

وإنا لنقري الضيف قبل نزوله ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك

1)) البخاري في الأدب والترمذي وابن حبان.

قال: لقد أشار القرآن الكريم إلى كل هذا، فقال في خبر إبراهيم ﵇ عندما جاءه أضيافه من الملائكة: { وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} (هود:71)، فضحكها في هذا المحل يدل على مدى البشر الذي لاقوا به أضيافهم.

ثم التفت إلى الأفق البعيد وصاح من أعماقه هامسا، أو همس من أعماقه صائحا:(ليت البخلاء إذا خافوا على خزائنهم من الكرم أن لا يبخلوا بالبشر، فهو لا يكلفهم دينارا ولا درهما)

قلت: ولكنهم يخافون من جرأة الفقراء عليهم، فلذلك يعبسون في وجوههم كما تعبس خزائنهم، أو كي تعبس خزائنهم.

الظلم:

قال لي المعلم: أتعلم الصفة الثالثة التي ترفع أملك عن الخلق لتوجهه إلى الله؟

قلت: إنها الظلم، لقد ذكرت لي ذلك، ولكنها صفة الجبابرة، وقل من أراه يتصف بها.

قال: ومن قال ذلك؟ ألم يقل الله تعالى يصف البشر جميعا:{ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}(الأحزاب:72)

ثم التفت إلي، وقال: أتدري ما الظلم الذي وصف به البشر في هذه الآية؟

قلت: هو ما قاله المفسرون من أنه وضع الأشياء في غير مواضعها.

قال: كيف ذلك؟

قلت: كوضع القسوة بدل الرحمة، والإساءة بدل

الإحسان، والجفاء بدل اللطف، والعبوس بدل الابتسامة.

قال: فكيف يعامل أغنياء قومك فقراءهم؟

قلت: هناك من يكرمهم، وهناك من يقهرهم.

قال: ومن يقهرهم، كيف يقهرهم؟

قلت: بحرمانهم من حقهم.

قال: وبأخذ حقهم، فلولا قهر الأغنياء وجشعهم ما وقع الفقراء في مستنقعات الفقر؟

قلت: كيف ذلك؟

قال: لو علم الأغنياء أن هذا الرزق الذي خلقه الله خلقه للجميع، وعلموا أنهم فرد من ذلك الجميع أو أفراد من ذلك الجميع لم يستأثروا بنعم الله دون خلق الله.

ثم التفت إلي، وقال: أرأيت لو أن شخصا دعاك إلى وليمة، ودعا لها جمعا من الناس، وكانت لك ملاعق كثيرة تستطيع أن تنهب بها أكبر قدر من الطعام، أكنت تحضر معك تلك الملاعق لتأكل بيديك جميعا، فإن لم تكف يداك للاستيلاء على ذلك الطعام، ملأت من الأواني ما يدع المدعوين لشر المسغبة.

قلت: لا يمكن هذا، ولا أظن عاقلا يفعل هذا.

قال: ولكنكم تفعلونه، وتصرون على فعله، بل وتبررونه.

قلت: كيف ذلك، فأنا لم أر من يفعل هذا؟

قال: ما دور الملعقة في الطعام؟

قلت: هي وسيلة الطعام، بها نوصل الطعام إلى أفواهنا؟

قال: وما التجارة والصناعة والفلاحة؟

قلت: هي وسيلة الرزق، فبـدونها لا يحضـر الطعـام، كما أنه بدون الملاعق لا يصل إلى الأفواه.

قـال: فمـا الفـرق بين اسـتئثار الأغنيـاء بوسـائل الكسب، واستئثارهم بالملاعق؟

قلت: فرق كبير جدا، فـالملاعق يمكن أن يسـتعملها الغني والفقير والصبي والشيخ، بينما وسائل الكسـب لا يمكن أن يستعملها غير من له قدرات كبيرة في الإدارة والتسيير، بالإضافة إلى الصبر والمجاهدة.

قال: هذا صحح، ولهذا خلـق اللـه الأغنيـاء والفقـراء، ولكن هل يصح للغني الذي مكنه الله من هذه الوسـائل أن يسـتأثر بمنافعهـا بـدعوى أنـه هـو المجتهـد، وهم الكسالى، أو أنه هو الذكي وغيره بلداء.

قلت: لا، وإلا صار كقارون لما قال:{ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} (القصص: 78)

قـال: فعـد إلى الـثروات الـتي ينعم بهـا قومـك، وأخبرني: لو أن خيرات تلـك الـثروات وصـلت الفقـراء، من دون أن نحرم الأغنيـاء مـا يملكـون هـل يبقى فقـير واحد؟

قلت: لا، فالثروة التي ينعم بها أفـراد محـدودون في العالم يمكنها تغطية حاجيـات الملايين من البشـر إن لم نقل ملاييرهم.

قال: فالأغنياء إذن لم يكتفـوا بحرمـان الفقـراء، بـل استولوا على طعـامهم الـذي أعـد لهم في دار الضـيافة الإلهية.

ثم التفت إلي وقال: ما نسبة هذا النـوع من الأغنيـاء من مجموعهم؟

قلت: هي نسبة عالية جدا.

قال: ولا بد إن تكون عالية، ولو لم تكن عالية لما ظهر في الأرض فقير واحد.

قلت: ولكنهم يبررون ذلك تبريرات مختلفة بعضها يستند لأحكام شرعية.

قال: هي تبريرات لا تختلف في كثير أو قليل عن تبريرات سلفهم الأول الذين قال الله فيهم:{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}(يّـس:47)

ثم التفت إلي، وقال: ومن يكرمهم، كيف يكرمهم؟

قلت: يختلفون، منهم من يكرمهم لوجه الله، كما قال تعالى:{ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً}(الانسان:9)، ومنهم من يكرمهم لغير وجهه يبتغي بذلك قصائد تمدحه، أو ثناء ينشر عليه.

قال: فتلك الآيات التي ذكرتها فيمن نزلت؟

قلت: في فئة محدودة من هذه الأمة.

قال: وما نسبة تكرر هذه الثلة؟

قلت: أما المقربون، فهم ثلة قليلة، كما قال تعالى:{ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ}(الواقعة:14)، وأما غيرهم، فكثير بحمد الله.

قال: فما نسبتهم في كل واقع؟

قلت: قليلة.

قال: أنتم تتعاملون بمنطق النسب، فتتفاءلون للنسب العالية، وتتشاءمون من النسب الضعيفة، فهل هذه النسبة تستدعي التفاؤل أم التشاؤم؟

قلت: التشاؤم.. فنسبة هـؤلاء لا تكـاد تـذكر، بـل لـو كـان في كـل ألـف من الأمـة رجـل من أمثـال هـؤلاء لارتفعت الأمة إلى آفاق عالية من الكمال.

قال: كيف؟

قلت: لـو كـان في كـل ألـف منـا واحـد من أولئـك السابقين، لصـار في كـل مليـون ألفـا، وفي كـل مليـار مليونا، ونحن الآن نتجاوز المليار، ولا أظن أن فينا مليونا من أولئك.

قال: فنلفرض صحة هذه النسـبة الـتي ذكرتهـا، فكم فيها من الأغنياء الذين يسمح لهم غناهم بالكرم الأصيل العالي؟

قلت: نسبة قليلة هي الأخرى، لا تكاد تذكر.

قـال: فـدعنا من هـؤلاء إذن، فلا يمكن أن تتعلـق القلوب بمثل هـذه النسـب الضـعيفة.. فـأخبرني، كيـف يكرم كرماؤكم؟

قلت: يعطون المحتاجين؟

قـال: وهـل يبحثـون عن المحتـاجين فيعطـوهم، أم يمدون أيديهم لكل سائل؟

قلت: في العادة يمدون أيديهم لمن يسألهم.

قال: ولو كان من يسألهم لا يستحق العطاء.

قلت: يقولون: المهم أن أجرنا قد وصل بغض النظـر عمن نعطيـه، وربمـا يتسـدلون بمـا روي عن أبي يزيـد معن بن يزيـد بن الأخنس قـال: كـان أبي يزيـد أخـرج دنانير يتصدق بها فوضعها عند رجل في المسـجد فجئت فأخذتها فأتيته بها فقَالَ: واللّه ما إياك أردت! فخاصـمته إِلَى رَسُول اللّهِ ﷺ فقال:(لك ما نويت يا يزيد ولك مـا

أخذت يا معن)[1]

قال: أنت تسيئون فهم أحاديث المصطفى ﷺ.

قلت: كيف نسيء فهمها، وظاهرها صريح؟

قال: لقد وضع الأب صدقته في المسجد لينالها المستحق، فجاء ابنه وأخذها لا بسبب كونه ابنا له، وإنما لكونه من المستحقين، فلذلك أخبر ﷺ بقبول صدقة يزيد، وحل ما أخذه معن.

قلت: ولهذا أرشد الله إلى المستحقين للزكاة بقوله:{ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْض يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}(البقرة:273)

قال: دعنا من هذا، فلهذا محله الخاص، ولنعد للظلم الذي يقع فيه الكرماء.

قلت: لقد تحدثنا عن الظلم الذي يجعل الكرم موضوعا في غير موضعه، وبالتالي لا يحقق الغرض المقصود منه.

قال: وهناك ظلم أشنع منه.

قلت: أشنع منه.. ما هو؟

قال: أرأيت لو زرت طبيبا ليعالج جرحا طفيفا أصابك، فأخذ هذا الجراح أدواته فداوى جرحك..

بادرته، قائلا: أشكره جزيل الشكر، وأعطيه جزاءه على خدمته.

قال: لكنه لم يطلب جزاء ماديا على ذلك، بل جعل جزاءه أن يمسك سكينه ويضع في قلبك جرحا بدل

---

1)) البخاري.

الجرح الذي في يدك.

قلت: أقاتله إن هم بذلك، فإني أرضى أن تجرح يداي جميعا، بل جميع أطرافي، ولا أرضى أن يجرح قلبي، فهو المحرك الذي يضخ الحياة لأعضائي وأجهزتي.

قال: وهكذا يفعل المتكرم الذي يضع بعض فضلاته في يد هؤلاء المساكين، ثم يمسك سكينه، ويقطع قلوبهم إربا إربا.

قلت: فهمت قصدك، أنت تريد المن والأذى الذي يتعامل به المكرمون مع المساكين.

قال: نعم، فإن المن أخطر من الفقر، فالمن يصيب الروح والقلب والحقيقة الإنسانية، بينما الفقر لا يصيب إلا بعض أجزائك الظاهرة.

قلت: ذلك صحيح، فقد اشتد القرآن الكريم في النهي عن كل ما يؤذي الفقير.

قال: لأن الله تعالى الرحيم يعلم دخيلة الفقير، فهو لا يشكو من الجوع بقدر ما يشكوا من الحرمان النفسي والاجتماعي.

قلت: ولهذا اعتبر الله تعالى القول المعروف والكلمة الطيبة التي تقال للفقير تطمينا له واحتراما لشخصه أفضل من الصدقة التي يتبعها أذى، قال تعالى: { قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}(البقرة:263)

قال: ولهذا نهى الله تعالى عن المن والأذى، واعتبره محبطا للصدقات، فقال:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا

كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}(البقرة:264)

قلت: لقد شبه الله تعالى صدقاتهم بالتراب الذي يكون على صخر أملس، يراه الناس ترابا غنيا، ولكن مطر الأذى إذا نزل عليه تركه أملس يابساً، لا شيء عليه من ذلك التراب.. وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند اللّه، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب.

قال: وشبه الله مآل أعمالهم، فقال:{ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}(البقرة:266)

قلت: هذا مثل ضربه القرآن الكريم لمن يحسن العمل أولاً، ثم ينعكس سيره فيبدل الحسنات بالسيئات، فيبطل بعمله الثاني ما أسلفه من العمل الصالح، فيخونه سلوكه هذا أحوج ما يكون إليه.

العجز:

قال: أتعلم الصفة الرابعة التي ترفع أملك عن الخلق لتوجهه إلى الله؟

قلت: إنها العجز، لقد ذكرت لي ذلك، ولكنها صفة المستضعفين، وهي بالفقراء ألصق، فهم إن لم يقعد بهم عجز قواهم الصحي قعد بهم عجز جيوبهم، فعيونهم بصيرة وجيوبهم قصيرة.

قال: بل الخلق كلهم عاجزون، لا ينفعون ولا يضرون ألم تسمع قوله ﷺ لبعض أصحابه:(يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم

ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[1]

قلت: لقد قرأت الحديث وحفظته.

قال: ليس الشأن أن تحفظه، ولكن الشأن أن تعيشه.

قلت: فكيف أعيشه؟

قال: تقرر معانيه في قلبك، لتنتقل من كونها علما إلى كونها حقيقة، ومن كونها حقيقة إلى كونها معرفة.

قلت: فما الفرق بين كونها علما وكونها معرفة؟

قال: كالفرق بين رؤيتك للنار ولمسك لها.

قلت: فرق كبير.. فأنا أتمتع برؤية النار، ولكني لا أطيق لمسها.

قال: فكذلك أنت تفهم عجز الخلائق، ولكن لا تطيق الاستغناء عنهم، فلذلك تمد يدك، بل يداك إليهم كل حين.

قلت: فكيف أعلم عجز الخلائق؟

قال: بأن تقارن قواهم بقوى غيرهم.

قلت: كيف ذلك؟

قال: كيف تعلم عجز المصارع؟

قلت: إذا صرعه من هو أقوى منه.

قال: أفيمكن للذي صرع أمامك أن يتيه عليك بقوته؟

---

1)) الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

قلت: لا.. بل إنه سيستحي من إظهار قوته، لأنها ستنطق بعجزه.

قال: فقارن قوة الخلق التي يتيهون بها، ويتصورون أن لهم القدرة على مصارعة الكون بها بما تراه من مظاهر القوة في الكون.

قلت: إن عقلي ليتيه عندما يحاول إجراء مثل هذه المقارنة، إن الكون أعرض بكثير، والإنسان أضعف بكثير.. إنه يسحق سحقا.

قال: ومع ذلك ظهر فيكم من يدعي القوة التي يستعلي بها على الله.

قلت: أجل.. وقد قص علينا القرآن الكريم نماذج من ذلك، فذكر نموذج عاد، فقال:{ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(فصلت:15)

قال: وهل هناك خلفاء لعاد؟

قلت: هناك ثمود، وفرعون، والقرى الكثيرة التي أشار إليها القرآن الكريم من غير أن يسميها.

قال: فما كان جزاؤها؟

قلت: هلكوا، ولم تنفعهم قواهم التي تاهوا بها على الله، كما قال تعالى:{ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} (التوبة:69)

قال: ولكنكم لا تزالون تسيرون على خطاهم.

قلت: ذلك صحيح، فلا زلنا نتيه بالقوة، ونخاف من الأقوياء، بل نسمي الشعوب التي تضخمت عضلاتها بما تملكه من أسلحة بـ (القوى العظمى)

قال: وأنتم ماذا تسمون؟

قلت: الشعوب المستضعفة.

قال: وتمدون أيدكم إليها.

قلت: نمد أيدينا إليهم بثرواتنا، ويمدون أيديهم إلينا بما يشبع بطوننا.

قال: فاخرجوا من ضعفكم وعجزكم.

قلت: لا نملك أسلحة نووية ولا جرثومية ولا مصانع جبارة كمصانعهم.

قال: تخرجون من ذلك بالاعتماد على قوة الله، وباعتقاد عجزهم وفاقتهم وحاجتهم وضعفهم.. ألا تسمع القرآن الكريم؟

قلت: بلى.. أسمعه من مقرئين يحركون الجبال بترانيمهم.

قال: اسمعه ممن يحرك روحك، لا ممن يحرك الجبال.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد ضرب الله لكم أمثالا عن الذين يستعبدونكم من دون الله.

قلت: ما هي؟

قال: الذباب والعنكبوت.

ضحكت وقلت: أهذه القوى العظمى ذباب وعناكب؟.. أنت لا تعرفها.

قال: اسمع قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}(الحج: 73)، وقوله تعالى:{ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}(العنكبوت:41)

قلت: قرأت كلا الآيتين، ويقرؤهما جميع الناس، فما الذي يمكن أن أسمعه منهما؟

قال: أما الآية الأولى، فالله تعالى يتحدى فيها قواكم العظمى أن تخلق ذبابة واحدة، بل يتحداهم فيما هو دون ذلك أن يستنقذوا الطعام الذي يسلبهم الذباب إياه.

قلت: صدقت في هذا.. والعلم الحديث يقر بذلك.. فما إشارة الآية الثانية؟

قال: إن البيوت التي تعتصمون بها أو تخافون منها لا تعدوا أن تكون خيوط بيت عنكبوت، فهل رأيت أوهن منها؟

قلت: لا.. إن بيتها الذي تتفنن في بنائه سرعان ما يتهدم بداخل أو بخارج.. وهي لغبائها لا تختار إلا المداخل أو المخارج.

قال: وأنتم لا تختلفون عنها، فإن قواكم التي منحكم الله لا تضعونها إلا في المواطن التي تصيبكم بالهلكة.

قلت: كيف؟

قال: أنتم لا تستعملوها لترحموا المستضعفين، بل لتقتلوهم وتقضوا عليهم، وتتفننون في ذلك أكثر من تفنن العناكب في صناعة بيوتها.

قلت: ولكن خيوط العناكب واهية.

قال: وخيوطكم أوهى، ولكن الزمن الـذي تتوهمونـه هو الذي يحول بينكم وبين رؤيـة خيـوطكم وهي تتقطـع خيطا خيطا.

قلت: فكيــف أتخلص من خيــوط العنكبــوت الــتي أرتبط بها، ويرتبط الضعفاء بها؟

قال: بأن تعلم بأنها خيوط عنكبوت.

قلت: كيف؟

قال: أرأيت لو وقعت في البحـر، وحـام بـك المـوت ليلتهمك، فرأيت حبلا متينا مرتبطا بسـفينة ضـخمة فيهـا كـل وسـائل الإنقـاذ، أكنت تتعلـق بـذلك الحبـل الـذي يوصلك إلى سـفينة النجـاة، أم تتعلـق بخيـوط عنكبـوت تراها من بعيد كما يرى الظمآن السراب؟

قلت: أحمق أنا إن التجأت لخيوط العنكبوت، وتركت سفينة النجاة.

قال: وحمقى أنتم عنـدما تتعلقـون بالأيـدي الفقـيرة العاجزة وتتركون يد الله الممدودة إليكم.

قلت: نعم.. لقد أدركت مدى مـا نقـع فيـه من جهـل عندما نرى الخلق ولا نرى الله، ونـرى الخيـوط الواهيـة التي يمدنا بها الخلق أو يغروننا بهـا، وننسـى حبـال اللـه الممدودة إلينا.

الأمل فيه :

صعدت طابقا آخر في قصر الاستعفاف، ووقفت مع المعلم أمــام الجــوهرة الثالثــة من جــواهره، فســألت المرشد عنها، فقال: هذه جوهرة نفيسة اسمها (الأمـل فيه) من حازها حيزت له الدنيا بحذافيرها، بل كـل شـي بحذافيره.

ابتسمت في نفسي من هذه الأسماء الغريبة، ثم التفت إلى المعلم ليشرح لي حقائقها.

نظر إلي المعلم، وقال: هذه الجوهرة النفيسة لم تكن لتصل إليها، لو لم تنل الجوهرتين السابقتين.

قلت: لم؟

قال: ألم تقرأ ما ورد في بعض الكتب الإلهية من أن الله تعالى يقول:(وعزتي وجلالي لأقطعن أمل كل مؤمل غيري باليأس، ولألبسنه ثوب المذلة عند الناس، ولأخيبنه من قربي ولأبعدنه من وصلي، ولأجعلنه متفكرا حيران يؤمل غيري في الشدائد، والشدائد بيدي، وأنا الحي القيوم، ويرجو غيري ويطرق بالفكر أبواب غيري، وبيدي مفاتيح الأبواب، وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني)

قلت: أنا لا أومن إلا بما في كتابه الخاتم وسنة نبيه الصحيحة، أما سائر الكتب، فقد عراها التحريف، ولا آمن كثيرا مما فيها.

قال: ألم تقرأ قوله ﷺ في الأثر الإلهي الصحيح: (قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)(1)

قلت: بلى، قرأته كثيرا، وما أكثر ما خفت منه، فما وجه الإشارة في هذا.

قال: الأمل هو مفتاح الطلب، والطلب هو عنوان الاستعانة، والاستعانة لا تكون إلا به، فلذلك من وضع أمله في الخلق وكله الله إليهم، فإذا رفع يده عنهم وجد الله أقرب إليه من نفسه.

قلت: نعم، فهمته، لكأني بك تذكرني بقول ابن عطاء الله:(كما لا يحب العمل المشترك، كذلك لا يحب

---

1)) مسلم.

القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه)

قال: بل أقصد ما ورد في القرآن الكريم، وفي أم الكتاب، السورة التي اختزنت الحقائق.

قلت: تقصد قوله تعالى:{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} (الفاتحة:5)

قال: لا، بل أقصد السورة جميعا، فما قبلها مقدمات لما ذكرت، وما بعدها متممات لها، ألم تسمع قول علي:(لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب)

قلت: صدقت .. فما هي الحقائق الأربعة التي تنشر الأمل في قلبي في الله، فلا أرى سواه، ولا أعتمد على غيره؟

قال: وما أدراك أنها أربعة.

قلت: عهدي بك تجعل الأمور كلها أربعة.

ضحك، وقال: أنا لا أجعلها، بل هي كذلك، ألا ترى جدران بيتك الأربع؟

قلت: فاذكر لي جدران الأمل في الله الأربع.

قال: الغنى والكرم والقرب والإجابة.

قلت: فما وجه الحصر فيها؟

قال: لا يمكنك أن تأمل في فقير، فالفقير يطلب منك، ومن كان يطلب منك لا تطلب منه.

قلت: فالكرم؟

قال: قد يكون الغني بخيلا، لا يصيبك نواله، ولا تمتد إليه أعناق طمعك.

قلت: فالقرب؟

قال: قد يكون كريما، ولكنه بعيد عنك، تحبــه وتعجب من سيرته، ولكن نواله يظل بعيدا بقدر بعده عنك.

قلت: فالإجابة.

قال: قد يكـون كريمـا وغنيـا وقريبـا، ولكنـه لا يلتفت إليك ولا يهتم بك، فمشاغله أكثر من أن تنحصر فيك.

قلت: فعلمني من الحكمة ما يقرر هذه الحقائق في نفسي.

قال: هذه الحكمة تتصـل باللـه، فـالبس لهـا لباسـها، وأحرم لها إحرامها.

قلت: وما لباسها؟

قــال: الأدب، فمن لم يتــأدب عنـــد البـــاب، رد إلى سياسة الدواب.

قلت: وما إحرامها؟

قال: أن تحرم على قلبـك الالتفـات لغـيره أو النظـر لسواه، ألم تسمع ثناء الله تعالى على أدب نبيه ﷺ أمام الحضرة الإلهية، حيث قال:{ مَـا زَاغَ الْبَصَـرُ وَمَـا طَغَى} (لنجم:17)؟

الغنى:

قلت: علمت فقرهم، فحدثني عن غناه.

قال: لا تطيقه.

قلت: فقرب لي.

قال: ما هي الوسائل التي يغتني بها قومك؟

قلت: يختلفون، فمنهم من تدر عليه التجارة بشآبيب

الربح، ومنهم من تـدر عليـه الفلاحـة، ومنهم من يكـون حظه في الصناعة.. ومنهم من يكـون حظـه في تجـارة السلاح.. ومنهم المخدارت.. ومنهم..

قال: فكم تدر عليهم؟

قلت: بـــالملايين أو بـــالملايير، بحســـب نشـــاطهم واجتهادهم.

قال: فلو أن أحدا منهم ملـك طلسـما بحيث لا يتعب نفسـه في تجـارة ولا صـناعة ولا شـيء من ذلـك، بـل يكتفي أن يذكر الشيء، فيكون أمامه.

قلت: يبزهم بغناه، بل يملكهم بغناه.

قال: فإذا ملك وسائل إنتاجهم بغناه.

قلت: يحولهم خـدما لبابـه، بـل يتحولـون فقـراء بين يديه يستجدون طلسمه كما يستجديهم الشحاذون.

قال: فإذا لم يملكهم فقط، بل ملك الكواكب جميعا، بل السماء جميعا.. بل الكون جميعا، ومع ذلـك لا يفتقـر إلى شيء منها.

قلت: ذلك هو الغني المحض.

قال: ذلك هو الله، فإنه {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْـراً فَإِنَّمَـا يَقُـولُ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ}(البقـرة:117) { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}(يّـــس: 82)

ثم التفت إلي، وقـال: فمن كـان مـدد خزائنـه قولـه { كن } أتنفذ خزائنه؟

قلت: لا، فما أسرع أن يملأها إن نفذت.

قال: أخـبرني عن خـزائن قومـك الـتي يـتيهون بهـا، والتي تجعلكم تستجدونها.

قلت: فيها الذهب والجواهر الكريمة.. وفيها الأرزاق المختلفة وأنواع المآكل والمشارب.. وفيها بعض أنواع المتع الطيبة والخبيثة.. وفيها بعض الأدوية التي تخفف الآلام أو تقهرها.

قال: وهل فيها السكينة؟

قلت: دعهم أولا يجدوها، فليس في الأرض عقار صالح لتحقيقها.

قال: فهل فيها الخلود؟

قلت: ذلك حلم، ما أجمله لو تحقق، ولكن البشر يئسوا منه، فاكتفوا بالتنعم بما عندهم من أنواع النعيم الزائل.

قال: فهل فيها الشباب الدائم؟

قلت: لا، فذلك إكسير أحمر، ما أسرع ما تهب عليه رياح الخريف.

قال: فهل فيها الأمن الدائم والنعيم المقيم..؟

قلت: ما شأنك يما معلمي.. أراك مغرما بما لا يكون.

قال: فلماذا تتعلقون بالخزائن الخاوية التي تضعون فيها بعض اللعب التي لا تختلف عن لعب الأطفال.

قلت: لعب الأطفال!

قال: نعم ما الفرق بين لعبكم ولعب الأطفال.. الأطفال يشتغلون بلعبهم وقت الصبا، وأنتم تشتغلون بها في ربيع العمر وخريفه.

قلت: فهل توجد خزائن تحوي الكنوز التي ذكرتها؟

قال: نعم.. إنها خزائن الغني الحقيقي، خزائن الله،

ألم تسمع قوله تعالى:{ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}(الحجر:21)، ألم تسمع قوله تعالى:{ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ}(صّ:9)، فقد جعل للرحمة خزائن خاصة بها.

قلت: فأين هذه الخزائن؟

قال: { وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }(المنافقون: 7)

قلت: فمن يملك مفاتيح هذه الخزائن؟

قال: خزائن الله لا مفاتيح لها، بل هي متسعة للكل، ألم تسمع قوله تعالى:{ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْأِنْفَاقِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ قَتُوراً}(الاسراء:100)

قلت: فلماذا إذن نلجأ لغير باب الله، ونستمطر الخزائن الفارغة.

قال: لأنكم تصورتم أن خزائن الله بيد عباده، والله تعالى ينفي ذلك..

قاطعته قائلا: بلى.. لقد سمعت الساعة الله تعالى وهو يقول:{ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ}(الطور:37)، فخزائن الله بيد الله، لا بيد أحد من الناس.

الكرم:

قال لي: أتعلم حقيقة الكرم.

قلت: أن تنيل المحتاج من فضلك ما يضطر به إلى شكرك.

قال: ألا تعلم ما ينطوي عليه تعريفك هذا من البخل؟

قلت: كيف، فهذا هو الكرم.

قال: انتظارك المحتاج إلى أن يحتاج بخــل، وتنعمــك عليــه بفضــلك لا بــرأس مالــك بخــل، واضــطراره إلى شكرك بخل..

قلت: فما الكرم؟

قال: الكريم (هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعــد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبـالي كم أعطى ولمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفي عاتب وما استقصــى، ولا يضـيع من لاذ بــه والتجـأ ويغنيـه عن الوسـائل والشـفعاء، فمن اجتمـع لـه جميـع ذلك لا بالتكلف، فهو الكريم المطلق)(1)

قلت: هذا هو تعريف الغزالي للكريم.

قــال: وهــو لا يصــدق إلا على اللـــه، فهــو الكــريم الحقيقي وغيره كريم على المجاز.

قلت: كيف يكون كريما على المجاز؟

قال: لو أن كريمـا من كرمـاء قومـك وكـل ــ لسـعة أمواله ـ وكلاء ينوبون عنه في إيصال كرمه إلى الناس.. من يكون الكريم في نظر النـاس: هـل الـوكلاء، أم من وكلهم؟

قلت: بـل الكـريم صـاحب المـال، أمـا الـوكلاء فهم مجرد عمال ينالون أجورهم، بل هم يعيشون تحت ظــل كرم ذلك الكريم، فكيف يطمعون في وصفه.

قـال: ولكنكم انشـغلتم بمـدح الـوكلاء، ومـد أيـديكم إليهم، ونسيتم من وكلهم.

قلت: كيف؟

---

1)) المقصد الأسنى.

قال: من أين ينفق كرام قومك؟

قلت: من أموالهم.

قال: وهي من أين؟

قلت: منهـا مـا ورثـوه، ومنهـا مـا حصـلوا عليـه باجتهادهم.

قال: أرك تردد دائما مقالة قارون:{ إِنَّمَا أُوتِيتُـهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} (القصص: 78)

قلت: فما أقول؟

قال: قل مقالة القرآن الكريم.

قلت: وما هي؟

قال: المـال مـال اللـه، ألم تسـمع اللـه وهـو يقـول: { وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحـاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُـوهُمْ مِنْ مَـالِ اللَّهِ الَّذِي آتَـاكُمْ ﴾ (النور: 33)؟

قلت: فزدني تفصيلا.

قال: أو لم تؤمن؟

قلت: بلى، ولكن ليطمئن قلبي.

قال: ذكرنا سابقا نوعين للكرم، أو ركنين للكرم.

قلت: نعم: الكرم النفسي، والكرم المادي.

قال: فما منتهى الكرم النفسي؟

قلت: البشر والابتسامة والكلمة الطيبة.

قـال: فلـو أذن لـك مسـؤول كبـير في الـدخول إلى

مكتبه والحديث معه وتقديم طلباتك بين يديه؟

قلت: يكـون قـد أكرمـني غايـة الإكـرام، بـل لا أظن أنني سأنسى جميل صنعه، ولا كريم طبعه.

قال: فلو كانت المبادرة بالدعوة منه لا منك؟

قلت: يكون أكرم وأنبل.

قال: فلو تكرر ذلك منه كثيرا؟

قلت: لا طاقة لي حينها بشكره.

قال: فهل يكون بذلك قد أحسن إليك؟

قلت: يكفيني سلوكه هذا ليكون محسنا لي، ولــو لم أنل منه أي شيء، فحسبي أن أنتسب إليه.

قال: فالله تعالى خالق كل شيء ـ والـذي لا يشـكل ذلك المسؤول الـذي كـان لـه ذلـك الخطـر في نفسـك سـوى شـيء ضـئيل جـدا من ملكـه ــ يـدعوك في كـل لحظة لأن تقف بين يديه تكلمـه ويكلمـك بلا حجـاب ولا رقيب، فهل هناك أكرم من هذا؟

قلت: ومع ذلك نظل نغلق الأبواب بيننا وبينه.

قال: وتأبون إلا الذلة على أبواب الـذين يحتقـرونكم، ويسـدون أبـوابهم في وجـوهكم.. أخـبرني هـل ورد في القرآن الكريم ما يدل على حرمان الفقراء من الحديث مع الله؟

قلت: كلا.. بل أراه يخبر عن فضلهم، بل يثني عليهم من الثنـاء مـا لم ينلـه غـيرهم، قـال تعـالى:{ وَلا تَطْـرُدِ الَّذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَـدَاةِ وَالْعَشِـيِّ يُرِيـدُونَ وَجْهَـهُ مَـا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَـابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ}(الأنعام:52)

قــال: فهــؤلاء هم الفقــراء إلى اللــه على الحقيقــة

شغلتهم إرادة الله عن الطواف ببيوت عبـاده، وشـغلهم الرجاء في الله عن التعلق بغير الله، وشغلهم النظر لما في يد الله عن الطمع فيما في أيدي عباده.

قلت: صدقت في هذا..

قال: ما المدة التي يستطيع كـرامكم، حـاتم وغـيره، أن يكرموا بها؟

قلت: مدة الضيافة، وهي ثلاث، وقد تمتد أسـابيع، أو أشهرا.

قال: فلنفرض أنهـا تمتـد العمـر جميعـا.. فمـاذا بعـد ذلك؟

قلت: لا بد أن ينتهي الكرم في يوم ما.

قال: الكريم الحقيقي لا ينتهي كرمه، بل يسـتمر أبـد الآبـاد، بـل إنـه ادخـر كرمـه الحقيقي إلى الـوقت الـذي ييأس فيه الخلائق من كرم بعضهم بعضا.

قلت: متى ذلك؟

قال: بعـد المـوت مباشـرة تتـدفق بحـار كرمـه على عبـاده الصـالحين بمـا لا قـدرة على وصـفه، ألم تسـمع قوله تعالى:{ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}(الحجر:21)

قلت: بلى، فما وجه الإشارة فيها؟

قال: إن كل ما تـراه من خـزائن الكـرم لا يعـدوا أن يكون جزءا ضئيلا جدا لا يكاد يرى من الكـرم المعـد في دار القرار.

القرب:

قال لي: لقد ذكرت لي بأن في قومك كراما.

قلت: لا أجحد ذلـك، ولـو أني اقتنعت بـأن لهم كرمـا مجازيا لا حقيقيا.

قال: فأين هم؟

قلت: هم في مناطق مختلفة من العالم .. منهم من يرمون الـدراهم في الطرقـات لينالهـا الغـادي والـرائح، ومنهم من يرحل إلى أوروبا وأمريكـا حيث يتلـذذ برؤيـة الشحاذين من الأغنياء، وهم ينحنون لجمعها.

قال: فهل يصلك منها شيء؟

قلت: تصــلني أخبارهــا، وقــد تســمعني القنــوات الفضائية رنينها.

قال: وفي الأقدمين، هل تعرف كراما؟

قلت: كثيرون هم، يســرني ذكـرهم، وتنتشـي روحي بأخبارهم.

قال: فهل يصلك نوالهم؟

قلت: كيف يصلني نوالهم، وقد رمموا؟

قال: فلماذا تشغل قلبك بكرم بعيـد إمـا في أصـقاع الأرض، أو في أطباق الثرى، وتنسـى الكـريم الـذي هـو أقرب إليك منك.

قلت: الله؟

قال: الله، فهو أكر م الأكرمين، وأقرب الأقربين، ألم تسمع قوله تعالى:{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُــرْآنٍ وَلا تَعْمَلُــونَ مِنْ عَمَــلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُــهُوداً إِذْ تُفِيضُــونَ فِيــهِ وَمَــا يَعْـزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَـالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِـكَ وَلا أَكْبَـرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}(يونس:61)

قلت: فما علاقة هذا القرب بالكرم؟

قال: القرب نفسه كرم، فمن عرف قرب الله أعطاه الله من الغنى والسعادة ما يحتقر به الأحجار التي تتباهون بها، وتملأون بها خزائنكم؟

قلت: فهل وجد المقربون لله هذه الثمرة الزكية؟

قال: وكيف لا يجدونها، وقد عاشوا بها.. فقد عمر الله عليهم حياتهم، فامتلأت أنسا، وعمر عليهم أنفاسهم، فامتلأت ذكرا، وشغل خواطرهم فلم يخطر عليها غيره.

ثم التفت إلي، وقال: من صادق منكم أميرا أو وزيرا أو ملكا أيشعر بالفقر والحاجة، أو الحزن والألم؟

قلت: كيف يشعر بذلك، وهو محل غبطة جميع الناس؟

قال: فمن كان في صحبة الله، كيف يشعر بالفقر والحاجة، أو كيف تصيبه الذلة والهوان؟

الإجابة:

قال لي المعلم: من المجيب من قومك؟

قلت: من إذا سألته أعطاني، وإن طرقت بابه فتح لي.

قال: ومن أعطاك قبل أن تسأله، وفتح لك بابه قبل أن تطرقه؟

قلت: ذلك المجيب المطلق.

قال: فذلك هو الله.

قلت: أبهذه النظرة كان ينظر ابن عطاء الله حين قال:(طلبك منه اتهام له)؟

قال: وبهذه النظرة نظر العارفون حين رددوا مع الصالحين قولهم: (لا يكن همك في دعائك الظفر بقضاء حاجتك فتكون محجوباً، وليكن همك مناجاة مولاك) ، أو حين رددوا مع ابن عطاء الله قوله:(لا يكن طلبك تسبباً إلى العطاء منه، فيقل فهمك عنه. وليكن طلبك لإظهار العبودية، وقياماً بحقوق الربوبية)

قلت: أفنترك الدعاء لهذا؟

قال: لا تسئ فهم كلام العارفين، فتحجب دون مقاماتهم.

قلت: لكني أسمع كلاما صريحا لا يحمل إلا معنى واحدا، فهذا الواسطي يقول:(أخشى إن دعوت أن يقال لي: إن سألتنا مالك عندنا فقد اتهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الثناء علينا، وإن رضيت أجرينا لك من الأمور ما قضينا لك في الدهور)

قال: الواسطي يعبر عن حالة وجدانية، لا عن حقيقة شرعية.

قلت: فكيف أجمع بينهما؟

قال: إذا توقف علاج علتك على دواء مسهل، أتتناوله؟

قلت: كيف لا أتناوله، وعليه يتوقف علاج علتي؟

قال: ولكنه سيصيبك بإسهال، وهو علة أخرى.

قلت: ولكني سوف أحتال فأبادر الإسهال بما يقيني منه.

قال: فهذا ما لحظه العارفون، فقد خشوا أن يخطئ العامة فيسيئوا فهم الدعاء، فيشبهوا الله بخلقه.

قلت: كيف يكون التشبيه في هذا المحل، ولا أسمع

يدا ولا ساقا.

قال: التشبيه لا يتوقف على اليد والساق، بل إن في قياس إجابة الله بإجابة عباده رمي لله ببخل العباد.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لأن عناية الله بعباده لا تفتقر إلى سؤالهم.

قلت: فلماذا أمرهم بسؤاله؟

قال: لتسوقهم حاجـاتهم إلى اللـه، فيكـون دعـاؤهم أفضل من حاجاتهم.

قلت: فهلا ضربت لي على ذلك مثالا.

قال: أرأيت لو أن أبـا رحيمـا رأى في ولـده تقصـيرا في طلب العلم، ورأى انشـغاله بـاللعب قـد ملـك عليـه كل وقته، فخشي إن نهره أن ينفلت منه بالكلية، فبحث عن شيخ مرشد، وأعطـاه من اللعب الـتي يـرغب فيهـا الصبيان الكثير، وقال له:(سيأتيك ابني طالبا اللعب، فلا تعطه اللعبة حتى تعلمه علما)، ثم قـال لابنـه:(أي لعبـة رغبت فيها.. فافزع إلى فلان، فإن عنده ما تشتهي)

فكان ابنه يـذهب إلى ذلـك المعلم ليأخـذ اللعب، فلا يتركـه المعلم حـتى يعلمـه مـا شـاء من العلـوم إلى أن زرع الله محبة العلم في قلبه، فجـاءه يومـا ليقـول لـه: (لم آتك اليوم لطلب اللعب، وإنما أتيتك لطلب العلم)

قلت: فما محل هذا المثال من الدعاء؟

قال: لقد علم الله حبنا للدنيا ولهوها ولعبها.

قلت: نعم، فقد قال تعالى معبرا عن طبيعة الإنسان:{ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْـرِ لَشَـدِيدٌ }(العاديـات:8)، وقـال تعـالى:{ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً }(الفجر:20)

قال: فلو قال لكم الله تعالى:(دعوا أموالكم وتعالوا

إلي) لم تطيقوا ذلك، لتصوركم أن أمــوالكم أعظم من الله.

قلت: هــذه حقيقــة نعيشــها، وإن كنــا لا نجــرؤ على التصريح بها.

قال: فلذلك جعل الالتجـاء إلى بابـه، وطـرق خـزائن كرمـه أسـبابا لا لـرزقكم فقـط، فقـد ضـمن ذلـك لكم، وإنمـا لتسـعدوا بلقائـه، وقـد يجعلكم ذلـك تطلبونـه، ولا تكتفون بالطلب منه.

قلت: وما الفرق بينهما؟

قال: كالفرق بين الحقيقة والخيال.

قلت: وما الفرق بينهما؟

قال: كالفرق بين قامتك وظلها.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: كالفرق بين الوجود والعدم.

قلت: ولكن ظلي موجود.

قال: بك لا به.

مد يدك إليه:

صعدت مع المعلم طابقا آخر في قصـر الاسـتعفاف، وهو آخــر طوابقــه، ومنــه تمتــد اليــد الــتي رأيتهــا خــارج القصر، فوجدنا شعاعا عظيمــا متلألئــا، سـألت المرشــد عنه، فقال: هذه جوهرة نفيسة من جــواهر الاسـتعفاف اسمها (مد يدك إليه)

التفت إلى المعلم، وقلت: أفي هذا المحل أضع يدي كما ذكرت؟

قــال: نعم، في هــذا المحــل تضــع يــدك في محلهــا

الصحيح.

قلت: أهناك حجـر كـالحجر الأسـود ألمسـه في هـذا القصر؟

قال: الحجر الأسـود حجـر واحـد تلتقي عنـده أفئـدة المؤمنين.

قلت: فأين أضع يدي إذن؟

قال: املك يدا أولا، ثم اسأل عن المحل الذي تضعها فيه.

التفت إلى يدي، وقلت: ها هي ذي يدي في جسدي، فكيف أحتاج إلى امتلاك يد.

قـال: تحتـاج للتحقـق بحقـائق هـذه الجـوهرة إلى امتلاك أربعة أيد.

قلت: تقصد يدين ورجلين؟

قال: لا.. أربعة أيد، لكل يد لسان يعبر عنها.

قلت: هذا وصف غريب.. لعلك تريد أن تحولني كائنـا أسطوريا.

قال: ما فائدة اليد؟

قلت: إمساك النعمة.

قال: فكيف تأتيك النعمة؟

قلت: بسؤالها.

قال: فهل يمكن أن تمد يدك لبعض النـاس من غـير أن يتكلم لسانك بما تحتاج؟

قلت: لا.. لأنه ربما يظن أني أمد يـدي لمصـافحته، لا لسؤاله..

قال: وربما يعطيك ما لم تسأل.

قلت: وربمـا يمـد يـده إلي ليبطش بي لتصـوره أني مددتها للبطش به.

قال: فما الذي يعبر عن قصدك من مد يدك؟

قلت: لساني.

قال: ولذلك يستعمل الشحاذون ألسنتهم.

قلت: ولولاها لم ينالوا أي شيء.

قال: فمن أشطرهم؟

قلت: أقدرهم على إظهار اضطراره وفقـره وعجـزه ومسكنته.

قال: فكيف يظهر ذلك؟

قلت: للاضـطرار لسـانه، وللافتقـار لسـانه، وللعجـز لسانه، وللمسكنة لسانها.

قال: فقد أقررت إذن بالألسنة الأربع الـتي تعـبر عن الأيدي الأربع.

قلت: نعم.. ذكـرت الألسـنة الأربـع، ولكـني لم أذكـر الأيدي الأربع.

قال: كل يـد تعـبر عن حاجـة من الحاجـات.. إذا مـد الغريق يـده إليـك، فوضـعت فيهـا دينـارا، هـل يقبلـه أم يظل يمد يديه إليك؟

قلت: بل لو أعطيته مليارا لرماه، فما يغـني عنـه إن تلقفه الموت، بل سيظل مادا يده إلي.

قال: وما يده التي يمدها؟

قلت: يد اضطراره.

قال: فقد أقررت إذن بأن للاضطرار يده التي تختلف عن يد الافتقار، ومثل ذلك يد الضعف ويد المسكنة.

قلت: فكيف أتحقق بهذه الأيدي؟

قال: بتحققك بألسنتها.

قلت: وكيف أتعلم ألسنتها، وهل في العالم مدرسة لغات تدرس هذه الألسن؟

قال: في مدرسة القرآن الكريم تتعلم كل اللغات التي لا يفهمها البشر فقط، بل لا يفهمها الكون جميعا.

قلت: ولكن القرآن الكريم لم ينزل إلا باللغة العربية؟

قال: تلك كسوته التي يمكن أن تصبغ بلغات العالم المختلفة، ولكن حقائقه تعلمك كيف تحل الشيفرة التي تفهم بها أسرار الكون وأسرار التعامل مع الكون.

قلت: فعلم لساني هذه اللغات.

قال: التعليم للسان قلبك، لا للسان فمك.

لسان الاضطرار:

قلت: علمني لغة الاضطرار.

قال: لن تتعلم لسان الاضطرار حتى تعلم حقيقة الاضطرار.

قلت: لكني أعلم حقيقة الاضطرار.

قال: وما هي؟

قلت: ألا يبقى لي من الخيارات إلا خيار واحد، فأضطر إلى استعماله، ولو كان ثقيلا على قلبي.

قال: فاضرب لي مثالا على ذلك.

قلت: أقــذر شــيء إلى نفســي أن أتنــاول جيفــة أو أشــرب دمــا أو أذوق لحم خــنزير، ومــع ذلــك، فــإني إذا اضطررت إلى تناولها تناولتها لأحفــظ حيــاتي، كمــا قــال تعالى:{ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيــرِ وَمَــا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْــطُرَّ غَيْــرَ بَــاغٍ وَلا عَــادٍ فَــإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}(النحل:115)

قال: ولماذا اضطررت إلى هذه المستقذرات؟

قلت: لعزة غيرها، وعدم ظفري به.

قال: ففي تلك الحالــة الــتي تقــف فيهــا على أعتــاب الموت ماذا تشعر؟

قلت: أشعر بضياع عظيم وانحــدار عميــق، فــالموت بأشباحه ينتهز فرصة غفلتي ليضمني إلى حزبه.

قال: ألا تيأس في ذلك الحين؟

قلت: أيأس فقط؟.. بل تجتمع في بحــري كــل أنهــار الكآبة وكل سيول الحزن.

قـــال: في ذلـــك الحين يمكنـــك أن تتعلم لســـان الاضطرار؟

قلت: كيف؟

قال: لسان الاضطرار يتولد من شــعورك بعــدم كــل شيء إلا وجوده، وبفقد كل شــيء إلا رحمتــه، وباليــأس من كل شيء إلا الأمل فيه.

قلت: أهذا الشعور وليد ظرف خاص أمر بــه، أم هــو وليد كل ظرف؟

قال: أمــا العــارفون، فيعيشــون الاضــطرار، وهم في بحار النعم، لأنهم لا يرون منعما غير الله، فلا يضــطرون

لغير الله.

قلت: لقد ذكرتني بقـول ابن عطـاء اللـه:(مـا طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار)

قال: بل ذكرتك بقولـه تعـالى:{ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْـطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَـاءَ الْأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ}(النمـل:62).. أتـدري السـر الـذي جعل العارفين يشعرون باضطرارهم الدائم إلى الله؟

قلت: ما هو؟

قال: هـو مـا عـبر عنـه الحـق تعـالى في هـذه الآيـة بقوله:{ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ }

قلت: هذا خطاب للمشركين يذكرهم بالله.

قال: وهو خطاب للغافلين يدعوهم لتحطيم الأصـنام الـتي ترقـد في جـوانب كعبـاتهم، وتحـول بينهم وبين الاضطرار لله.

قلت: لا أعلم أن في الأرض كعبة غير الكعبة.

قـال: في قلب كـل إنسـان كعبـة، منهم من يعمرهـا بالتوحيد، ومنهم من يملؤها بالأصنام.

قلت: ولكـني لم أفهم كيـف يشـعر بالاضـطرار من يعيش في بحار النعم، فلا أعلم الاضطرار إلا في الوقت الذي يباح فيه أكل الميتة.

قال: ولكن العـارفين يشـعرون دائمـا أنهم في حـال من أبيح له أكل الميتة.

قلت: لم أفهم.. فلم أسـمع أن العـارفين يـبيحون لأنفسهم أكل الميتة باعتبارهم مضطرين.

قـال: هم لم يضـطروا للميتـة، ولن يضـطروا لهـا،

فخزائن الله تغنيهم عنها، ولكنهم مضطرون لله.

قلت: لم أفهم.

قال: لا يرون لحياتهم معنى ولا وجودا من غير الله.

قلت: كل الخلـق كـذلك، فلا يمكن أن يوجـد موجـود من غير إيجاد الله.

قال: ولكنهم يعيشون هذا المعـنى ويستشـعرونه ولا يكتفون بوضعه في زاوية مهملة من زوايا عقولهم.

قلت: فكيف يستشعرون هذا؟

قال: أتضطر أنت إلى التنفس؟

قلت: وكيف لا أضطر، ولولاه لاختنقت.

قال: فكذلك ضـرورتهم إلى اللـه، بـل هي أشـد في أنفسهم من ضرورة الهواء والماء، ألم تسـمع إلى بعض الصالحين، وقد جاءه رجل، فقال: رأيت في المنام كأنك تموت إلى سنة، فقـال الصـالح: لقـد أجلتـنى إلى أجـل بعيد أعيش إلى سنة.

قلت: فهذا يتمنى الموت الذي نهانا ﷺ أن نتمناه؟

قـال: هـذا يحب لقـاء اللـه الـذي أمرنـا اللـه تعـالى برجائه، فقال:{ مَنْ كَانَ يَرْجُـو لِقَـاءَ اللَّهِ فَـإِنَّ أَجَـلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ}(العنكبـوت:5) .. ألم تعلم بمـا اختبر الله دعوى محبة اليهود لله؟

قلت: بلى، فقد قال تعالى:{ قُلْ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ هَـادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَـاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَـوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}(الجمعة:6)

قـال: فلـذلك فـإن العـارفين قـد يصـبرون على كـل شيء، ولكنهم لا يصبرون عن الله.

قلت: لقد ذكرتني ببعض الصالحين.

قال: حين وقف عليه رجل، فقال: أي صبر أشد على الصابرين فقال: الصبر في الله قال السائل: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله، فقال: لا، قال: فإيش هو قال: الصبر عن الله، فصرخ الصالح صرخة كادت روحه تتلف.

قلت: قد فهمت اضطرار العارفين، فما اضطرار غيرهم؟

قال: أما غيرهم، فلا يشعرون بالله إلا عندما تضيق بهم السبل، وتوصد في وجوههم جميع الأبواب، ألم تسمع قوله تعالى:{ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}(يونس:22)

قلت: بلى، ولها نظيرات في القرآن الكريم، فالله تعالى يقول:{ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ}(النحل:53)

قال: ومع ذلك، فإن الله برحمته يجيب من دعاه بهذا اللسان ولو كان ما كان، ولهذا لا تعجب ما يحكى من إجابة دعوات الكافرين إن وقفوا مواقف الاضطرار.

قلت: لقد ظللت زمنا محتارا في سبب هذا.

قال: إن الله برحمته التي لا تعد وبفضله الذي لا يحد يمهل عباده ويوفر لهم من السبل ما يدعوهم إلى لزوم بابه، فأبواب الله لا توصد، ألم تسمع قوله ﷺ:(ينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا لثلث الليل الآخر، فيقول من يدعوني فأستجيب له، أو يسألني فأعطيه، ثم

يبسط يديه ويقول: من يقرض غير عديم، ولا ظلوم)(1) .. ألم تسمع بفرح الله برجوع عبده إليه؟

قلت: بلى، فقد قال ﷺ:(لله أفـرح بتوبـة العبـد من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ومعه راحلتـه، عليهـا طعامـه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاسـتيقظ، وقـد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش، قال: أرجـع إلى مكـاني الـذي كنت فيـه، فأنـام حـتى أمـوت فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده، عليهـا زاده وطعامـه وشـرابه، فاللـه أشـد فرحـا بتوبـة العبـد المؤمن من هذا براحلته وزاده)(2)

قال: فما يفهم قومك من هذا الحديث؟

قلت: يجادلون ويتصارعون في معنى الفرح وعلاقته بالله، وهل يفوض أم يؤول أم يشـبه أم يعطـل أم يثبت أم..!؟

قاطعني، وقال: ألم تسمعوا قوله ﷺ:(ما ضل قــوم بعد هدى كانوا عليه إلا أتوا الجدل)(3)

قلت: بلى، سمعوه.

قال: فماذا عملتم فيه.

قلت: اختلفوا فيه أيضا.. فأجازوه في علم الكلام.

قــال: علم الكلام، أم علم الخصــام؟.. انصــحهم أن يتعلموا بدل ذلك علم السلام.

قلت: فإلام ينظر علم السلام في فرح الله بعبده؟

قـال: إن من آتـاه اللـه السـلام في قلبـه لا ينشـغل

1)) مسلم.

2)) البخاري ومسلم.

3)) أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم.

بالألفـاظ، فيتيـه في الجـدل، بـل ينشـغل بالحقيقـة والمعـاني، فيستشـعر من الفـرح والسـرور والقـرب والاتصـال عنـد سـماع هـذا الحـديث مـا لا يستشـعره الغافلون المكفنون في أكفان الحروف والأصوات.

قلت: فكيف يعبرون عن تلك المشاعر؟

قال: وهل يملك أحد أن يعبر عن مشاعره؟

قلت: أجل، هناك من يعبر عن مشاعره.

قـال: وهـل يفهمهـا الجامـدون، أم لا يفهمهـا إلا من يعيشها؟

قلت: بل يقتصر فهمها على من يعيشها.

قال: فما داموا متفقين على معايشتها، فمـا الحاجـة للتعبير عن ذلك؟

قلت: يعبرون بها للجامدين.

قال: وهل يملكون أن يفهموهم معناها؟

قلت: يقربون.

قال: فقد قرب ﷺ ذلـك إذن وكفانـا، فلنقتصـر على ظواهر ما عبر.

لسان الافتقار:

قلت: علمتـني لسـان الاضـطرار، فعلمـني لسـان الافتقار.

قـال: لن تتعلم لسـان الافتقـار حـتى تعلم حقيقـة الافتقار.

قلت: الافتقار معروف.

قال: فما هو؟

قلت: أن تعود إلى بيتك خالي الوفاض، وعليك ثيـاب مرقعة، وأبناؤك من حولك يتضاغون من الجوع.

قال: وحينها يراودك وحش الحزن القاتل ليبعدك عن ربك، وينزع من قلبك الابتسامة.

قلت: ربما.

قال: فهذا افتقار كافر، يحجبك عن ربـك، ولا يقربـك إليه.

قلت: فهل هناك افتقار مؤمن؟

قال: أجل، هناك افتقار الصديقين.

قلت: ولكــني علمت منــك في كــنز الاســتغناء أن الصديقين أغنياء بالله.

قال: لا يتحقـق الصـديق بـالغنى باللـه حـتى يتحقـق بالافتقار لله.

قلت: فما لسان الافتقار؟

قال: هو عزل النفس عن مزاحمة الربوبية.

قلت: فهو السلام مع الله إذن؟

قال: هو قمة السلام مع الله.

قلت: كيف؟

قال: لأن من دخل على الله مستغنيا خرج من عنـده فقيرا، ومن دخل عنده فقيرا خرج مستغنيا.

قلت: لا أراك تفســر الغــوامض إلا بــالغوامض، فهلا فسرت لي.

قال: أرأيت لـو دخـل عليـك رجـل يسـتجديك، فقعـد يفخر عليك بمعلقة عمرو بن كلثوم أكنت تلتفت إليه؟

قلت: كنت أزدريه، فمن قال ما قـال عمـرو لا ينبغي أن يستجدي.

قال: فكذلك أنتم تطلبون الله، ولا تغضون أطـرافكم عن أنفسكم التي تزاحم الله.

قلت: كيف نزاحم الله؟

قال: تدبرون وتعارضون وتناقشون وتجادلون.

قلت: نحن نفعل هذا مع الله؟

قـال: نعم، أنتم تطلبـون اللـه.. ولكنكم تمتلئـون في نفوسكم استغناءٍ عن الله، ألم يقـل اللـه فيكم:{ كَلَّا إِنَّ الْأِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} (العلق:6 ـ 7)

قلت: فحقيقة الفقر إذن ألا تكون لنفسك، ولا يكـون لها منك شيء بحيث تكون كلك لله.

قال: أجل، هذا هو الافتقار، وهذا هو لسانه.

قلت: ولكن هـذا حقيقـة كونيـة، فمن يجـادل في أن العبد ليس له شيء إلا ما وهبه مولاه.

قال: نعم لا أحد يجادل في ذلك، ولكن قل من يؤمن بذلك، ويعيش لذلك.

قلت: هذا تناقض.

قال: أنتم تعيشونه.

قلت: لماذا؟

قال: لأنكم تحبسون معارفكم في زنـازن، وتقيـدونها بـــالأغلال، ولا ترجعـــون إليهـــا إلا في اســـتجوابات كاستجوابات المحققين.

قلت: فيكف تعامل المعارف عند العارف؟

قال: العـارف يعيش المعـارف، فيحـرر الحقيقـة من زنزانة العقل، ليضعها في رياض الوجدان.

قلت: فما تنبت؟

قال: تنبت كل الأزهار، وتثمر كل الثمار.

تــذكرت كلام بعض الصــالحين في هــذا، فقلت: مــا أحلى كلام الأولياء في هذا الباب.

قال: كل من اتصل بالله حلا كلامه.

قلت: لقد قال ابن عطاء الله في هذا حكما.

قال: وما قال؟

قلت: قال:(كل كلام يبرز، وعليه كسوة القلب الذي منه برز)

قال: فقلوب الأولياء منورة بنـور اللـه، فلـذلك تلـوح عليها أنوار الإيمان.

قلت: يـا معلم، لـو قيـل لي: لمـاذا نطـرق أبـواب الفضل ما دام للافتقار هذا الفضل؟

قـــال: فقـــل: إن اللـــه يقيم عبـــده في المواقـــف المختلفة ليعرفـه في كـل موقـف، فتتكامـل بـالمواقف المختلفة ما أتيح له من معرفة اللـه، ألم تسـمع مناجـاة أولياء الله التي يقولون فيها:(إلـهي! قد علمت باختلاف الآثـار وتنقلات الأطـوار، أن مـرادك أن تتعـرف إلي في كل شيء، حتى لا أجهلك في شيء)

قلت: ولكن خلو اليد من المال باب للتجريد، وتجريد الظاهر ميسر لتجريد الباطن.

قال: لا، فلم يكن هكذا سـلوك الأنبيـاء الـذين جعلهم اللـه قـدوة لعبـاده، ولا هكـذا نصـح الأوليـاء، ألم تسـمع حكمة ابن عطاء الله:(إرادتُـكَ التجريـدَ مـع إقامـةِ اللـه

إِيَّاكَ في الأسباب من الشّهوة الخفيةِ، وإرادتُكَ الأسـبابَ مع إقامةِ الله إِيَّاكَ في التجريد انحطاطٌ عن الهِمَّةِ العَلَيَّةِ)؟

قلت: بلى، ولكن..

قال: ألم تسمع قولـه ﷺ:(ثلاثـة لا يكلمهم اللـه عـز وجـل يـوم القيامـة: الشـيخ الـزاني، والعائـل المزهـو، والإمام الكذاب)(1)

قلت: بلى.

قال: فقـد اعتـبر ﷺ الفقـير المتكـبر بعيـدا عن اللـه قريبا من النار، فإفراغ الجيـوب ليس هـو الطريـق، بـل الطريق هو إفراغ القلب من حب الدنيا والرغبة فيها..

لسان العجز:

قلت: فعلمني أن أتكلم بلسان العجز.

قال: لن تتعلمه إلا إذا تحققت بالعجز.

قلت: لقد عرفت في الجوهرة السابقة عجزي.

قال: ذلك عجز الخلائق، فأين عجزك؟

قلت: أنا من الخلائق.

قال: هنـاك فـرق كبـير بين رؤيتـك للخلـق، ورؤيتـك لنفسك.

قلت: كيف ذلك؟

قال: عجزك وعجز الخلائق ضروري، ولسـان العجـز يستدعي شعورا، فقد يعيش المـرء أشـل، ولكنـه يغيب عن شـلله متصـورا أن لـه قـوى المصـارعين وحملـة الأثقال.

---

1) رواه البزار .

قلت: وكيف أتحقق بشعور العجز؟

قال: بأن ترى نفسك عبدا له، لا تتحرك إلا بتحريكه، ولا تتوقف إلا بإيقافه، ليس لك من ذاتك قوة، ولا لك من ذاتك حول.

قلت: تعني أن أقول:(لا حول ولا قوة إلا بالله)

قال: تقولها ترجمة عن حقيقتك، لا حروفا وأصواتا من لسانك.

قلت: فما ألحظ فيها؟

قال: تلحظ قوته، فتطيش قوتك أمام قوته، وتلحظ حوله، فيطيش حولك أمام حوله.

قلت: فترجم ذلك لخيالي ليستوعبه وجداني.

قال: انظر إلى القوى التي تتيه بها.

قلت: قوة الإرادة، فهي القوة التي تدكدك الجبال، وتفل الحديد، و..

قال: أدبها بقوة الله حتى لا توقعك في المهالك، أو ترمي بك في أودية العجب والغرور.

قلت: وكيف أؤدبها؟

قال: لا تنسبها لنفسك، بل تنسبها لله.

قلت: كيف، وأنا أشعر أنها قوتي وحيلتي.

قال: شعورك بها يدلك على الاعتماد عليها، واعتمادك عليها يحجبك عن الله، ألم تعرف أن الله لا يقبل على القلب المشترك؟

قلت: بلى، فقد عرفنا حكمة ابن عطاء الله:(كما لا يحب العمل المشترك، كذلك لا يحب القلب المشترك. العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل

عليه)

قال: وهذا ما كان عليه أكبر العارفين.

قلت: تقصد الجنيد، أم.. ؟

قال: أقصد محمدا ﷺ، فما الجنيد وغيره إلا أشعة من نور المصطفى ﷺ، وقطرات من بحره، ومفردات من فهرس كمالاته، فلا تنشغل بالأشعة عن الجواهر، وبالقطرات عن البحار، وبالمفردات عن الفهارس.

قلت: فكيف كان ﷺ متحققا بهذا الشعور بالعجز أمام الله؟

قال: ما هو دعاؤه ﷺ الذي دعا به في الطائف؟

قلت: الدعاء معروف، وقد سبق أن ذكرناه في بعض مجالسنا، ومن صيغه:(اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهمني؟ أم إلى قريب ملكته أمري، إن لم تكن ساخطا علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تحل علي غضبك أو تنزل علي سخطك ولك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)[1]

قال: كيف ترى النبي ﷺ في هذا الحديث؟

قلت: أراه ملتجئا إلى الله متضرعا إليه، كما يلتجئ الصبي الصغير الضعيف إلى والديه.

قال: وهل تاه ﷺ بحيلة أو بقوة؟

قلت: لا، بل تبرأ من كل حيلة أو قوة، وأسند أمره كله لله.. ولكن يا معلم قد كان هذا في حالة شديدة،

---

1)) الطبراني في الكبير.

ونحن قد نلتجئ إلى الله في مثل هـذه الأحـوال، ولكنـا في مواقـف العـزة ننسـى ذلتنـا، وفي مواقـف القـوة والشدة ننسى عجزنا.

قال: كان هذا حاله ﷺ الدائم، ألم تسـمع إليـه، وهـو يقول في ورد نومه الدائم:(اللهم أسلمت نفسـي إليـك ووجهت وجهي إليـك وفوضـت أمـري إليـك، وألجـأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليـك، لا ملجـأ ولا منجى منـك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت) (1)

قلت: ولكن كثـيرا من قـومي اسـتغنوا عنهـا بـأوراد وضعوها لأنفسهم.

قال: أهم أعرف بالله من رسـوله ﷺ؟ أم لم يبلغهم مـا ورد عنـه ﷺ؟ أم لم يكفهم مـا ورد عنـه ﷺ؟ أم يريدون التميز بأنفسهم عن أمته ﷺ؟

قلت: أهم مبتدعون؟

قال: أنا لست قاضيا حتى أحكم عليهم، ولكنه ﷺ هو ربـان سـفينة النجـاة، وهـو الـدليل في المتاهـات، فمن ابتعـد عن الربـان قـد يغـرق، ومن ابتعـد عن الـدليل ستلتهمه المفازات.

قلت: لكن يا معلم ألا ترى أن هناك تعارضـا بين مـد اليـد إلى اللـه بلسـان العجـز، وبين اسـتعاذته ﷺ من العجز، فقد صح في الحديث قوله ﷺ:(اللهم إني أعـوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهـرم وعـذاب القبر وفتنة الدجال)(2) فقد استعاذ النـبي ﷺ من العجـز ولواحقه.

وقد ورد في حديث آخر النهي عن العجز، فقال ﷺ:(

---

1)) البخاري ومسلم.

2)) مسلم.

المؤمن القوى خير وأحب إِلى اللـه من المؤمن الضعيف، وفى كل خير)[1]

قال: ليس هذا فقط، بل ورد ذم العجز في القرآن الكريم، فقد قال تعالى مخبرا عن عجز المنافقين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ:{ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}(آل عمران:168)

قلت: إذن أنت تقر معي بذم العجز، فكيف يستقيم هذا مع طلب العجز، ومد اليد بلسان العجز؟

قال: العجز والقوة أمران نسبيان، فقد تظهر قوتك مع شخص، وتظهر عجزك مع آخر، فتكون قويا في الأول عاجزا في الثاني.

قلت: هذا صحيح، فإظهار قوتي مع من هو أقوى مني فضيحة لي، وقد يجرني إلى المتاعب التي لا أتحملها.

قال: فكيف إذا كان هذا القوي الذي يفوقك قوة هو الله؟

قلت: إظهار قوتي مع الله حمق.

قال: وهذا هو الذي عناه الأولياء بلسان العجز، فهم لا يريدون عجز الكسل، وإنما يريدون عجز الأدب.. ألم تسمع قصة الصاحبين المتحاورين في القرآن الكريم؟

قلت: بلى.

قال: فما هو المظهر الذي ظهر به الصاحب الذي رزقه الله الجنتين؟

قلت: بمظهر الكبرياء والاعتزاز بالقوة، كما قال

---

1) رواه مسلم.

تعالى:{ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً}(الكهف:34 ـ 36)

قال: فإلى ماذا دله صاحبه الناصح؟

قلت: إلى التواضع لله، كما قال تعالى:{ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً}(الكهف:37 ـ 38)

قال: وما هو الموقف الصحيح الذي دله عليه؟

قلت: هو ما نص عليه قوله تعالى على لسان الصاحب الناصح:{ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً}(الكهف:39 ـ 41)

قال: فما هي نتيجة مصارعة الكافر لله؟

قلت: هو ما نص عليه قوله تعالى:{ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً}(الكهف:42 ـ 43)

قال: أتدري لم قال:{ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً }؟

قلت: لم، فلم يذكر القرآن الكريم أن هذا الصاحب من عباد الأصنام.

قال: بلى، فقد كان من عباد أخطر الأصنام، وهو

صنم الأنا، صنم القوة التي تريد أن تصارع اللـه، وتعجـز الله.

قلت: ألهذا إذن تكون عاقبة هؤلاء الهلاك الحتمي؟

قـال: إذا جـاء مصـارع من المصـارعين مدينـة من المـدن، وتحـدى كـل مصـارعيها، فسـكتوا، ولم ينبسـوا ببنت شفة، ألا يعتقد أهـل تلـك المدينـة، بـل غيرهـا من المدن، بأن سكوتهم كان عن عجز؟

قلت: بلى.

قال: فلذلك سيأتي أبطال تلك المدينـة بكـل قـواهم ليتحدوا ذلك المصارع، ويعجزوه.

قلت: كل هذا صحيح.

قـال: فلـذلك كـل من تحـدى اللـه يعجـزه اللـه، ألم تسمع القرآن الكريم وهو يخبرنا بسقوط كل من تحدى الله في أودية العجز والهلاك؟

قلت: بلى، فقـد قـال تعـالى مخاطبـا المشـركين: { فَسِـيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَـةَ أَشْـهُرٍ وَاعْلَمُـوا أَنَّكُمْ غَيْـرُ مُعْجِـزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْـزِي الْكَـافِرِينَ}(التوبـة:2)ـ .. وخاطب الذين تصوروا عجز اللـه عن أن يعيـدهم أحيـاء بعد أن يصيروا ترابـا، فقـال:{ إِنَّ مَـا تُوعَـدُونَ لَآتٍ وَمَـا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ}(الأنعام:134)ـ وقال تعالى:{ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَـقٌّ هُـوَ قُـلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَـقٌّ وَمَـا أَنْتُمْ بِمُعْجِـزِينَ} (يونس:53)

لسان المسكنة:

قلت: يا معلم، لقـد تعلمت ثلاثـة ألسـن أسـتطيع أن أمد بها يدي إلى الله، أفلا يكفي ذلك؟

قـال: لا.. حـتى تمـد يـد التـذلل مستشـفعة بلسـان المسكنة.

قلت: وما لسان المسكنة؟

قال: هو اللسان الذي تخفض به جناحك أمام الله.

قلت: أفلا يكفي الاضطرار والافتقار والعجز؟

قال: لا.. فقد يبقى في المضطر والفقير والعاجز ما يتطاول به على ربه ويتكبر به عليه، ألم تسمع قوله ﷺ: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر)[1]؟

قلت: فكيف أتحقق بلسان المسكنة؟

قال: بالافتقار إلى الله طلبا لها، ألم تسمع قوله ﷺ: (اللهم أحييني مسكينا وتوفني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين فإن أشقى الأشقياء من جمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة)[2]

قلت: البعض يتهم هذا الحديث، بل يرويه في الموضوعات[3].

قال: من فعل ذلك فقد أوهم، وما كان لنا أن نرد حديث المصطفى ﷺ بسبب سوء الفهم له.

قلت: ولكن هذا الحديث قد يعارض بما ورد في النصوص من النهي عن التذلل، فقد قال ﷺ: (لا يحل لمؤمن أن يذل نفسه)[4]

قال: هذا صحيح، فإن المؤمن أعز من أن يذل نفسه.

---

1)) النسائي.

2)) الحاكم وقال صحيح ووافقه الذهبي.

3)) مثل ابن الجوزي.

4)) ابن ماجه.

قلت: فكيف يجمع بين النهي عن الذلة وطلبها؟

قال: كما جمع بين النهي عن العجز وطلبه.

قلت: أتعني أن الذلة محرمة مع الخلق واجبة مع الله.

قال: لا أقول مثل هذه التعبيرات، فهذه تعبيرات الفقهاء، ولكني أقول: المؤمن يذل نفسه لله، ولمن أمر الله.

قلت: أجل.. لقد تذكرت.. هناك من أمرنا بالتذلل لهم، كما قال تعالى في الأمر بالتذلل للوالدين:{ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً}(الاسراء:24)

قال: ومع ذلك، فإن التذلل إلى الله يحمل كل معاني العزة.

قلت: كيف؟

قال: لأن التذلل إلى الله انتساب له، ومن انتسب إلى الله أعطاه الله من العزة ما يناطح السحاب.

قلت: ولكن.. يا معلم، هذه حقيقة.. ولكن قومي يكادون يأبون عليها.

قال: وما يقولون؟

قلت: فيهم من يبالغون في المظاهر من لباس ومراكب وبنيان بحجة التعزز بها لنصرة دين لله، حتى أن بعضهم قال:(لو جاء ﷺ في هذا الزمان للبس بذلة عصرية، وامتلك سيارة مرسيدس..)

قال: وما مرسيدس؟

قلت: سيارة فخمة، لا يملتكها إلا الكبار.

قال: فقد أخطأ من قال هذا، ورسول الله ﷺ أعظم شأنا من أن نتكلم عنه بهـذا الأسـلوب، فمن نحن حـتى نملي على رسول الله ﷺ ما يفعل؟

ثم التفت إلي، وقـال: ألم يقـرأوا كيـف كـانت حيـاة النبي ﷺ؟

قلت: بلى، ولكنهم يقولون: ذلـك واقـع، وهـذا واقـع، وأحكام الدين تتغير بتغير الواقع.

قال: أي واقع هذا؟ أتنسخون الـدين بـالواقع؟.. لقـد كان في عهده ﷺ من أنواع الترف ما كان، ولكنه ﷺ آثر الحياة التي عاشها على كـل ذلـك الـترف، مـؤثرا حيـاة العبودية.

قلت: بلى، وقــد رويت النصــوص الكثــيرة المؤيــدة لهذا.

قــال: فحــذر قومــك من ســراديب الاعــتراض على النصوص وتأويلها والفرار من مستلزماتها.. فإن الأديــان ما حرفت إلا بالاعتراض.

قلت: فكيف أمد يدي بلسان المسكنة؟

قال: بالكيفية التي علمنا ﷺ، فقد كان يلجأ إلى اللــه مطأطئ الرأس متواضعا بين يدي الله.

رابعا ـ كنز الفضل

سرت مع معلم السلام نبحث عن القصر الذي يتواجد به كنز الفضل، لاح لنا قصر جميل، كله أبواب يؤدي بعضها إلى بعضه، بل هو نفسه يشبه بابا كبيرا، وقد غرست على جوانب القصر الأربع أصناف الأشجار المثمرة والزروع اليانعة.

لقد كان القصر يشبه لوحده مدينة ضخمة تعج بالحياة، التفت إلىاللافتة المعلقة في بوابة القصر، فإذا مكتوب عليها قوله تعالى: {لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ }(يوسف: 67)

سألت المرشد عن سر وضع هذه الآية هنا، فقال: هذا قصر الفضل، وهذا القصر يعرفونه في مدائن الغنى بقصر الأبواب، فهو كثير الأبواب، وهي متداخلة بعضها في بعض، ولكن أبوابه الكبرى أربعة.

وقد وضعت هذه اللافتة هنا لتنبه الداخل إلى أن لا يلتمس بابا واحدا للدخول، بل إذا وجد بابا مغلقا في وجهه يلتمس بابا آخر، فلا بد لكل داخل لهذا القصر من أبواب مفتوحة، ومن جواهر ينالها.

قلت: كيف؟ لم أفهم.. عهدي في قصور هذه المدائن أن أدخلها من بابها، ثم أرتقي طوابقها طابقا طابقا إلى الطابق الرابع.

قال: هذا القصر ليس فيه طوابق، بل فيه بدل ذلك أبواب، ألم تسمع عن أبواب الجنة؟

قلت: بلى، سمعت، فقد قال تعالى فيها:﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ} (الرعد:23)

قال: فما فائدة تلك الأبواب؟

قلت: لا يـدخل من كـل بـاب من تلـك الأبـواب إلا المستحق له، فقد قال ﷺ:(لكـل بـاب من أبـواب الـبر باب، من أبواب الجنة، وإن باب الصيام يـدعى الريـان)[1]

قـال: أرأيت لـو أن شخصـا لم تتـوفر فيـه الخصـال الكافيـة لـدخول واحـد من تلـك الأبـواب، أيـؤذن لـه بدخوله؟

قلت: كلا، فالنصوص تدل على حرمانه منه.

قال: فكذلك هذه الأبواب.. فهي أبواب لفضـل اللـه، وهي أربعة، لا يجوز دخول أي واحد منها إلا لمن استحق دخوله.

قلت: فما هي؟

قال: باب السـعي، وبـاب الإحسـان، وبـاب الالـتزام، وباب الرجاء، أما هذان البابان الأخيران، فهما مفتوحـان لكل داخل، وأما بـاب السـعي فمفتـوح للأقويـاء فقـط، وأما باب الإحسان، فمفتوح للضعفاء فقط.

قلت: فأين جواهر هذا القصر؟

قال: هي في أبوابهـا، فبمجـرد تحققـك بمـا يقتضـي الباب من معارف تنال الجواهر التي تناسب ذلك الباب.

قلت: فلم كانت الأبواب أربعة، والجواهر أربعة؟

قال: لأن الله تعالى جعل لفضله في هذه الدنيا هـذه الأبواب الأربعة.

قلت: ولكن أبواب فضل الله لا تحد ولا تعد.

قال: ولكنها تجتمع في هـذه الأربـع لا تعـدوها، وكلهـا مــذكورة في القــرآن الكــريم، ومفصــلة في أحكــام

1)) الطبراني في الكبير.

الشريعة.

جوهرة السعي:

كان أول باب مقابل لنا باب كتب عليه (باب السعي)، ومكتوب بجانبه لافتة سـجل عليهـا (لا يدخلـه إلا من له كسب، أو قدرة على الكسب)

اقتربت مع المعلم من ذلك الباب لالتماس الجـوهرة التي يحتوي عليهـا، فلاحت لي جـوهرة نفيسـة دهشـت لجمالها.

سألت المرشـد عنهـا، فقـال: هـذه جـوهرة نفيسـة، تؤنس تعبي، وتمسح عرقي، وتمدني بالقوة التي أحمـل بها فأسي ومعولي.

ابتسمت، وقلت: أتحمل أيها المرشـد فأسـا ومعـولا، أين؟.. لم أرك تفعـل ذلـك.. بـل إن هنـدامك يـدل على أنـك لا تعـرف الفـأس ولا المعـول.. فكيـف تـزعم أنـك تحمله؟

قال: ما أسرع مـا تنسـى، ألم أقـل لـك: إنـني ذلـك الرجـل الـذي زرتـه في بيتـه.. ألم تـر في الـبيت فأسـا ومعولا؟

قلت: بلى.

قـال: فأنـا إذا مـا أرهقـني التعب، جئت إلى هـذه الجوهرة مستأنسا بها.

قلت: فما الحقائق التي تنطوي عليهـا، والـتي تجعـل لها هذه القدرة العجيبة على تبـديل التعب راحـة، والألم لذة؟

قال: ذلك سؤال يجيب عنـه المعلم، لا أنـا، فقـد أذن له في الكلام، ولم يؤذن لي.

التفت إلى المعلم، فقلت: ما الحقائق الـتي تنطـوي عليها هذه الجوهرة؟

قال: حقائقها عظيمة، ولكن الصراع الـذي تتعـاملون به مع الأشياء أوقعكم في الغفلة عنها.

قلت: فعلمني ما أصارع به الصراع فأصرعه.

قال: السلام لا يعرف الصراع، ولا يعلم الصراع.

قلت: فكيف ينتهي الصراع إذن؟

قـال: ينتهي بالسـلام.. ينتهي بالنسـيم العليـل الـذي يهب على صـفحة البحـار الهـادرة ليجعلهـا مـرآة تنتظم الحقائق.

قلت: فـانفخ في بحـار روحي الهـادرة هـذا النسـيم العليل، لأعيش السلام.

قال: ألم أقل لك: إنـني لا طاقـة لي ببنـاء ولا هـدم، فكيف تكون لي طاقة بالنفخ؟

قلت: فكيف أتحقق إذن؟

قال: بالحقيقة.

قلت: وكيف أصل إلى الحقيقة؟

قال: بالنور.

قلت: نور الشمس أم نور القمر؟

قال: بكليهما، فنور الشمس يغذي نور القمر.

قلت: تقصـد بالسـراج المنـير الحامـل للحقـائق، وبالقلب الصافي المستعد لتقبلها.

قـال: أقصـد نـور اللـه الهـادي، ونـور الإيمـان المستوعب.

قلت: فما الحقائق التي ينالها من يستلم هذه الجوهرة؟

قال: أربع.. كل واحد منها مرتبة تؤدي إلى التي تليها.. أو كل باب منها يؤدي إلى الباب الذي يليه.

قلت: ما هي؟

قال: التشجيع، والتدريب، والمال، والعمل.

قلت: فعلمني علومها.. وفقهني من فقهها.

قال: لن تتعلم علومها هنا.

قلت: فأين تتعلمها؟

قال: عندما ترحل باحثا عن مفاتيح المدائن[1].

جوهرة الإحسان:

اقتربنا من الباب الثاني من أبواب الفضل، فرأيت خيرا كثيرا يتساقط كما يتساقط الثلج، لكنه ثلج دافئ لطيف تنتشر منه روائح زكية، فسألت المرشد عن هذا الباب، فقال: هذا باب الإحسان.

قلت: باب (أن تعبد الله كأنك تراه)؟

قال: لا.. هو مشتق من ذلك الباب، وهو نور من أنواره، بل هو أول نور من أنوره.

قلت: فما جهة اشتقاقه؟

سكت المرشد، فقال المعلم: لا يمكنك أن تعرف الله، ثم يمتلئ قلبك قسوة على خلقه، فمن أحب الله امتلأ قلبه رحمة ورقة ومودة.

قلت: كيف ذلك؟

1)) انظر التفاصيل المرتبطة بهذه الأبواب في رواية: (مفاتيح المدائن)

قال: ألم تقرأ القرآن الكريم؟

قلت: بلى.. فقد قرأته بحمد الله ومنته.

قال: فكيف تحدث عن المساكين؟

قلت: لقد ربط الله تعالى حقوق المساكين بحقوقه، فقال: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ } (النساء:36)

قال: فهذا ما يدلك على أن أول نور من أنوار الإحسان أن تشمل الخلق بما أعطاك الله من فضل.. ألا ترى السراج؟

قلت: ما به؟

قال: أيمكن أن ينشر السراج الظلام؟

قلت: لو فعل ذلك لم يبق سراجا.

قال: فكذلك المؤمن العارف بربه لا يمكن إلا أن يكون محسنا.

قلت: ولكن انتظار الإحسان من الخلق قد يملأ صدور الفقراء بالغفلة.

قال: أهل الله من الفقراء لم يعنهم أن تصلهم الأعطيات التي رتبها الله لهم، وإنما ملأ صدورهم أشواقا وراحة وسرورا اقترانهم بالإيمان بالله ، وبعبوديته، فلذلك إذا نالهم ما نالهم من يد الأغنياء قبضوها باسم الله ، ومن يد الله، فبورك لهم فيها.

جوهرة الالتزام:

اقتربنا من الباب الثالث من أبواب الفضل، فرأيت رجلا يمتلئ خشوعا، وهو يمسك بمسبحة يعد بها تسبيحاته، فإذا ما انتهى من عدها، ملئت جرة أمامه

يواقيت وجواهير.

فقلت للمعلم: أهـذا يطلب حسـنات اللـه، وجـواهر أهل الله، أم تراه يطلب حسـنات أهـل الـدنيا، وجـواهر أهل الغفلة.

قـال: لا.. هـذا رجـل من أهـل اللـه ، فقـه عن اللـه، وعلم أن الله رب الدنيا والآخـرة، ولـه خـزائن حسـنات الدنيا والآخرة، فراح يملأ خزائنه منهما.

قلت: ألا يقدح ذلك في إخلاصه؟

قـال: وهـل دعـا الأنبيـاء ــ عليهم الصـلاة والسـلام ـ أقوامهم لغير الإخلاص.

قلت: كلا.. ولكن ما علاقة ذلك بهذا الرجل.

قال: هذا رجل سمع قول نوح ﵇:{ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَـانَ غَفَّاراً يُرْسِـلِ السَّـمَاءَ عَلَيْكُمْ مِـدْرَاراً وَيُمْـدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾ (نوح: 10 ـ 12)، فعلم أنه سـنة من سـنن اللـه، وسـحابة من فضل الله، فراح يلتمس هذا السبب كمـا يلتمس غـيره من الأسباب.

قلت: إن قومي يعتبرون هذا الباب من أبواب فضــل الله من التواكل المنهي عنه.

قال: أولئك هم الجاهلون الغافلون الـذي اسـتعبدتهم الأسباب، فلا تسلك سبيلهم.

قلت: كيف لا أسلك سبيلهم، وهو يقولون حقا كثيرا.

قال: فما الحق الذي يقولونه؟

قلت: لقــد رأوا قومــا الــتزموا المســابح، وهجــروا الفؤوس والمعاول.

قال: لقـد أخطـأ هـؤلاء كمـا أخطـأ أولئـك، ولا ينبغي

تصحيح الخطأ بالخطأ، بل الخطأ يصحح بالصواب.

قلت: فما الصواب الذي يعالج أوهام الخطأ؟

قال: هو قرع كل أبواب الله، أبواب الفؤوس ، وأبواب المسابح.. فلا يصح أن تهجر المسبحة لأجل الفأس، ولا أن تهجر الفأس لأجل المسبحة.

قلت: عرفت جدوى الفأس، فما جدوى المسبحة؟

قال: ستعرف فضلها في رحلتك في عوالم السلام، فلا خير في يد لا تحمل مسبحة، كما لا خير في يد لا تحمل فأسا.

قلت: أنت تدعو لأمرين لم ترد بهما النصوص ، فليس في النصوص ما يدل على سنية حمل الفأس والمسبحة.

قال: أما سنية الفأس، فقد علمتها في باب الفضل، وستعلم تفاصيلها في مفاتيح المدائن.. وأما سنية المسبحة، فكل رحلتك في عوالم السلام تعلمك كيف تحمل المسبحة.

قلت: فعلمني من علومها الآن ما يملؤني قناعة بجدوى المسبحة في رزق الله، وفي طرق أبواب فضل الله.

قال: ألم تسمع قوله تعالى:{ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ (الطلاق:2 ـ 3)

قلت: بلى.. فما فيها من العلم؟

قال: هذه الآيات تبين لك سنة الله مع الأتقياء من عباده، فهو يرزقهم من حيث يحتسبون ، ومن حيث لا يحتسبون.

قلت: ذلك صحيح.. وقد سمعت قوله تعالى عن مريم ـ عليها السلام ـ ما يملأ الصدر ثقة بفضل الله، فقد قال الله تعالى فيها:{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران:37)، ولكن كل ذلك يكاد يكون خاصا بها، أليست أم المسيح ﵇؟

قال: ومن قال ذلك؟ الله عدل يعامل خلقه معاملة واحدة.. كونوا كمريم طهارة وعفة ، وسيأتيكم من فضل الله ما يغنيكم عن مد أيديكم لغيره.

قلت: أيمكن أن تحصل لنا من كرامات الرزق ما حصل لمريم ـ عليها السلام ـ؟

قال: إذا اجتهدتم أن تكونوا مثلها، فترزقون بمثل ما رزقت.

قلت: من الغيب؟

قال: من الغيب، أو من الجيب.. فالله ربهما جميعا.

قلت: إن هذا سيشيع روح التواكل.

قال: من عرف الله ووحده لا يخاف عليه من هذا الذي تخافونه.

قلت: إن خوفنا من تسلل مثل ذلك الانحراف جعلنا نوسوس في طرح مثل هذه القضايا.

قال: ووسوستكم جعلتكم تتيهون عن محكمات قرآنية كثيرة، بل تتيهون عن سنن كثيرة من سنن الله، بل تتيهون عن أبواب عظيمة من فضل الله.. فحاق بكم من الجهل والغلظة ما حاق بالقرى.. ألم تسمع قوله تعالى:{ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا

عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (لأعراف:96)

قلت: بلى.. وقد سمعت معها نموذج سبأ الذي ضربه الله لهذه السنن.

قال: أرأيت كيف تغير جيوش المعاصي على النعم؟

قلت: أجل..ولكني أرى أقواما تصر على المعاصي، ومع ذلك يتقاطر عليها من فضل الله ما يزيدها عتوا وعنادا.

قال: ومن قال بأن ما ينزل عليهم من فضل الله.

قلت: إن أموالهم تتضاعف، وخزائنهم لا تزيدها الأيام إلا انتفاخا.

قال: وقلوبهم؟

قلت: لا يزيدها امتلاء خزائنهم إلا قسوة.

قال: فليس هذا من فضل الله.. فكل رزق حجبك عن الله عذاب.. وليس له من عاقبة إلا الهلاك.. هو أشبه بمن تناول من الدواء الخطير ما ملأ جسمه سموما.

قلت: صدقت.. لقد نص القرآن الكريم على هذه الحقيقة، فقال:{ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ} (لأعراف:100)

قال: أفلا تكفيكم هذه الآية لتزيل غدة عبوديتكم لغيركم، وانبهاركم بهم، وذلتكم أمامهم.

قلت: نحن نتيه على غيرنا ، ولا ننبهر به.

قال: لأي عالم ينتمي قومك؟

قلت: للعالم الثالث.. وبعضهم يصنفهم في العالم الرابع.. وبعضهم لم يضع لهم تصنيفا بعد.

قال: أليس قبولكم بهذا التصنيف جزءا من الانبهار؟

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا تطمحون لأن تصبحوا العالم الأول؟

قلت: لا حرج علينا في أن نطمح، فالله يحب أصحاب الهمم العالية.

قال: فمن هو العالم الأول في نظر قومك؟

قلت: العالم الأول هو العالم الأول.

قال: وهو عالم عاد وثمود وسبأ والروم والفرس والأندلس والـ..

قلت: حسبك لقد وعيت ما قلت.

قال: لا يكفي أن تعي.. بل عش الحقائق، وبشر بها.

قلت: فلأي عالم ننتمي.. أللعالم الأول؟

قال: لا.. لن تصلوا إلى هذا العالم حتى تتخلصوا من الحجب التي تحول بينكم وبين عوالم السلام.

قلت: فأين ننتمي الآن؟

قال: لا انتماء إلا بعد سير.. فإن سرتم انتميتم.. وكانت أول خطوة صحيحة تسيرونها هي مفتاح وصولكم.

جوهرة الدعاء:

اقتربنا من الباب الرابع من أبواب الفضل، فرأيت أيد كثيرة ممدودة إلى السماء.. ورأيت خيرا كثيرا يتساقط على تلك الأيدي.. لست أدري كيف انشغلت

عن المرشد والمعلم.. ولم أجد نفسي إلا وأنا أمـد يـدي مع أيديهم.. وأصيح بمـا بصـيحون.. وأجـأر إلى اللـه بمـا يجأرون.

قـال المعلم: ردد معي هـذا الـدعاء ، فقـد روي عن بعض الصـالحين أنـه قـال:(مـا دعـا عبـد قـط بهـذه الدعوات، إلا وسع اللـه لـه في معيشـته، يـا ذا المن ولا يمن عليه، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطـول، لا إلـه إلا أنت ظهر اللاجين وجار المسـتجيرين ومـأمن الخـائفين، إن كنت كتبتني في أم الكتـاب شـقيا فـامح عـني اسـم الشقاء، وأثبتني عندك سـعيدا، وإن كنت كتبتـني عنـدك في أم الكتاب محروما مقترا علي رزقي، فامح حرماني ويسر رزقي وأثبتني عندك سـعيدا موفقـا للخـير، فإنـك تقـول في كتابـك الـذي أنـزلت { يَمْحُـوا اللَّهُ مَـا يَشَـاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} (الرعد:39))

قلت: أتصدق مثل هذا يا معلمي؟

قال: وما الذي يمنعني من تصديقه؟

قلت: الصالحون كانوا يطلبون اللـه ، ويرشـدون إلى الله ، ولم يكن يطلبون الدنيا.

قال: وطلب الدنيا وسعتها حجاب الغافلين عن اللــه، أمـا العـارفون الفـاقهون عن اللـه ، فلـو وضـعت الـدنيا جميعا في خزائنهم ما شغلتتهم عن الله لحظة واحــدة.. ألم تسمع مقالة سليمان ؟

قلت: أي مقالة؟

قال: لقد قال لله ، وبإلحاح متضـرع:{ رَبِّ اغْفِـرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْــدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (صّ: 35)

قلت: بلى.. ولا زلت محتــارا في ســر هــذا الطلب العجيب.

قال: ستفقه سره الأوفى في مفاتيح المدائن.. أما هنا فاعلم أن سليمان عليه السلام في غمرة ثقته بحبه الله، وامتلاء قلبه به ، قال: يا رب ابتلني بما شئت.. بالمال.. بالملك.. بل بالملك الذي لا يوجد نظيره.. فلن يزيغ بصري عنك ، ولن يطغى.

قلت: لقد فقهت هذا.. ولكني لا أفقه أن أسأل الله الرزق.. مع أنه رزاق بذاته.. فما حاجتي للطلب؟

قال: الله رزاق ، ومجيب.. فلا ينبغي أن يحجبك اسم عن اسم.. اعبد الله بأسمائه جميعا.

قلت: اشرح لي مرادك من هذا.

قال: لله في كل اسم من أسمائه الحسنى عبودية تليق به.. والكامل هو الذي نظر إلى كل اسم من أسماء الله، فبحث عن أسرار العبودية المرتبطة به.

قلت: اضرب لي مثالا يوضح هذا.. فإني أكاد أفهمه.

قال: أرأيت لو أن شخصا آتاه الله قدرات عجيبة، فهو فقيه طبيب فلكي مهندس.. وفوق ذلك هو مصارع قوي، ووجيه له من الوجاهة ما يجعل الخلق يبادرون لرغباته ، فلا يرفضون له طلبا، ولا يردون له شفاعة.. ومع كل هذا كان قريبا منك محبا لك.. وكان مع ذلك كله كريما خدوما يحب أن تسأله وتتعلم على يديه، وتستشفع به.

قلت: أراه كنزي الذي منه أنهل.. وبه أستعز ، وعلى يديه أتعلم، بل وبه تبرأ عللي ، وترفع أسقامي.

قال: فأنت تلاحظ كل وصف فيه ، ثم تستفيد منه بقدر طاقتك.

قلت: لا شك في ذلك.. وكلهم يفعله.. فمن الغباء عدم استثمار الطاقات.

قـال: فـنزه ربـك عن التشـبيه.. ثم ارم بجنـود هـذا المثال على ما ذكرت من شبه، ولا أراك يصـعب عليـك تطبيقه.

قلت: لقد وعيت ما ذكرت ، فبورك فيك.

بعد أن عدت من رحلتي العجيبة مـع معلم السـلام، بـادرني بقولـه: لم تسـألني عن موقـع هـذه المـدائن، عهدي بك سؤولا؟

قلت: أعلم أن ملك الله عظيم، وقد أخبرتني بأنـا لم نـبرح الأرض، فـاكتفيت بهـذا، وقلت: لعلهـا جزيـرة من الجزائـر المجهولـة، كتلـك الجزيـرة الـتي تحـدث عنهـا سندباد البحري.

قـال: لا.. لقـد ذهبت بعيـدا، فلا أحسـب أن هنـاك جزيرة لم تدسها أقدام قومك، وهم يبحثون عن الذهب.

قلت: فأين كنا إذن، أفي المريخ، أم في القمر؟

قـال: لقـد كنـا في مدينـة واحـدة من مـدائن الغـنى بالله، وكل تلك الكنوز التي رأيتها، والتي سال لعابك لها كنوز رجل واحد.

قلت: كل تلك الثروة لرجل واحد.. مـا أغنـاه، لا أرى أن على البسـيطة من هـو أغـنى منـه.. هـذا حقيـق أن يحسد.. بل أخاف أن يقتل.

قال: لا تخـف.. فالنـاس جميعـا يحتقـرون ثرواتـه ولا يتلفتون لها، بل يضحكون منها، ويهزؤون منه.

قلت: ما أبعـدهم.. أليس لهم أعين يبصـرون بهـا، أو آذان يسمعون بها؟

قـال: { لَهُمْ قُلُـوبٌ لا يَفْقَهُـونَ بِهَـا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا }(لأعراف: 179)

قلت: { أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ﴾ (لأعراف: 179) إذن.

قال: { بَلْ هُمْ أَضَـلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَـافِلُونَ}(لأعـراف: 179)

قلت: فما حاله معهم؟

قال: هو منشغل بمدائنه يسوسها ويحفظها.

قلت: وحق له ذلك، فمن كان له مثل ثورتـه وملكـه لا يلتفت للسوقة والرعاع.

قـال: لا تفهم كلامي خطـأ، هـو يلتفت إليهم ويحبهم ويمــد يــده إليهم بالعطــاء، ولكنهم يقبضــون أيــديهم، ويطلب منهم أن يعمــروا صــناديقهم بكنــوزه، ولكنهم يأنفون من كنوزه، ويضحكون منه.

قلت: فهلا ذهب إلى الفقــراء، فللأغنيــاء من عــزة النفس ما يحول بينهم وبين تقبـل الصـدقات ولـو كـانت كنوزا.

قـال: ذهب للفقـراء والأغنيـاء، فالكـل عنـده سـواء، فالغنى غنى الروح.

قلت: فما فعل الفقراء؟

قــال: رمــوه بالحجــارة، وســخروا من دعواتــه لهم بدخول مدائن الغنى.

قلت: فماذا فعل؟

قال: هو منشغل عنهم بمدائنه وفأسه.

قلت: وما علاقة فأسه بمدائنه؟.. وأي فأس هــذا؟.. أنا لم أر أي فأس في مدائن الأغنياء.

قال: لقد رأيته في بيته.

قلت: أي بيت؟

قال: بيت المرشد الذي كان دليلك في هذه المدائن.

قلت: نعم.. المرشد موظف في تلك المدائن، ولكن ما علاقة ذلك بفأسه.

قال: لم يكن المرشد موظفا في تلـك المـدائن، بـل كان هو المدائن.

قلت: والكنوز.

قال: تلك هي ثروته.

قلت: فأين كنا نحن؟

قال: في أعماقه.. ألم أقل لك: هيا نبحث في أعماق ذلك الفقير الذي حزنت له عن كنوز الفقراء؟

قلت: أكـل ذلـك الجمـال، وتلـك الـثروة في أعمـاق فقير واحد؟

قال: نعم.. ويمكنها أن تكـون لـك جميعـا.. بـل لكـل راغب فيها.. فجود الله عظيم.

قلت: فكيف لي أن يكون في أعمـاقي مـا رأينـا في أعماقه؟

قال: بالحب والإرادة والعزيمة.

قلت: فأنا أحب وأريد.

قال: لا يكفي ذلك، بل لا بد أن تعزم، ألم تسـمع إلى الحق تعالى وهو يقـول:{ وَلَقَـدْ عَهِـدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْـلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِـدْ لَـهُ عَزْمـاً}(طــه:115)، فقـد أحب آدم ﵇ وأراد، ولكن الله عاتبه على أنه لم يعزم.

قلت: فقد عزمت.

قـال: { فَـإِذَا عَـزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}(آل عمران: 159)

قلت: قد توكلت.

قال: حق التوكل، ألم تسمع إلى قول نبيـك ﷺ:(لـو أنكم تتوكلون على الله حق توكلـه لـرزقكم كمـا يـرزق

الطير تغدو خماصا، وتروح بطانا)[1]

قلت: قد توكلت على الله حق توكله.

قال: لا تتخط رقاب الصديقين.. قـل إن شـاء اللـه.. فالتحقق عظيم.

أحسست بأني لا شيء، وأن منه كل شيء، فنطقت من أعمــاقي:{ لا إِلَـــهَ إِلَّا أَنْتَ سُـــبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}(الانبيـاء: 87) { وَإِلَّا تَغْفِـرْ لِي وَتَـرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}(هود: 47))

قال لي: أما الآن، فانزل إلى أعماقك، وقل لي: ماذا ترى؟

نــزلت إلى أعمـاقي، فلم أجــد الظلمــة الــتي كنت وجــدتها من قبــل، قــال لي المعلم: لقــد انجلت ظلمــة الاعـتراض، فاهتـد بنـور اليقين إلى مـدائن الغـنى الـتي تعمر أعماقك.

أخــذت قطعــة من نــور التســليم الــتي وجــدتها في أعماقي، وسرت بها، فـإذ بي أرى مـدائن الغـنى، عليهـا رايــات كنــوز الفقــراء، وعلى بابهــا رجــل في جمــال المرشد وبهائه، فقلت له: أنت يوسف، أم المرشد؟

فقال لي: أنا أنت.

قلت: أنت أنا؟.. كيف هذا؟

قال: اسأل المعلم.

قلت: كيف هذا؟

قـال: هـذا درس من دروس السـلام.. سـتعرفه في حينه.

ثم التفت إلي، وقال: هل أعجبتك مدائن الغنى الـتي

1) أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم.

جعلها الله في أعماقك.

قلت: بلى، فلله الحمد والمنة، ولك الشكر والفضل.

قال: فاشتغل بالدعوة إليها، كما يشتغلون بالدعوة إلى مصنوعاتهم.

قلت: كيف، وليس لي أي وسيلة إعلام.

قال: انشر هذه الرسالة، ودعها لوسائل الإعلام.

قلت: وما أسميها.

قال: ما رأيته في أعماقك، وما بحثت عنه في رحلتك.

قلت:كنوز الفقراء؟

قال: نعم.. (كنوز الفقراء)

هذا الكتاب

تـدور أحـداث هـذه الروايـة حـول رحلـة تقـوم بهـا شخصـية خياليـة ممتلئـة بالحكمـة والعلم والعقلانيـة والسلام، ولها بالإضافة إلى ذلك قدرات فائقة اسـمها (معلم السـلام) مـع تلميـذه البسـيط (الكـاتب) الـذي تـألم لحـال فقـير من الفقـراء، وثـارت في نفسـه اعتراضات شديدة على وضعه، فأدخلـه معلم السـلام إلى أعمـاق وجـدان الفقـير الـذي تـألم لـه ليكتشـف الكنوز العظيمة الـتي يمتلئ بها قلبـه.. والـتي تجعلـه يعيش سـلاما داخليـا عميقـا وعظيمـا لا يحلم بمثلـه أثرياء المادة فقراء الروح.